

رواية الهلال

أطيان



رضوى عاشور





سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمية

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول:
يناير ١٩٩٩



رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى جميل
سكرتير التحرير
محمود فاسم



ثمن النسخة

سوريا ٢٥٠ ليرة / لبنان ٧٥٠٠ ليرة /
الأردن ٣ دينار / الكويت ٢ دينار /
السعودية ٢٠ ريال / البحرين ٢ دينار /
قطر ٢٠ ريال / دبي / أبوظبي ٢٠
دروما / سلطنة عمان ٢ ريال

العدد ٦٠٢

فبراير ١٩٩٩ • شوال ١٤١٩ هـ

٦٠٢ - FEB - 1999 - ٦٠٢

أطياف

Amby

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدداً) ٦٠
جنيفاً داخل ج. م. ع تسدد مقدماً نقداً أو
بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية
٣٥ دولاراً - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا
٥٠ دولاراً - باقي دول العالم ٦٠ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمم
مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال
عملات نقدية بالبريد

للاشتراك في النويث السيد عبدالحل بسيلوني زلفول
الطبعة من ب ٧١٨٣٣ (13079) ت ٤٧١١٦٦
الإدارة القاهرة ١٦ شارع محمد عز العرب به (المبشرين)
سيفاً ت ٣٦٢٥٥٠ (٧ خطوط) المقاتل من ب
٦٦ العلوية - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تافرايا
المصور - القاهرة ج ٢٠ ع
تلكي
TELEX 92703 hilal u n
FAX 3625469
لخص

بقلم

رضوى عاشور



دار الهلال

تفصيل الأثر

كان الوادي يفيض بالأطراف، أطراف صامدة تميل مع الغروب .
تتهبط نهائيا إلى باطن الأرض حيث التهر المتقعر يحملها في
المراكب مع مجراه المتدفق إلى الشرق. صمت ثم صوت،
خافت ثم علو، صوف يتردد في الوادي بعد سفين.

لم تكن تسمع إلا الثلاثة الذين يخطونها، زوجها وأخويها.
ذهبوا ولم يعودوا. أغلقت على أصواتهم الباب، أحسنت إغلاقه
بقفل أودعت مفتاحه صدرها. وصلت. كانت في الخامسة
والعشرين. لها طفلان، والثالث ما زال بعد في بطنها. وضعت
بعد ستة أشهر فكان بنتا.

- مار هي الصغار والتبرطين، ولا دخل لأحد في شأني.

كره أولاد العمومة استكناها، كرهوا رفضها الزواج من
أى منهم، ثم كرهوا قدرتها على إدارة شأنها اليومية كلها
ليست من اللوليا. وحين اتحصر الغيظ المعلن والكنيم ظلوا
يراقبونها ويتفكرون أن تثبت لها الأيام، وثبتت لهم أيضا.

الغلاف للفنان:
هلمي التونسي

بطلان الخروج على ما أمته الأبناء والأجداد، فخلّصهم: كبرت الصغار وكفّت حاجتهم. ظلمت عيونهم بتدليلها، كانت جميلة تزيدها منعها حبنا، لا يلوّثها للمشاركة في الفرح ولا الأحزان، تغشى في الأعراس، وفي العاتق تفوق اللذبات بما ترتجله من عديد.

- شجر حلينة وتكايرا

- شجر أصولة وعادها المريب.

هذّأوا، عدّوا يلمسون لها مكثا بينهم وهي تصاحب نساءهم، يحملن جرار الماء من النهر لو يذهبن إليه بالألوى والملابس المتسخة. ومن كان يريدنها من الرجال أو يمشقها غصن الطرف منها، كنم رعبته وتنامها حتى بدا أنه نسي.

- امرأة بعشرة رجال!

قالوها يوم شاع في القرية للباء، لم تكن أذاعته ولا حكيت تفاصيل ماجرى. قالت لابنها البكر: 'بلغ أصابعك أن أبيت مائت'. أتوا، رأوا الصبية القليلة، سألوها: كيف ومتى ومن؟ بقيت صامتة. لم تنبس بينت شفة لأربعين يوما حتى ظفوا بها الخرس. ولما عاد إليها الكلام لم تتحدث في الأمر كأن شهور حملها التسعة والسنوات الأربع طيرة التي كبرت فيها ابتها سقطت أو لم تكن. واصلت زراعة الأرض مع الولدين، كلا مثلهما قوين، تشيطين، منبرين. أنتج كدهم فائتروا كيراطين

جديدين من الأرض ثم عادوا وباعوا واحدا منها لدفع مهر العروسين.

رقت شجر لينة للمرس ثم رقصت لظهور كل حفيد من أحفادها العشرة. ولما ذهب أصغرهم إلى الكتاب كانت الدار، ما شاء الله، تفيض بالحبوب، يقاتلون الأرض ويبنونها ويرعون تبتها ويحسونها ثم يقاتونها من جديد. وتفرغت شجر تشويخوتها فجاءتها الأطياف.

أول الأمر كانت اللقاءات صامتة. تدخل عليها الأطياف، تجلس في استحياء. هي أيضا لم تكن تأتينا الكلمات، تسترق للظنرات إليهم ثم تعود تحذف في كفها حقرة لا تعرف إن كان عليها أن ترحب بهم وتضيئهم لأنهم أعراب أم تفصح لهم - لأن البيت بيتهم يسكنون فيه حسب هواهم، يتحشون، إن أرادوا، أو يصمتون. ولما تكررت اللقاءات استعاد الأهل أهليتهم في الحديث وموتضون به سنين الإنقطاع. سأل أحباها، وأحيانا تتحدث، وفي الغالب تنصت. كان لديهم كلام كثير عن ساحات الحفر و'عتبة الجسر' والعطش والصكوك. كل هذا عائشوه وخبروه في شهور معدودة، كيف؟ تتسائل في استغراب لأنها عاشت قدر ما عاشت، تزوجت وأنجبت، ترمكت وكبرت الأولاد والأحفاد، نالحت الأهل حين نالحتها الأهل، وما توقر بها سوى النزر اليسير من حكاية كحكياتهم.

تصمت. لا ترفع عينها عن وجوههم وأيديهم وهي تنقبض وتبسط مع مجرى الكلام. وحين يجتمع كل أفراد الأسرة على العشاء، وأكولب الشاي بعد العشاء، تعبد عليهم بعض ما سمعته. لا تشبه وهي مأخوذة بالحديث أن الصغار يتسامزون ويكتفون ضحكاتهم. وإذا انقلبت الضحك وانتهت تقول: كانوا عن اللعب باصغار، اسمعوا حكاية لجدادكم.

ثم أهدأ فوهن. لزممت الفرائش، لا تأكل الا كسرة خبز مضمومة في الشاي المعلى بالسكر بعد صلاة الظهر، تبقى عليها حتى نفس الموعد من اليوم التالي. شح ضوؤه عينيها. لم تعد تبصر الا خيالات ولذيتها وعيالهما. الأطفاف بقيت، واضحة كالشمس، تدفنها بالمؤانسة. فاجأتها ذات يوم بما لم تكن تتوقعه قط: اصططحت معها ابتسما ولم تكن رأيتها منذ اليوم الذي ضربتها فيه ثم وجدتها ممددة على الأرض بلا حراك.

صرخت شجر صرخة مفرقة للزعت أهل الدار والجيران. جاءوا راكضين، لم ترم، لم تسمع أسنلتهم. تموى وتلطم خديها، لا ترى سوى ابتسما الوقفة أمامها لم ينتقص الزمان من تفاصيلها شيئا: عيناها، صغيرتاها، ثوبها المنقوش بزهور دقيقة يبيضاء، حتى ثيابها على حالهما لم تردعها السنوات امتلاء كأن البنات لم تبلغ بعد. بعد الصغب والبكاء والاتهامات الغاضبية جاء العتب والحديث الساهم الحزين. تروعتا فمر

شجون الكلام، وعلى غير انتباه امتدت يد شجر إلى يد ابتسما فتمسكت اليدان.

لم تذهب البنات وتأتى كالأطراف، لازمت أسها، صاحبتها ولم تفارقها حتى عندما اختلطت على شجر الأسماء وغيت النظيرة في عينيها. ثم ذهبت شجر. حملها ولداها على أكتافهما ملققة في الأكفان، بهما الأخف والأهل والجيران. عانروا الدار إلى المسجد. صلوا عنيها. نقلوها إلى المقبرة.

لماذا شجر؟

لم يكن سؤالا بل تعبيراً مجازياً عن الاستياء، إتهاماً مبالغاً في السموك على اسم جدتك الكبيرة.

- اسمك شجر؟

- الشجر عال وكبير. وقد يكون شجر المانجة!!

هذا ذلك الشق الثاني من المباراة لمجما، فمن سوى البلاء لا يحب المانجة!!

في حديقة الجيران شجرة مانجة، شجرة سامقة يتفرع جذعها الممترق الفشن إلى ثلاثة فروع حليلة كجذوع مواها من الأشجار، تطلق بدورها أصصا يصعب عذها وهي تيبين وتختفي بين كثرة الأوراق. لم تكن مجرد مشهد كيف يطل عليه شباك الطفولة. تنتهي ثمارها، تلتقطها عيناها وهي حبات

صغيرة خضراء، تنبها وهي تنمو وتملأ، وكأنها تكادها
فلا تلتصق إلا أيام العطلة الصيفية؛ تسمع ارتطام الثمرة
القاضجة بالأرض فتركض إلى الشباك، ترى أولاد الجيران
وهم يتسابقون إلى الثمرة الكبيرة بحجم كفين متلاصقين. وحين
يلقى لها أبوها بالمعلقة تاكل نصيبها منها بشهوة مزدوجة،
تسطم مذاقها الطو اللذع ورانحتها النفاذة وتغنى شهوة
معلقة في فروع شجرة ساقفة لا تملك ثمارها. قالت بزهو:
"كشجرة المانجة" تراجعست البنات، تغمست أكثر:

- كشجرة المانجة: عذبة وفاكهتها شاذة!

في المدرسة، كسبت الجولة. في البيت لم تتصالح مع الاسم
إلا بعد معرفة الحكاية التي وراءه.

كان موضع خلاف بين جناحي العائلة. بل تقتضي الذقة
القول إنه وقبر ساحة للثباتات غير المعلقة بين جدتها لأبيها
وجدتها لأميها. أطلقها جدتها عبد الغفار على المناوشات الأولى،
قال: "أفترحت أن نسويك عريضة فلم توافقي جئتن هائم قلقت؛
نسيتها شجر، ما رأيكم في شجر؟ بدت أكثر نزعاجا. قالت إن
كان لابد من إسم يبدأ بحرف التسين فليكن شريكار أو شكرية.
لو لم ترفع صوتها وتشرب بعنفها وتهزه كالديك الرومي، لو
قالت بلطف: ما رأيكم في إسم آخر؟ لطلو عنها، ولكنها مطّت
شفتيها وعوجت رأسها كئلفتي قلت سموا البنات خلفية. إغظلت،
قلت بنسبها شجر وهذا أضر كلام! وقال أبوك: على بركة

الله ميروك عليك شجر".

في ضوء هذه الواقعة تسهل قراءة تلك الصورة الأولى:
شجر معلقة في الأقطاب البيضاء لا يبدو منها سوى وجه وسورة.
شعر أسود كثيف وعينان مفتوحتان. تحملها ست جئتن على
ساقها، تحيطها بذراعها، تكاد تغمرها بجسدها الممتلئ. الوجه
مقلّب، لا يتطلع إلى الوليدة، ينظر إلى الأمام بنظرة لا تفلو
من الغل. هل كان جدتها عبد الغفار هو الذي يقف أمامها
أرضطرها وهي تتطلع إلى ألة التصوير أن تتطلع إليه لم كانت
مناثرة بجراحها إثر هزيمتها في معركة الإسم؟

لم تقبل جئتن هائم الإسم ولم تمتنع عن استخدامه، إنقضت
عليه كما ينقض العدو على سلاح غريمه فوزه منه ويصوبه
عليه. تشد على حرف التسين وهي تطبق بكلمة "شجر" مزيج
من السخرية والاستخفاف والتشفي. متى نزلت شجر المودان؟
لم تعد تذكر سوى تحياتها التلقائية إلى ممسك جدتها لأبيها.
تسبّحت بالاسم. تترسست وراءه. أصبح البيروقراطي الدال على
الجيش الذي تنتمي إليه.

لم تكن الأرض الحرام بين الممسكين سوى منضدة خشبية
مستطولة تفصل بين مقعد إلى يمين الداخل يجلس عليه جدتها
عبد الغفار وآخر يقابلها إلى يسار الداخل، تجلس عليه ست
جئتن. تقول شجر وهي بعد نصف ناتمة: "صباح الخير يا
جدي. صباح الخير يا ننة"، تدخل الحمام، تترك أسنانها، تفصل

وجها، ترتدى زيتها المدرسى وتضاد القيث- يصحبها والذاهبا إلى المدرسة قبل أن يتوجها كل إلى على- يرفع جدها رأسه عن الجريدة؛ 'مع السلامة' تبعه جتها وهي تواصل التطريز. في الرابعة بعد الظهر يمودون، تدير أمها المفتاح في الباب، يفتح على ست جئتن منهكة ما زالت في تطريزها وجدها غالبا على المقعد المقابل. يتبته لدخولهم، يفتح عينيه، يتسهم.

كل قوى الذاكرة عفى الزمن لا يتم عن شيفوخته سوى تجاعيد الوجه والبقع البنية الداكنة على ظاهر اليدين. طويل القامة، يمزز هيبة قطران من الشاهي المقلم تعضي لمعته رصانة لون البنية الداكنة، يرتديه للخروج. في البيت، تجلب الأبيض ولوحه، في الشتاء، عمامة بيضاء من وبر الجمال.

لا تنفد حصيلته من الحكايات عن المشايخ والأفندية، والوفد والمليك والإنجليز وسعد باشا، والوكالة والعاملين بها. ليوها لا يسمع هذه الحكايات. يذهب إلى علىه مرة أخرى في المساء فلا سراء إلا صباح اليوم التالي. أمها أيضا لا تسمعها. هل تسمعها جتها لأسها؟ لا بد أنها تسمع وهي جامدة في المقعد المقابل تشتغل في تطريزها ولكنها لا تضحك عندما يضحك، لا يبدو عليها التأثر عندما تصيب الرصاصية صدر الولد فتقلعه ويحمله رفاقه وهم يهتفون 'معا مصر'.

في الأول تجزت ست جئتن ثلاث قطع شست على عوارض خشبية؛ مشاهد رعوية؛ رجال ونساء يرتدون ملابس

أمرأه أوروبية قدامى يسولون أغناما على حقول مزينة بالزهور. عقلت اللوحات في الصالون في نظر مذهبة ثم أصرت على تغيير قمائ المقاعد لتستبدل به الجديد الذي طرزته؛ مرة أخرى الأمرأه الرعيان. تتوتر ست جئتن لفتح باب الصالون حتى لو كان الغرض تنظيفه، يفيض نورها عندما يأتي الضيوف ويستخدمون المقاعد ويحتسبون ما يقدم لهم من مشروب. لا ترفع عينها عن يد الضيف الممسكة بقدرح الشاي إلا لتبشها على زوجته 'الرعاء' (هكذا ستصفها ما إن تنصرف)، كان كلبى سيقف وهي تضحك، قالت لن تمر الليلة على خير، سينسكب الشاي على طقم الألبسون! أما إن جاء الضيوف بأطفالهم فذلك تكون محنة حقيقية، ثم تأتي زائرة جبهة لا تضحك وبلا أطفال فيدو أنها حين المراد. تذهب الضيفة وتقول ست جئتن: 'كان وجهها أصفر مثل القيمونة، من الحسد، والله أنا رأيت لا أدخل أحدا من الضيوف الصالون، نستقبلهم في الصالة'. تعد البخور، ترقى طقم الألبسون واللوحات الثلاث سبع مرات. ثم تأتي بورقة، تقصها على شكل امرأة، تشككها بدبوس ثم تحركها وهي تتمم بالدعوات. تخرج وتخلق الباب بمرص.

الباب المغلق لا يشير خيال شجر أورجتها في اجتيار. وراء الباب معلوم: طقم الجلوس مذهب الصواف يحتل للفرقة، يعمل من الفراغات الفاصلة بين مقاعده الغليظة مجرد ممرات ضيقة

تزيدها ضيقاً ملتحدة لها مسطح رخامي أسود لا تتطلع إليه
دون أن تذكر يوم اصطدم رأسها بحافته مثل دمها وانحنى
الأمر المستسقى وبعض الغرز. بعدها التأم الجرح وبقيت منه
ندبة دقيقة تحت حاجبها الأيمن وسخرية طفل من زملاء
المدرسة من الضمادات البيضاء حول رأسها. اللوحات الثلاث
والأبيضون زلتها نفورا من الغرفة. شيء واحد فيها تمتد لو
نقلته منها: صورة أسها وأبوها، صورة الأرفاف.

أبوها يضحك، يبدو أنه يريد -اعتراضاً للصورة- أن يؤكد
فرحه ويبدو عريماً رصيناً. تظنه الضحكة لفظاً معلقاً بين
الحالتين: حيوية شاب حصل على الفضة التي يريدها، وطقس
العرس الرسمي والصورة التي تثبته في حورن الأهل والأولاد
وأولاد الأولاد. بهواره أسها في ثوب أبيض طويل لا تستقيم
أنهته مع طفولة وجها - في الوجه عذوبة وبراءة وشيء من
قلق - هي أيضاً معلقة، بين الطفلة والأنثى: الطفلة وجللة
تتساعل، والأنثى مقبلة على استحياها. أبوها في السلحفاة
والعشرين وأنها تصفره بسبعة أعوام، تتألمها شجر الآن بعد
سنوات من رحولهما، تسمى، وقد تهلوزت الخمسين أسها
تذكرهما بسنوات كثيرة. في ثبات الصورة كان أبويها مجرد
لقين وكفت، لأن الحياة تخشى، أما لأبويها.

ماذا حدث، لماذا قلزت فجأة من شجر الطفلة إلى شجر في
كهولتها؟ أعيد قراءة ما كتبت، أتأمل، أحتق في الشائسة
المضادة، أتسائل هل لو اصل حكاية شجر الصغيرة أم أسود
إلى الجدة القديمة ولتتبع مسار ذريتها وصولاً، مرة أخرى، إلى
الحقيدة؟ والأطراف، هل أبقها مهتمة بمهمة تحوم على أطراف
النص لم أدخلها فيه وأفضل بعض حكايتها؟ وهل أقتصر على
أطراف الجدة أم أفسح المجال لسلسلة الأطراف، وهل من نص
يحتملها؟ قد تقتضي الحكمة أن أحو ما كتبت وأبدأ في سرد
حكايتي مباشرة. وشجر؟ هل أبقها وأعق الحكاية بينما أم
أسقطها وأكتفى بالكلام عن روضي؟ ولكن لماذا جاعتي شجر
وأنا أشرع في الكتابة عن نفسي؟ من هي شجر؟

حركت المؤشرة الى قائمة الملفات وضغطت ثم حركتها إلى
'عطق' فاستبدلت بالمسودة الشائسة البيضاء. أغلقت الجهاز
ودخلت لأكام. نمت نوما مضطرباً تدخلت فيه أحلام لم أذكر
منها سوى وقعها الثقيل. أصبحت مرفقة كالتي في نهاية يوم
طويل. ولما أحسني تهرتي عدت لتسأل ماذا أفعل بشجر.

شققت الجهاز وأشرت على برنامج 'كلمات' ثم فتحت ملف
شجر. كتبت:

يا بك يا شجر، تجزيين صررك كبهل هرم، هل تتناسخ

الخيول بغالاً ١٩٧٠ وهذه العربية المقدسة الثقيلة كيف كانت تبدو
 في بداية المطاف؟ حوض قل وباسمين أم أن الذاكرة تضغى
 على الماضي ما لم يكن فيه؟ في الصباح يبدو كل شيء صعباً
 ما الذي تخشيه، هل هزمك الخوف أم أخفك الهزائم؟ أم أن
 الموت والحياة يتعريان بلا حياء ويتضاجعان على فراشك وأنت
 بلا حول ولا قوة تقريبين، وتصرخين بلا صوت؟ تقوين هذه
 كلها ألوهام، تسقطينها، تقومين إلى صندوق الماء وفرشاة
 الأسنان وصباح الخير والقهوة. غبار المعارك لم يهدد بعد
 ولكنك إذ تقوين سيارتك فوق الجسر المعلق تستخرجك
 التفاصيل: نخلة تصل عودها بأعداد، غيمة مريحة، مجرى
 للنهر، سائق سيارة يتجاوزك بجلافة قلعين والسد بصوت
 مسرع ثم تكتفين أن صوتك لم يصله لأن نوافذ السيارة
 محكمة الإغلاق.

(كان المقاتل مات/ جاءه رجل وقيل: لا تمت فأتينا أحبك
 كثيراً! ولكن الجنان، يا للصخرة، وأصل الموت./
 جاءه لسان آخران، قال له: "لا تتركنا! تشجع! إرجع إلى
 الحياة!" ولكن الجنان، والتفسارة، وأصل الموت./
 ثم جاءه... (كل أحبابه)/ أحاطوا به راحم الجنان الحزين،
 هزه التكرار / نهض ببطء/ اختنن أول شخصاً وبدأ يسير.)*

وقمت شجر واستظمت المظروف البني الذي سبق أن أعلقته
 وسلمته إلى الكولتروول قبل أسبوعين، حملت المظروف، سارت
 باتجاه اللجنة، نظرت في الساعة: تمام التاسعة إلا سبع دقائق.
 انتظرت دقيقتين، سلمت المظروف للمراقب، ألقته. أعطى
 رزماً من ورق الأسئلة للملاحظين، توزعوا مهرولين بين
 الحجرات والممرات لتسلم الطالب أوراق الأسئلة. في تمام
 التاسعة بدأ الامتحان.

لمد تمؤن عليها الامتانة بالعصا في السير ثقيلت الأمر
 بهنوء أدهشها، تصالحت مع المشكلة؟ ما المشكلة في أن تصاب
 في ساقها فتضطر وهي في الخمسين إلى السير على عصا؟
 ركضت طويلاً وكثيراً فما الضرر في أن تدخل عتدها السانس
 تلامها العصا لتذكرها أن الطفلة والصبي، وبهاء المرأة في
 الثلاثين، وفي الأربعين، تكاد جميعها الآن وترك لها مهمة
 مواصلة الطريق باتجاه الشيفوخة؟ تنسى وجود العصا. في
 الامتحان تذكره. تكره دقائقها على الأرض، ترمج الطالب،
 تشتت انتباههم، لا تسمح لها بالاقتراب في هدوء من أهدم
 للقلبي نظرة سريعة على كرامة الإجابة وتطمئن خلسة أنه لا
 ينقل من ورقة خارجية عملها ليفش منها. تصبح العصا جرساً
 صفيراً منبهاً يرفع الطالب رأسه ويتطلع أولاً يفعل حياء أو
 خيلاً. ترمج العصا الجالس في أمان الله منكم في التفكير في

الإجابة، وتكتبه السارق الصغير بجهاز إذنوها المبكر.

لم تعد تمشي في النجان. تدخل للجنة، تختار نفسها موقعا يتيح لها مراقبة الطلاب. جندي حراسة يشرف على مباني السجن من أعلى الدرج، لا ينقصها سوى بندقيّة تشرعها في وجه المساجين، يا إلهي، أي دور؟

تنتهي الامتحان. جميع الملاحظون أوراق الإجابة. عادت إلي مكتبها. طلبت القهوة. أحستها. وقفت بعض الأوراق. نقلت دلوها في مشرع بعثه. نزلت إلى "الكونترول" لاستلام أوراق الإجابة. أحصت الأوراق واستلمتها: خمسمائة ست وخمسون كراسة إجابة على امتحان مادة التاريخ الحديث للفرقة الرابعة. قام أحد المعينين بربطها بخيط من الدوباز. حملها الساعي إلى سيارتها. في البيت وضعتها في غرفة المكتب. أغلقت الباب بالمفتاح. هذا تبدأ الطقس السنوي.

في سريره أغمضت عينها لتنام ولكنها رأت الأوراق التي صبحتها طوال ثلاثين عاما. عشرات الآلاف من كرايس الإجابة ترتفع من حولها أسدة تمد للفضاء. ترك لها حورا صغيرا تجلس فيه. القلم الأحمر في يدها. نظارتها على أرنبة أنفها. الكراسي مفتوحة أمامها تفيض سطور الإجابة صحن صفحاتها. فتحت عينها. فرّت قائمة بجذعها. ترتعت على السرير. ليس صحيحا! هناك دائما طاقة، ضوء، هواء صافور. لا تنكري بأشجر، ولسم يكن أبدا صافورا واحدا. دائما تأتيك، دائما تقاوتك تلك الطيور المدهشة، تخرج من بين الأوراق، تحملك معها إلى رحب الفضاء. من يتصل في هذه الساعة المتأخرة

من الليل؟ رفعت سماعة التليفون. "امرأة ناجحة؟... ما شأني بذلك؟...
مقومات النجاح؟ سينتي نحن في منتصف الليل؟". وضعت السماعة. مسح
سلك التليفون من القيش.

الفصل الثاني

هل كان المكش موحشا بما قدر الذي سمعت به؟ هل كانت
الوحشة تشرح في ممراته مع خطى الراهبات. لا وقع
لخطواتهن، لاصوت، أتلعب، أتابع حركة أجسادهن وقدماتهن؛
عشاء رأس قميصي أبيض مشفى تمتد حوافه في شكل غير
مفهوم، متصلب، هو حواف القبة، قمبحة والصلب يتدلى
من لطاق الصدر على طيات ثوب أبيض أو بى يستر الجسم
كله ويترك لزوج من الجوارب السمكة وحذاء جلدي وأظني
مشدود بالأربطة مهمة ستر القدمين.

اصطحبني أسي إلى المدرسة، أذكر ذلك، وأصبا ملابس
الراهبات، وخوفي، وذلك الليل وأنا مكشاة في مقعد خلفي في
سيارة المدرسة، تتوقف لتُنزل ثمنينة أمام بيتها ثم تستأنف
طريقها لتتوقف مرة أخرى لتُنزل ثمنينة أخرى، وأنا مورعة
ببس رمية في الوصول إلى البيت والاستكانة إلى المقعد
المشمس بدلا من القمام بثوب مهمل أقطع به الطريق إلى باب

السيارة أمام باقي التلميذات والمُشرفة والمُرافق.

كانت الزاهية: "لا بد لي تاكلتي" لا أريد. حجتني بنظرة عنيفة وكسرت الأمر. مدت يدي إلى الطعام. البسات يجلس على دكتين خشبيتين متقابلتين على جانبي مائدة مستطولة تتجاوز عليها الصبيان، لكل طفلة صحنها. رفعت المعلقة إلى فمي. مضغت. ابتعت مرة أخرى أعدت الكرة. في المرة الثالثة بندق الطعام من جوفى على المائدة وملأه في الأرض. حين عدت إلى البيت قلت لأمي أن أعود إلى المدرسة.

في العام الدراسي التالي اصطفتي إلى مدرسة أخرى. لم تكن مدرسة زاهيات. مدرسة فرنسية إسما مكتوب معروف لاتينية كبيرة على جانبي السيارة. تعملني من البيت في صباحات الشتاء نصف الممتدة وتمدني وشمن العصر تنفذ من زجاج النوافذ المظلمة. المشرفة ذات الشعر الأبيض القصير جدا، طويلة ونحيلة وصارمة ولها إسم غريب. دموازل ربه لا تسمح بالكلام فيوجد الصغار صخبهم ويستكثرون لإشهاد يومهم المدرسي الطويل ولندف شمس الشتاء وهززة السيارة. تتوقف أيقوم الطفل من خدره كأنه كان نائما ويقول وهو ينزل من السيارة جملتين بنفسي، الأولى بالفرنسية: "أرغوار دموازل" تتلوها بالبريوتية: "مع سلامة هاسطي".

صورة الأول الابتدائي: أربعة صغوم، أولاد وبسات بهن الخامسة والستة في السرى المدرسي الموحد. رهوى في

لصبي يسار الصف الأخير، شعرها قصير، وجهها شاحب، يدر شاحبا، تطلع. لا ملاحظة الوجه وكاء العيون يظهران هنا بل نظرة مبشرة ومسحة من القوف.

لم يطل الأمر على ما يبدو فالصغار يتكثرون عليهم، علباء، وينكبون أليسا. في الثامنة، في التاسعة، وفي العاشرة تجلس رهوى مرتبة على الأرض في الصف الأول أو تجلس على الدكة الخشبية في الصف الثاني. تصحك حتى وهي لا تصحك. للتصاح لعينين، ميل طفيف في الرأس أو الجذع، إعراف يكاد لا يرى في طريقة الجلوس تضح السهوى المدعى للصغيرة التي ريمت ذراعها على صدرها واكتفت بابتسامة رقيقة منسجة للمقام. في الفصل، خارج الصورة، تثرثر، تصحك بصوت عال، تشاكن زميلة لها، تعجبها المدرسة يصر سوف تسجله في تقريرها الشهري وتؤكد بهائلة حياء.

أهم ما في المدرسة ملابها الشاسع. تصبح فيه صمكتا مسهما طلت. برقص بلا رادع فلا تصطدم بمكتب المدرسة أو للسوح الأسود أو حقيبة زميلة من الزميلات. بفار المصعب للدخول إلى الفصل فيبدو هذا مؤسسا ثم بفاد مرة أخرى لوكوب سيارات المدرسة للمودة إلى مازنا فلا يكون هذا مؤسسا بعض القدر لأن هناك ما ينتظرا ونشطره. بحصى ما ممنا من كسروش ونستعد.

تركب الأتوبيس ونستقر على مقاعدنا غتقف المشرفة ونشرع

مساكنها وتخصص الطالبات وجنن تتأكد من عدم تخلف أى منهن تعلق قباب وتقول للمرافق ملكة وصحة: 'بلا يا أسطى'. تخرج الأتوبيسات متتابعة وهي بطه يملؤه عددها ولزحلم الشارع الجانبى الذى يفتح عليه الباب الخلفى المدرسة. هذا يقع بأتع التفاح المغنّف بطبقة من السكر الأحمر المعقود، ينادى على بصاحته بالقروسة: 'لى يوم، لى يوم'. من ثلاثة الأتوبيس سد لجديسا بالقروش ويعد البائع لها يده بالخطوى. التفاحة مثبته فى عبود خشبي تمسكه كل مائة كما تمسك المعاصمة وتروح لتلقها ببطه لبل ان تلطم.

لا يزال من متعة تفاح الثلاثة ظهرا إلا الكهف المستقر بطول سنوات لدراسة فى أقصى الجانب الأيسر من الملعب. يقع فى الطابق الأرضى. له باب خلفى من داخل المبني ومفد يطل على الملعب. أمام الباب الخلفى يصطف أولياء الأمر بعد دفع المصروفات فى أول العام لدراسة. أقفا بجوار أبيه، ننظر، لميزا تصل إلى عروسة خشبية تعلل بيلنسا والعملات فى الداخل. يقدم أبى وصل المصروفات فتألى السيدة بصفة كتب وكراسات جديدة. تعيد لها الوصل محتوما بضائم المكتبة. يحمل أبى للكتب وأحصل الحقيقة- الفارغة حتى الآن، وما إن نصل إلى الطابق الأول حتى نتحى جانباً لمحتشوها بالكتب. أحصل الحقيقة على ظهرى فلا يحول نظرها دور أن أمشى مقفولة. فى البيت أصفح الكتب. أنس أنفى بين صفحاتها. استثنى راحة

ورقها. أمر بكى على سطحه المعقول. تسائل المصور والكتابة.

فى سنوات لاحقة سوف ألق أمام الشباك دى القصص الجديدة الذى يطل على الملعب، انتظر أن تألى البغمة ظهري: كتاب، أو كراسة. أتألى المتاح لعيسى من المكان الذى لا ترى منه سوى جانب واحد من الكتب المصطفة بمائة فوق بعضها. لم يتح بى أبداً ولا سمعت أن غيرى من طلاب والطالبات المدرسة ترح له ن يتجاول القصص الجديدة لتفده من ناحية الملعب ولا العارصة الشسوية لهايشه المصمى على الطابق الأرضى للمبنى. لم يكن سوى ممتودع لبيع الكتب المدرسة ولكنه كان محاط بسحر ماء، وبموس وجذبية الأسماك نصف المعشة، نمد بيا لأتسا لا يملك سوى أن تفعل رغم معرفتنا أن أن نصل وأن الملامسة مستحيلة.

عام ١٩٥٦ تطورت الإدارة. أتمت المدرسة. أصبح لها إسم هربى يستند بالإسم الفرنسي على الكرويس والشهادات وباب المدرسة وسبازاتها، يكسب بخط بارز وتحته بين قوسين وبخط أصغر الإسم الفرنسي القديم. لم يعد مدرسين تدريخ فرنسا ولا جفرتها، جاء أساتذة مصريون لتعليمها هاتين اللغتين، مضاعفاً إليهما مادة جديدة إسمها التربية الوطنية، باللغة العربية رحل بعض الأساتذة الأجانب. لم يرحل استاد الرياضيات بقى ليوصل لدراسة لها بملامحة ومن غير مناسبة. ويؤخذ فيكتسى

وجهه بعلامات القروح كأننا دبابة سقطت في حقله فدلته
تقرزاً، وحيظاً أفضاء، لأننا أفسدت عليه طعامه، تبلىنا رسائله
غير كلماته أو نظراته أو إشارات الإحس، دفنا نفس الرسالة:
لا نفع، لا رجاء، إلا الحق مطلق تمام سوى هك الخط، وقراءة
الطلع في ثروبية المهمة من الجريدة تقطع الوقت حتى يعود
لزوج من صلته اليومية.

مدام ميشول أيضاً، لم ترحل عظمنا للغة الفرنسية طووال
أربع سنوات ابتقالا فيها معها من لوزة إلى لوزة حتى بدا لنا
أننا كالتنر في التراجيديا الكلاسيكية للنس مدرسا، لا زلنا
ولا فكك منه. كانت لتسرب للشعبية في مسرحية كرمونية،
خمسونية، كبيرة الألف، صغيرة العيون، يعطى الثلث الأعلى
من جيبها قصة ملوونة كالإبوب، تعرض على لمسها من جيب
الأخر للتأكد من تماسك قوسها. ترتفع اليد إلى الشعر حيناً وفي
الصباح حيناً في الحالة الثانية تقترب بحركة مفاجئة من
النرس - مبالغ فيها دماغاً - مترجمها لها غاصبة أو مخدونة أو
ستسقط معشياً عليها من حول بجاسة خطونة، يذق الجرس معلنا
انتهاء الحصة، شجه مدام ميشول إلى مراتها - تعلقها في جانب
من الفصل - تلقى نظرة سريعة على وجهها، تتحسس عرقها
الأثوبية، تخرج صبة بيوترة من حقيبتها وبحركة عصبية
خلفية تحرك اليدارة في عيطات منقطعة على بشرة الوجه
وعلى الألف تحديد، تعلق لعبة، تعيدها إلى حقيبتها. تجمع

لورالها من على المكتب وتصار على عجل فيتحرك كتابها
يميناً ويساراً يتكبر إلى سريع. تتابع حركة كتابها، لا نصحبك،
نقفص.

طلبت منا مدام ميشول كتابة موضوع إنشائي يصور به كل
منا نفسه كانت: "أوتو بورترية" كتبت: عن النيل وبيكا وأمي
ولبي وإخوتي. قلت، أحسب الشيكولاتة والمخبة ورائحة الكتب
الجنيدة وركوب الدراجة ولقصص. غصت موضوع الإنشاء
بالحديث عن أذني المدرسي. قلت إنني متفوقة في دراستي
وكية بما يكفي، وإلى الدكتور بازيال الطبيب الأرمي الذي
يعالج لي أسداني يقول: "أنت يا رضى طفلة ناهية وسيكون
لك مستقبل في العمل لدى تفتاريل".

جمعت مدام ميشول الكرايس. بعد أسبوع أعادتها. فتمت
كرامتي فإذا بالدرجة إثير على عشرة. قبل أن أستجمع
شجاعتي للاستعراض سبب الدرجة، كانت مدام ميشول:
"مدمواريل عاشور" وقلت، قلت: "إبرأى الفقرة الأخيرة من
الموضوع لدى كتبتة" قرأت بشئ من التعتيم. ما لدى حدث؟
ما لدى أخصبها إلى هذا الحد؟ لماذا السخرية والاستهزاء من
عبارة: "أعتقد أنني كية بما يكفي" قلت: "طبعاً كية بما
يكفي لكثافة إنشائها ردى يتم عن المرور والعباء، ويكتمل سووه
بخمسة أخطاء هجائية. في الموضوع خمسة أخطاء هجائية!"
هل من التائق أن أقول شيها، بدا لي أن التهديد يقتضى ذلك،

إجتهدت^{٢٠}، لذا أسفغ على أخطاء اتجاه. تصورت أنني أصرف
هجاه الكلمات التي كتبتها خطأ، لو كان عندي شك أرجعت إلى
القاموس، لم أتعهد الإهمال. ولأن الفرنسية ليست لغتي...
قاطعتني: "ستقرأ في مسرحية 'البويد' لكورنيلي. إلتحقوا
الكتاب". تسمى خمس من الطالبات إحصار الكتاب، وليسوء الخط،
كنت من يولهن. جاء التوزيع الجماعي في الأول: "إن شاء
الله... إن شاء الله! هكذا كانت الحواة بالنسبة لكنّ وهكذا
تستمر، إهمال وبلاغة وفوضى!" لم يكن في العبارة ولا في
سيرة الإزدراء الساخر جنيد. الجديد جاء فيما خصتني به من
توزيع: "مموازيل عاشور لا رجاء منك. سأفقدك من حسابي
كأنك غير موجودة!" أشاحت بوجهها بحركة تمثيلية.

لم تسقطني من حسابها: في الأسبوع التالي طلبت من
مدرسة اللغة العربية أن أذهب إلى دورة المياه، سمعت لي.
ذهبت. عدت. مدام ميشيل تلفف بالقرب من الباب في انتظار
الجرس الذي ينهي حصّة العربي ويبدأ حصّة الفرنسي. سألتني،
قلت: "كنت لأشرب!" لم تعلق. دق الجرس. التمرّلت منمرسة
اللغة العربية. خلّفت مدام ميشيل. بدأت الدرس بمحاضرة عن
استغفانا بدرّسي اللغة العربية والتسبّب الذي يسود الفصل
في حضورهم. بدد التوزيع الجماعي توجسي، "مررت بسلام"
سيقتصر كلام مدام ميشيل على تلك المعاصرة المتكررة التي
معرف أنها بلا معنى. بدأت شرح للدرس ثم فجأة بطرت في

اتجاهي: "مموازيل عاشور إنديس لشرب!" يوغت. عذارت
معددي. ذهبت إلى دورة المياه. فتحت صبور الماء وشربت.
عدت إلى الفصل. بعد دقائق بلنّتي مرة ثانية، أشرت بيدها في
اتجاه الباب وعززت الإشارة بتحريك رأسها في نفس الاتجاه:
"تومي شربي" لم أقم مباشرة هذه المرة، غلبني الارتباك.
كررت الأمر بلهجة ثرثرة فقصدت صبور الماء. وقفت
بجواره أبكي. مسحت دموعي. ضلّلت وجهي. عدت إلى
الفصل. جلست منكشدة لا أنصلي سوى أن تسمى مدام ميشيل
لني موجودة في الفصل أو في هذه الدنيا، ولكن عولها هاتفا
تحديقاً في وتامران للسرة الثالثة أن أقوم لأشرب. هل هناك
المرية الفرنسية وتراحت أعيرا حين التسلّت دموعي أم تأكدت
من إنجاز مهمتها حين رأت بوضوح أثر انقصارها للمالح في
وجه الطفلة المعروغ والبالد لكل اتجاه؟^{٢١} واصلت الدرس.

مدام ميشيل لا تدبني ربما لأنني ليسا لأجهاها، أقول لنفسي.
لا تحب فاطمة ولا بيّنة ولا مسهام ولا سهى ولا زليخ، لماذا؟
تعجب مدام ميشول فرنسوارة، وتصبح ضربة وهائلة حين تتصالح
مع جانين وميراي وجوسلين. مع إنفريد يعمل تكون متوترة
لحياتها وأحياناً لا تكون. حين تعيّب إنفريد تسمى مدام ميشول
الأفملى وتسخر منهم ولكنها لا تفعل ذلك في وجودها، وهي
أكثر صبراً وأقل حدة مع ميراي كوهين ورويه ليشع ومادلين
لوسو للعافية ومادلين مزلحسي وهرتوييه صالح. أستاذ الرسم

يحبهم أكثر مما. اختار ربه لتعذب دور الأميرة الشرقية في حفل عيد الميلاد. شهنشاه في تزيين شجرة العيد وصنع بودج صغير للمؤد الذي ولد فيه المسيح. أطفاء بالقش ووضعنا فيه شائل صغيرة. تحلقا حول أستاذ الرسم وهو يعد ربه لدورها. يصنع مسحوقا ورديا على البشرة، لعمة من الأحمر على الوجنتين، أسود للعينين وأحمر لتحديد اللشفتين، صفف شعرها. تراجع خطواتي، تدلج إلى وجهها مقلصا وليتم.

قالت إنجريد: "توبى غير مناسب. هل يمكن أن استعير ثوب رعنوي؟" كانت توجه بالكلام إلى الأستاذ. مظهر إلى: "قال: ثوبك جميل، هل يمكن أن تمريه لإنجريد لتصف ساعة لتؤدي رقصتها؟" لم ترقني للكرة. قالت: "طبعا لا أمانع".

استبدلت بثوبي ملابص لإنجريد وجلست أتابع المشهد التمثلي. أعقبته إنجريد برقصة صبرت أنعرف عليها لاحقا حين يعرض للتزيين رقصات شعبية من شرق أوروبا. ترقص على الأرض، تحرك ساقيها بالتأنيل في مهارة وسرعة، تقدم سافا ثم تأخرها وهي تقدم الأخرى وتعد الأمر مرات عديدة. ترقص ثلث على قدم واحدة وهي مقرصة. تقفز واقفة، تقفز وتكعب وتقرص من جديد وتبدأ في تحريك ساقيها. تابعت الرقصة موزعة بين إعجابي بمهارة إنجريد والتباهي الشديد لنيل الثوب المرين بشرط من لعراء الأبيض وهو يممح الأرض ممحا كلما قرصت إنجريد ودارت وحركت ساقيها.

لم تصعد ولقمة الثوب عاكسة بإنجريد التي بدأت واستمرت في سياق من السود يختلف عن سياق الملائكة برديه وأحدها

ومالوين وإيرين، ربما بسبب التعلق الذي استلعره في سلوكهن، وربما للسخرية المبطنة والاستغفاف والتعاسر حين يتحدث أستاذ التربية الوطنية أو أستاذ اللغة العربية عن المدون الثلاثي أو ثورة الجزائر أو عهد الناصر جابى تحلف، لا شيء يستقر في سلوكها، طيبة وعذبة في تعاملها، والبست الأخرى لطفا، لم أعد أذكر اسمها، كانت وديمة. دققة الملامح، صميرة الحجم، همست في أذني: "رعنوي هل تقبلين وضع بسك على يميني يستقر إعدام جميلة بوحريد؟" قرأت المكتوب. أعدته إليها. قالت: "تلقين على ما جاء فيه؟" "وافق طبعا لكن ما جدوى رسالة من هذا النوع؟ سوف يدمرها الفرنسيون على أي حال!" قالت: "أعني يقولون إن بالإمكان وقف إعدامها". وقعت. كنت مذهلة إلى حد عدم التصديق: معنى البطل، قيمة تواجده، وسلوك هذه البنت اليهودية الصغيرة المختلف عن سلوك معظم الطالبات اليهوديات.

ذات صباح جابا ثلاثة موظفين من وزارة التربية مروا على كل طالبات الفصل في يد كل منهم قلم أحمر ومقص. (كانت المدرسة أكدت عليها في اليوم السابق أن محضر مسرحية "البديل" لموليير وكتاب "الحضارات القديمة" المقروء عليها). ما الذي يفعلونه؟ كان على أن أنتظر حتى أجد الرد. مال رجل منهم على، سود عبارة وردت في المعنوية، سودها تابعا؛ ثم أمسك بالمرممة الخاصة بفصل الحصارا لعبرانية

وقصتها. ولا أعرف حتى الآن إلى كان مولف ذلك الكتاب
الفرنسي ربط بين الحضارة العبرانية القديمة ودولة إسرائيل
المعاصرة أم لم يربط. ظننت الإجابة غالبة كالمفحات
المروحة من الكتاب.

في الثلاثة عشرة لحدو وسط بنات الصف متباعدة مرتبة،
كلني خلفه أو على مفترق طريق يتفرع أسامي ولا أدري أيها
يقود إلى أين. في الحكايات هناك دنما سكتن، واحدة للسلامة
والأخرى للنداسة، والفولة التي يتوجب على الشطار تجاوزها
بالحويلة والمراوغة. لا أدري ما الذي أريده أصلاً لكي ألتحق
سكة من بين السكك. تعددت المراجع وتشابكت الفصوص وبدأ
لها تزداد كل يوم تمكناً وأنا بعد لا أصي محتوى للسلامة ولا
للنداسة.

الفصل الثالث

ولف وراء المكتب ويستمع قبل أن ينطق بأي كلام، ولطيفه
كسب لجولة منذ تلك اللحظة. بدت الإهتسامة مذهشة لجمعية
بنات الفرقة المانصة، جُشُن بلا حراك يكسح يجيبس أفاسهن
في انتظار ما يقوله ذلك الشاب الذي تكذب إبتسامته ووسامته
وصغر سمه أنه أستاذ مسيأز وينهي ويوضح على إجابة خاطئة،
ويطس صغراً يُنتجل في الشهادة، ويتسبب في تفرع الأهلل
وتتقى صنوغا من المقاب. باستثناء أستاذين كانت للمدرسات
يقمن بالتعليم. الأستاذ يونان أستاذ شرايحيات خمسين صغارم
للمحة، الأستاذ محمود أستاذ اللغة العربية، يطر من بذاته
"لشارك سكين" البرهانه اللامعة وحاصلات بطالنه حبراء اللون،
حتى شعره الأسود الأملس كالحرير لم يثر إجابتهن إذ كان ما
يقوله به من دهن يجله زيتها لامعا يثير التهكم.

لم يكن يصيب الفلتات من الدهشة في ذلك اليوم من إمام
أكتوبر عام ١٩٥٨ بعد بعد، القسادة المستتبة تقول أن التلميدة
نيل فوجيب الأستاذ، أو يسأل الأستاذ لتقديم التلميدة إجابة يحكم

الأستاذ عليها: يهر رأسه لأسفل مرة أو مرتين، حركة قد يعرفها بكلمة صح أو يرتد رأسه مقلِّباً كأنه أصيب برصاصة شاردة فتدفع يده بميلوبة تشير إلى التلمذة المتهمة بالإجابة الغلطية.

كسر الأستاذ القاعدة المستقرين وربما توجهن في انتظار أن يتضح لهن كيف تكون القاعدة البديلة أوكيف يستلكن، وعلى أي أساس، في سلطات القواعد.

سأل الأستاذ عن معنى كلمة تاريخ واستمع إليهن جميعاً، كان عددهن ثلاثين تزلوحن أصابعهن بين الحادية عشرة والثانية عشرة. لم يتحدث إلا في التفات الفص الأخيرة من الحصة. قال: سمعن إجابات بعضكن الهمعن والنوجب السدي لطلبه منكن للدرس القادم أن تفكرن في السؤال، وتضمن بما سمعن من إجابات. يمكن الاستفادة مما قيل اليوم، يمكن سؤال الأهل، يمكن البحث في كتاب أو فيلموس. في الدرس القادم سأسمع من كل واحدة منكن الإجابة القديمة والإجابة الجديدة، قد تكون نفس الإجابة وقد تكون، بعد السؤال والبحث، تعذلت. إلى اللقاء. أهنم: قال: بالمناسبة يسمى فوزي.

لا حيزٌ للعناء، لا حيزٌ للصحك، لا حيزٌ للركض أو للتقالق كحبات الخرة المعروضة للتلار. بدت الحصص التالية صناعاً لا يعقل. دق الجرس معلناً نهاية الدروس والأمر فلتطلق ركعاً على السلام. تتمهل شجر الوصول إلى البيت لتعكى لأهلها عن

الأستاذ، ولتسألهم عن معنى كلمة تاريخ وتفكر - كيف يكون الواجب تفكيراً؟ الواجب للمألوف حل مسائل حساب تسبب وجع الرأس أو نص طويل ومثل تطلب المدرسة نسخته مرتين وأحياناً ثلاثاً، كتابة مضبوطة تترك على أعلى الإصبع الوسطى من اليد اليمنى ذلك الانتفاخ الملتهب المكوّن بشيء من الحور شالبا ويتحول مع مرور الوقت إلى نوء متحجر يشهد على كم اللوجبات التي حملت الأصابع عبه كتابتها. كسر الأستاذ القاعدة، قال: إسكروا وفكروا. لعبة جديدة مدفشة ومثيرة ولكن كيف يكون التفكير القائم بذاته، المنعصل عن حل مسألة حساب تحقق في أرقامها وهي تمسك بالقلم وتسارع إلى تسجيل ما هداها عقلها إليه قبل ضياعه؟

بلغت الصف السادس وعمن في حب أستاذ التاريخ بجزالة تليق بصباها يقارنن طفولتهن دون وعي، ويغلن دون وعي أيضا إلى عالم المرافقة. منهن من تشككت بعينه التفرلويين، ومنهن من كتبت قصيدة عن عييه الزرقاوين (تسبب الخلاف على لون العينين إلى انقسام الفصل إلى فريقين يؤكد كل فريق منهما ما يذكره الآخر بصمم ويؤس)، ومنهن من تراءى في أحلام النقطة أو المدام. أحاطته شجر بهالة من القذاسة، لا تشير إليه لو تتحدث عنه إلا وظننت أن موضوع الحديث ملك أو مخلوق بوراني توفّر بمعجزة تسوق السابق من المعجرات فنزل من السماء، ليس إلى البرية أو قمة جبل أو منع وبدي، ولكن

مباشرة إلى قاعة درس نباتات الفرقلة المسماة فجمدهن على مقاعدهن كتمثال حجرية لها قلوب تصمخ الدماء فيها بشطاط استثنائي فتضطرم كأجساد حية وتتشف وتتورد وهي مساكنة كالزغلم.

درس لها فوزى كامل شهرين ونصف ثم تعجب أسبوعاً. جاءت عطلة نصف السنة ولما استأنفت الدراسة في الأسبوع الثالث من يناير ١٩٥٩ جاء أستاذ آخر للدراس مادة التاريخ.

أليس ذهب الأستاذ فوزى؟ لا أحد من المدرسين أو المشرفين أو السماعة أجاب على السؤال؟ أين يمكن؟ هل لديه تليفون؟ صمت مطبق استجابت له شجر بهصعب وتوتر وتورد على الأستاذة والدروس وأهلها كأنهم جميعاً يتواطئون صدها. مات؟ عندما مات روح مدرسة العلوم لغيرهم مدرّس القصة العربية بذلك وقال: 'عليك مزاجها بالسوء وجس السلوك'. بعدها جاءت المدرسة في ملابس سوداء. كان الصوت واضحاً، مُلماً. اختفاء الأستاذ فوزى يلقه الموصوف كأنه حدث في قصة بوليسية، ولكنها لا تستطوع التفكير إلى الصناعات الأخيرة لتعرب كيف احتقن مومسن المسئول، وما الأسباب فتستعيد حيد أو موتاً. هل ترك المدرسة؟ هل طردوه منها؟ لماذا؟ ولم لم يقل لهم أحد ذلك؟

عند نهاية العام الدراسي بدأ لشجر أن الأستاذ فوزى صاع كما يصبع خاتم شين من الأمتن دور أن يعرف إلى كان سقط منه اومرق فلا يبقى له سوى

التسليم بضياعه والاحتفاظ بمرارة جماله وفقده معا. في العام الدراسي التالي وكانت تثرثر مع زميلة لها في جانب من الماء. همت زميلتها:

- أعرف أين ذهب الأستاذ فوزى؟
- مات؟

- لا، اعتقل! أخى أخبرني أنهم أول العام الماضي اعتقلوا عدداً كبيراً من الناس، منهم رجال ومنهم نساء.

- يعني مسجون؟
- مسجونين.
- لماذا؟

- لأنهم شيوعيون؟
- يعني إيه؟

- لهم نشاط في السياسة ضد الحكومة.
- ومن قال لك إن الأستاذ فوزى معهم؟
- لأن أخى ذكر اسمه وقال: 'أظن أنه اعتقل'.
- يظن أم متأكد؟

- قال إنه يعرفه ويظن أنه اعتقل.
- أملاؤه لتأكد، ولكن ما معنى شيوعي؟
- قلت لك: سياسة ضد الحكومة؟

- ضد جمال عبد الناصر؟
لومت برأسها
- متأكد أنهم ضد جمال عبد الناصر؟

- هل كان يصعبهم في المسون لو كانوا معه؟

في البيت سكّت شجر عن معنى كلمة شيوعي. أمّاها لم تمرر. جدها عبد الغفار قال: إنهم أتباع سيدنا علي، حرك أيها رئيسه لأعلى وهو يشرح بيده وانتقل إلى الحديث في موضوع آخر كأنه قدم لها الإجابة الوافية. عادت لمسؤول زميلتها، لم يكن لديها سوى ما قالته في السابق.

- إسألني؟

- سألت وما فهمته من أمسي فقلت لك!

- هل بإمكانك الحصول على عنوان الأستاذ هوري؟

- صعب!

- حاولي!

بعد أسبوعين دسّت زميلتها في يدها ورقة وهمت في انبها: 'العنوان'، لم تركب شجر، ساعة العودة، سوارا المدرسة. خرجت خلسة مع البنات اللاتي يذهبن إلى بيوتهن وحدهن. ركبت سيارة أجرة، أعطته العنوان. العائسة أقر لها الماني أسام بنانية من خمسة أوار. صمدت. تأكدت من رقم الشقة. صعدت على الجرس. فحقت لها سيدة متوسطة العمر.

- إسمي شجر محمد عبد الغفار وأنا تلميذة الأستاذ هوري وجئت لأسأل عنه.

تردّت المرأة لذقيقة ثم قادتّها إلى حجرة جلوس صريحة مؤثثة بشكل لطيف.

- لأنك فوزي ليس هذا.

- أعرف.

- ماذا تعرفين؟

- أعرف أنه في المسون.

- هل قالوا لكم ذلك في المدرسة؟

- لم يقل لنا أحد شيئا.

قامت ثم عادت تعمل كوبا من العصير.

- صحيح الأستاذ فوزي شيوعي؟

تطلعت المرأة إليها، لم تقل شيئا ثم بعد لحظات من الصمت قالت:

- لا أعرف.

دنت منزعجة، سكّت شجر كيف عرفت العنوان، أجابتها.

- حضرتك والدة الأستاذ فوزي؟

- نعم

- ما معنى شيوعي؟

قامت لمجددة ومعدت يدها:

- شكرا على السؤال، مع السلامة.

خبرها أيها. منبها: 'كنت شوارع'! لم تجدي من يربيك ويهذبك!؟ تدورين على بيوت الخلق تسألهم عن اسم الشاب!؟ لم تفكر أنه اعتبار الأستاذ هوري مجرد شاب وسؤالها عنه تجاوز أخلاقي. ألقى بحميرة على ملاكها النوراتي، وولفت

لأسماء وست جئشن وجدها جد المنار يرهبون الأمر دون أن يطلق أى منهم بكلمة.

الفصل الرابع

المنار لأهم منار يرون الأشياء كبيرة، تتفد فى هيوهم لمجانا وأبدا! تغلب سمهم وذلك الحور الذى تحتله جسمهم بين أجسام ثلوثهم ثقلا وطولا وعرضا. تشخص الأطول هو الأكبر، والقصر أو الخال لدى بلغ الثلاثين تقدم العمر به حتى يصعب استيعاب معنى هذه "الثلاثين" فى سياق الأصابع الخمسة أو حتى العشرة التى يشرعها الطفل متعصا معها ما ينقص لتعديد سنوات صرء. أما الجد أو الجدة فذلك حكاية أخرى يغلط فيها الواقع بالخيال، والملبس بالهيم لأن ما يقولونه من حكايات السامى يصعبهم يور عاكسين، قدم هبسا وأخرى هناك، وهذه السهك المعتمنة تمتد إلى ماضى يلم الله وهذه أين يبدأ أو ينتهى.

هذا التلى أسعد نفسى لرؤية المدرسة. المدرسة المترامية فى الخيال سوف تصطدم الآن بهجارة مبنى فعلى، يعلو يتدرج ويمتد بقر، فى شارع يعلو من شوارع القاهرة. لم أجد مكافئا أترك فيه سيارتى. درت حول المنطقة مرتين ثم سألت شخصا

صاروا اطفال بإمكانهم ترك السيارة في موقع البستل، ودلّس على الطريق.

كل بايكاني قطع شارع التحرير ثم السير إلى شارع محمد محمود ولكن فصلت أن أتجه إلى المدرسة من ميدان التحرير. لم يكن ذلك منطقيا تماما وإن لم يخل من منطق. أردت أن أرى أولا الباب الصغير المخصص للأطفال الحضانة. هناك منطق أن نبدأ من البداية

لا بد أن أرى اصطحابي عبر هذا الباب في أول أيام الدراسة. أتذكر أنني بعد انتهاء اليوم الدراسي وكنت أنتظر أن ينادوا نسي فاتوجه إلى صف معين يقف فيه من يركبون نفس الأتوبيس. على صدى، فوق المرولة، مستطيل قماشى وردي اللون، شئت لى المدرسة بأربعة مثابك، مشبك فى كل زاوية. القوحة القماشية تحمل إسمى وعول البيست ورقم التليهن. ساعطها بدا لى الأمر غريبا وتحدد بجسدى عندما غادرا الفصل فوجدت كل الصغار المستجدين فى الحضانة يطلقون على صدىهم تلك الرقع الوردية الكبيرة. أطلع إليها ولا أضحك لأنى أرى أن على صدى رقعة مائلة. الأطفال الذين يصاحبهم أهليهم إلى المدرسة يدخلون من هذا الباب للصغير وأيضا يخرجون منه. ساء نحن ركاب سيارات المدرسة فلا نستخدمه لأن السيارات تتركنا فى الصباح فى جانب من المساء وبعد الظهر تنتظر فى نفس المكان الذى تركنا فيه

فركبها فتخرج من الباب الخلفى المعصى إلى شارع التلويج ورجل.

شارع محمد محمود، السيارات كلها تخرج فى اتجاه واحد، إلى ميدان التحرير، المئالة يكون منه أو يذهبون إليه. لم يكن الشارع مرنجا إلى هذا الحد، الجامعة الأمريكية كانت قلعة ولكنى لا أجيد فى الذاكرة أى موقع لها. أمامها كبرى مقهى استرا. جلست فيه فى مطلع السبعينات، بعد تخرجى من الجامعة بخمس سنين، مع شخص أراد تجيى للانضمام إلى إحدى التنظيمات الإسلامية المستجدة. بدأ حديثه بالسخرية والاستهزاء من كل اليساريين القدامى، ثم يفرسى النقد (كنت لأشاركه فى البعض منه)، يتركى سيرة الاستملاء. توجست من اللغة المطلقة فى الذات. قلت لى لى لو أن الرجل مشروع ليين سأقدم على رفضى عرضه.

أرى مقهى استرا، متى؟ لا أرى، جلت محله معردات ثقافة الكوكاكولا، "مكتوبال" و"بيتسا هت"، وكشاكى فريد تشيكن. لواجهات ملونة بالأحمر المصارع، والأصفر اللامع، وتلاميطة خطوط مائلة بالأحمر والأبيض، العلامة المسجلة للكاتبين الأمريكى صاحب الدجاج الذى لا يملى عليه.

أعبر الشارع فأجد نفسى أمام الباب الخشبي الصغير القليل لىه: المدرسة الصغيرة. لا توقف لتأمل خشب الباب والقبعة الصغيرة ذات المقود ومشاعرى. نواصل المشى. بعد خطوات،

الباب الآخر المخصص لبلات المدرسة من العصف الأول الابتدائي حتى الثالث الثانوي. خرجنا جلسة من هذا الباب مرتين أو ثلاثا فنشترى حبة لشعر أو دفترا جميلا من محل بدا ساعتها في مجاهل ما بعودة. يذهني الآن أن المحل يقع على بعد نصبة واحدة من باب المدرسة أو اصل بلا توقف حتى تقاطع شارع معمد محمود بشارع يوسف الجندی المعروف بمنا مع سور المدرسة.

لم يكن خيال الطلبة ولا لأصعب الذاكرة: المدرسة كبيرة، كبيرة جدا، تحتل مساحة شاسعة وتطل مبانيها على ثلاث شوارع، غلاها صحن مكشوف تحوطه جدران المبنى. البوابة المفضية إلى الإدارة تقع على شارع يوسف الجندی، في منتصف الحائط الشرقي. أو اصل حتى تقاطع وأدخل يمينا إلى شارع التسويج ويحان. باب التيسير دو هارمون؛ مدرسة الأولاد. باب خشبي ضخم، أكبر من باب مدرسة البنات. نفس نوع الخشب ونفس الطراز. ثم باب المسرح. (كان المسرح الخاص بالمدرسة مقام فيه حفلات السنوية فتهيرون وهفلات الباليه: لوقوف على أطراف الأسابيع وليومة للجسد يتمايل أو يتمايل أو بطير، والأغواب الفودية والأغواء والموسيقى). الآن تحول المسرح إلى مسرح تجاري. بوابة كبيرة مشرعة، بوابة الجراج. أصرف أنه يقضى إلى قناء المدرسة. دخلت. استوفى أحد الصابين. قلت: كنت أنرس في هذه المدرسة،

فقط أريد أن أطل على القناء، لم يقبل، قال لي على لي استأذن الإدارة. خرجت، بعد خطوات وجدت نفسي أمام مدخل قاعة ليورات بالجامعة الأمريكية. ثم أعود إلى شارع يوسف الجندی لاستأذن الإدارة في الدخول إلى المدرسة وتأمل لفصيلها بعد ما يقرب من أربعين سنة على تركها (درست فيها من أكتوبر ١٩٥١ حتى يونية ١٩٦٠) ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى.

لم تدرس شجر في هذه المدرسة. ما الذي أفضله في ذلك الأستاذ الذي اخترعته؟ هل أجعلها تقع في حبه وتنظر خروجه من المنزل وأبني العملاقة بونهما وأقدم شخصية دالة على نموذج من نماذج التسويجين المصريون؟ يقول إنسي، وأنا أتأثر بما يقول، "هذا متوقع، ترسمين أستاذًا فتقع البطلة في حبه. ما جيلكم لا يخلو من الرومانسية، وكدر من الميلو دراما- لا تفضي- ولألك يسارية ستجعلين هذا الشاب الجميل يساريا فحبه أيسر وتصبع بنورها يسارية". (لا أصرف إن كان الحب المساهر والفور من كل تخليق يولفس أم بطمسي على هذا الجيل الصاعد دون الانكفاء على أو هام). هل أسيطر فوزي كامل وأعمل من حضوره في قصر موجود صرحت يساعد للصغيرة على الانكفاء إلى إسكافية الخروج من الضيعة المهيمنة؟ هل أحتفظ به وأجعل شجر تتلقى به بعد سنين؟ ولم فعلت فكيف يكون فوزي ١٢ من عرفت من اليساريين الذين لعبوا لفترة من ٥٩ إلى ٦٤ في السجون حبيبين، يختلفون في

التكوين والقدرات وصفاً العقل؛ منهم الجميل ومنهم المشوه. هل أجمله رومانسوا قديماً يتطلع إلى شبيهه بحسن الطيف والاستخفاف؟ قديماً احتفظ بورايتيه قبيداً خسار ج الرمال والمكان، قديماً بلا أجيعة له هذا معتر وقدمين متعيتين؟ ثم يكون شيئاً ضامناً في الرغام أو قلناً حربياً مبهرًا في قدرته على التكتيك، يساور محتلط عليه خطاب المعازمة بخطاب الاستقلال لم حالة ملأوبة موزعة بين الصديق والانتقام، وبهل للمسمى وارتهك الساعي، وومضات مضينة وكفاهات موجمة؟ لما لا أبسط فأجل منه مقاتلاً بهيماً حتى النهاية أو العكس، أجمله دلالة حثيث للعبة فخوراً بالجرس وألاً لوما وألاً لويه وألاً تريه ١٣

لن تجعله على هذا الشكل أودك مستجابين به يشكل نفسه ويلرض عليك مصوره ومساره، أو تكتشفين أنه ذهب، مسر متعداً وضت منهزمة في الكتابة، وفجأة يذ تذكريه لتفتين، تبحثس عنه فلا تجدنيه، لا قرارات مسبقة في الكتابة. في الفصل القادم أعود لشجر وليكن ما يكون الآن أنا في شارع الشيخ ريجان على بعد خطوات من المدرسة التي أصبحت فيها تسع سنوات من عسرى. تركت هذه المدرسة إلى مدرسة أخرى في يوبية ١٩٦٠. في ٢٢/٣/ ١٩٦٠ ففتح المبسب العالي لجامعة الدول العربية، على بعد خطوات من المدرسة، في ميدان التحرير. في الذاكرة لأشبه عن ذلك. ميلات

المدرسة تحملنا من يوتنا إلى المدرسة. تزلنا داخل السماء وتأخذنا من داخل السماء إلى يوتنا. لا أعرف ميدان التحرير. كيف، ألم أكن أسر عليه يومياً في طريقي إلى المدرسة؟ كنت أسكن في الميمل، هل كانت السيلة تأتي من طريق حلفي أو من شارع القصر العوي لتدخل يمينا إلى شارع الشيخ ريجان قبل أمتار معدودة من الميدان؟

على مدى تسع سنين سوف أسر بزيارة المدرسة بالقرب من الميدان أو أقطعه أو أنور حوله وأقصي على بعد خطوات معدودة منه النهار بطوله من الثامنة صباحاً حتى الثانية والنصف ظهراً، يومياً باستثناء أيام العطلات ولن أعرف شيئاً في الميدان أوعه. بعد شهر من تفرجي من الجامعة سوف أقرأ رواية الغاب المفتوح. مساء ٢١ فبراير ١٩٤٦ من المشهد الأول، كتبت لطيفة الريات: "كانت دور المولما مصرية وكذلك الحال العامة والأنوبيس والكرام، وميانات البوليس تسر في الشوارع محملة بجود مسلحين بالبنادق، والمارة قلائل يتحدثون". تتمدد الأصوات، تعلق على ما جرى صباحاً في وسط المدينة، تعلمنا بالانفصائل. مظاهرة ضد الإنجليز من ٤٠٠٠٠ شخص مسقط منهم ٢٤ قتيلًا و١٢٢ جريحاً. ميدان الاسماعيلية لاحقاً ميدان التحرير - مسرح تلك الأحداث، تكتسب الأماكن فجأة معنى جديداً حين نتعرف على حكاياتها، ربما ليست الحكاية للكانلة ولكن وصمة من الحكاية

جائبا منها يعيسى المكيان فجاءه فتراه ولم تكن تراه و تتركه،
و حين تتركه وترفعه يتركك بحق الحوز الذي يشغله في عقلك
ومعقلتك، باختصار، بحق إسهامه في تكوينك واستقبالك لهذا
الوجود. تماما كبيت الهلالي وكوبري صابن. ولكن هذا كلام
مؤجل، فما الآن في ميدان التحرير. سوف اقرأ عن أحداث
١٩٤٦ وفي عام ١٩٧٢ سوف أنزل الميدان.

صباح ٢٤ يناير ١٩٧٢ سوف أذهب إلى جامعة القاهرة فأجد
الجامعة مطوقة بقوات الأمن ولن تمكن من الدخول إلى
الطلاب المتحصنين في قبة الاحتفالات الكبرى. وسوف أعلم
أن الطلاب تم القبض عليهم فجرا واقتيدوا إلى السجن.

في المساء سوف أنزل أنا ومريد إلى ميدان التحرير؛
الطلاب محتشدون حول النصب الحجري في وسط الميدان،
مجموعات أخرى تسمى مناقشات مع المرأة حول الأوضاع
الاقتصادية والسياسية في البلد، تشرح أسباب الاعتصام. نوجه
إلى مقهى "إرفايتش"، في المكهى نجد عددا من زملائنا الكتاب
ونسمع حديثا عن تشكيل لجنة وطنية للكتاب والفنانين، نطالع
على بيان باسم اللجنة يتصامم مع الطلاب ومطالبهم ويشجب
الاعتقالات التي جرت في الصباح. نسمع البيان ويسخه سولنا
من الزملاء. نشووع مجموعات صغيرة تحصل كل منها نسخة
من البيان لجمع توقيعات الكتاب والفنانين عليه. سحر مهمتنا
و نعود إلى الميدان. قوات الأمن ترقب الطلاب عن بعد وهم

جالسين وواقفين حول النصب التذكاري ويشتدون.
ننتقل إلى نقابة الصحفيين، يجتمع فيها عدد من الكتاب والفنانين
والصحفيين. نحصى التوقيعات؛ مائة وخمسة توقيعاً هي
حصيلة حركتنا بين التاسعة والثانية عشرة ليلاً. ما الذي سنفعله
بالبيان؟ يستقر الرأي على إرساله إلى كل من رئيس الجمهورية
ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب. يقع الاختيار على
ثلاثة كنت من بينهم. نخرج من النقابة مشياً إلى مكتب
البرقيات في شارع على. يرسل الموظف المسئول عن إسبم
المرسل نقول: هذه القائمة، تبرز الأسماء المائة وخمسة. يقول
لا يجوز. نقول: إن أسماء ثلاثتنا، برفصص. أقرر بطلانتي،
يسجل الموظف البيانات المبنية عليها ثم يستلم نسخ البرقيات
والأسماء المرفقة. يعود إلى النقابة، أعاد مع مزيد. في
طريقنا إلى المنزل نشاهد الطلاب وقوات الأمن. قبل الفجر
تهاجم القوات الطلاب تلبسك معهم وتقتل العديد منهم وتتقب
من ألفت في الشوارع المحيطة. في الصباح يمزق طلاب جدد
القاتين من الطلاب ويتظاهرون وتجري مواجهات جديدة مع
قوات الشرطة.

للحكاية بقية تحصن يعيسى من المشهد ونخصه الحدث في
ذاته لكني أبتعد الآن عن ميدان التحرير الذي عشيت تسع
سنوات على بعد خطوات منه دون أن أعرف حكايته في ٤٦،
أنا حكايته في ٧٢ فشاهدتها وشاركت فيها، مظاهرات المسال

في ٧٥ مسرت من المبدل، وكذلك المظاهرات العامة في ٧٧ وجنزة لم كلثوم فيما بينهما عام ١٩٧٥. على بعد أمتار قليلة من قلب المعبد من مسجد عصر مكرم. من المسجد مرفأ أمشي مع المشيحين المرة بعد المرة لأودع الأصدقاء والزملاء والأرحح أن أصدقائي وزملائي سوف يودعوني من نفس هذا المكان. سيودع المشيخون أم كلثوم من مسجد عصر مكرم فأسبح عن ذلك وأراه على شاشة التلفزيون وأنا في الولايات المتحدة أعداً للذكورة. ومن هذا المسجد سوف أشتوي صديقة العمر لطيفة الريف. أشارك في غسل في ذلك القهو الكتيب في ممتلئ مصر الدولي. أخرج مع الجنان ثم نغترق: هي محمولة في نعلها في سيارة الزاحف وأنا في سيارة لم أعد أذكر لونها. هل ألداعي بلا منطق؟ ليس شجر من كل ذلك؟ على أن أعود لشجر، على أن أعرف مالدی لمعه بها لقد تخرجت من المدرسة الآن ودخلت قسم التاريخ بكلية الأدب جامعة القاهرة. ولو لم تكن شجر شخصية رائعة لانتقلت بها أثناء فترة دراستي بجامعة القاهرة قسم التاريخ الذي درست فيه يقع في الطابق الثاني من نفس المبني الذي يشمله قسم اللغة الإنجليزية الذي درست فيه. درسا في الفترة من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٧. سوف تدخل شجر من بوابة جامعة القاهرة وتعرف جهة اليمين والعل العالي لم يكن شلتا كما هو الآن تمر بين المبني الأسمى لكلية الأدب والمبني الأصغر الذي يشمله

قسم اللغة الإنجليزية في الطابق الأول، نصلد إلى الطابق الثاني، نحتضر محاضرات التاريخ. شترند يوميا تقريبا على المكتبة العامة- المبني المواجه للقسم تمضي الساعات في المكتبة، تجلس في قاعة لاطلاع البحرية أحيانا وفي قاعة الاطلاع للقبلة أحيانا، نكتب مطولا في الفهارس، ياتعها العاملون، لا يسأل أحد منهم عن يداقتهم، يعرفونها تمام المعرفة قبل أن تملأ في القسم بسوات، وقبل أن تتحول من الأكمة شجر إلى الذكورة شجر.

يقول شكولوفسكى فى مقال نقدي لعله أكثر مقالاته شيوعاً،
 إن التعمود يلتهم الأشياء، يتكرر ما نراه فمستجيب له بشكل
 تلقائى، كأننا لا نراه، نقوم بفحص الأصابع بالية، كأننا لا نقوم
 بها. لاستنوكلفنا التلمس الممتدة كما استنوكلفنا فى المرة
 الأولى، لمسى وتمخض، فتمخض بنا الحياة كأنها لا تمسى.
 تذهب مسدى.

للتعمود، وهذا قانون من قوانين الإدراك يقول شكولوفسكى،
 يلتهم حياة الإنسان، أعضائه، أثار بيته، روجه، وخوفه من
 الحرب، فليبدأ لم تعمود شجر على ذلك الشارع الذى ظلت
 تقطعه كل يوم طسوال مسلى؟

طالبة مستجدة فى طريقها إلى الجامعة. التمثال، وأشجار
 الأكاسيا على الجانبين، ثم النصب التذكاري، ومس ورائه
 مائدة السور الحديدى وصف النخل ورج الساعة، والقبعة فى
 الحلفية. المشهد فى البداية. هكذا وأنه شجر. مكتف بداته. تمر
 عليه لتذهب إلى كليتها، وهى صبيحة فى الساعة عشرة تمشى
 كأنها تطير، وهى أستاذة فى الخمسين بملهاها عصا تستعين بها

على السير، وفيما بهيهما من مراحل العمر - تتألم، دائما تتطلع، يرتعد الطريق أو يكاد يخلو من المرأة، يكون صيفا و شتاء، صبحا ومساء، اشجار الأكاسيا تملأ نوازها البلسجي والباري أو تنصرى منه، تنشئ وحدها أو برفقة اخوين. الطريق هو الطريق؛ المرأة الحورية على مدارجها، واقفة في الختام، وعندما تتأثر وتسير إلى كوبري الجامعة تسمى أن المشهد خلفها، وراء ظهرها، وراء ظهرها.

امتدأ المشهد، ربما كما تمتلئ المرأة بحملها او بسنوات عرها أو بمعرفتها تصقل مزايا العين، وربما ليس كذلك. على الأسابيع الأولى، بدأ المكمل بطاقة أختاد، لوحدة، أدهشها وأسرها أن تتخلفها وتصبح من عناصرها. تلك طبعها برأية الصغار، أحلامهم البلهاء التي تحلق بطفة وتترك للأقدام أن تتلمس طريقها وهي تقطع الطرقات على مهل فتعرف ثم تعرف. خذ مثلا تلك العمود الحجري القائم أمام بوابة الجامعة، (تسمى الذئبة استخدام الجمع فهي أربع بوابات حديثة. اثنتى كبريات هالتيان وامستغل تمر السيارات دفولا من إحداهما وخروجاً من الثانية، أما الثلث، طلاباً وأساتذة وعاملين يستخدمون فصلاً عن هاتين البوابتين اثنتين الأصغر نوعتين على الجانبين. في أيام المظاهرات تعلق جميعاً سوى واحدة، البوابة الصغيرة الواقعة على يمين الدخول، يصطف الطلاب أمامها، تكون حركة الدخول بطيئة لأن رجال الأمن

يعصمون بطاقات الداخلين، بطاقة بطاقة) يعود إلى العمود الحجري، للماير ولشجر ليصا، في أول الأمر، يبدو هـ العمود مجرد عنصر من عناصر المشهد؛ معلة جرائنية صغيرة تنهى يزهره أو شعلة؛ محوطة تستحضر التاريخ النصري القديم وتكمل أوتعمور جرائنت مختار هناك على أول الطريق، تألفه وقد تحبه قبل أن تصرف، ثم تصرف وتظن أن معرفتك تكلفت لتكتشف بعد عشر سنين، عشرين سنة أو ثلاثين ن الجديد الذي خبرته كثيره وكثير المشهد، (لا ليس فقط محمد عزت اليومى، ومحمد عبد المجيد مرسى، وعبد الحكيم الجراحي وعبد عبد العزيز الوكاد* وذلك الولد الذي لا تعرف اسمه- لابد ان أحد، يعرف اسمه- الولد الذي أطلق عليه اسم بالقرب من سور كنيسة الهندسة وفي اليوم التالي نشرت جريدة الأهرام صورة لسور الكلية ملطفا بدمائه) لماذا سبقت الأحداث؟ ثم تر شجر بعد قوات الأمن وهي تطوق الجامعة، والهرات، والتدابير المسيلة للدموع والدخول وتطالع الأقدام. لم تر بعد ذلك الريعى، الأسمر القير صغير السن يقف خارج سور الجامعة على رماله المسكوي ويتفعل مانسورة يندقيته من بين قصيين من قصبات السور، يصوت بأنة على المتظاهرين كأنه تعلم حرفته في رحلات صيد الوصول برفقة بيبل من سلاء أوروبا للزور الوسطى. لم تصبها بعد هراوة تترك على أعلى ذراعها الأيسر علامتها الزرقاء. ليس بعد - قد - شهر دعد

شجر الآن في السابعة عشرة، ظلية مستجدة بقسم التاريخ. هل صحيح أنها التحقت بالقسم ثلثاً بذلك الاستد الذي درساها شهوراً ثلاثة؟ يصعب تحديد ذلك لأن أسورا كثيرة تحدث في أيام قليلة فما بالك بسنوات خمس في حياة صبية دامية يربطها بالفران حب السورق، نقرضه على طريقته. في مكتبة المدرسة وقعت على كتاب عن الأساطير المصرية القديمة، ومعه انتقلت إلى صف الكتب لمجاورة، ثم التحقت بقسم التاريخ.

أبسط ٦٧، على سائدة الغداة أعلن أبوها للغير وهو بصحبه: غيبان باستير مع مرثية لشرف الأولى. لم تصحبه، لم تقل شئنا، لتسحب إلى غرفتها.

العام الدراسي ٦٧-٦٨. وأصلت شجر تركيزها على دروسها في السنة للثغينة للماضي. ذهب إلى الكلية. تمود من الكلية. تحضر دروسها، تدخل المكتبة، تقرأ، تسود بطاقت البحث بالانقذات والمخطوطات، تقدم البحث المطلوب. تجر بكفاءة الآلة. روحها؟ نسفت، سروت بعيدا، لا تصعب. لا تبكسي. لا تتوكل. في الصعب، في الانقذات، على السنة الأهل والصبران يتردد كلام كثير عن سينا وتيه الجود في المحراره سمعه. سمعي كنه لاثنى. ~

كأن أستاذها: لماذا عيرت ريك؟ أردت دائما التخصص في التاريخ القروى، ماذا جد؟

لم تقل سوى: "سأدرس التاريخ الحديث، أعتقد أن هذا هو

ما أريده".

لسنوات ثالثة سوف تشير شجر إلى تلك الانعطاف بمباراة U turn إذ كان التحول كاملا وواضحاً كما يحدث عندما تتحرف بسيارتك يسارا فيسارا لتمشي في الطريق المعاكس أنت بثلاثة صديق من الكرتون أحدثت ثقلا الكتب من مكتبتها إلى الصناديق. كتب تاريخ مصر القديم، أساطيرها، معارفها، كتب سلهم خمس ذات الأغلفة الكلبة التي لا تحمل سوى إسم المؤلف، للكتب الفرنسية والإنجليزية ذات الأغلفة المصقولة المزينة بصور مثقفة لتفاصيل من بقوش وادي الملوك وودى الملكات، الكتب التي اشتريتها منذ كانت في الحصة عشرة والكتب التي صورتها من مكتبة الجامعة ولديها جدها عبد الغفار على صديق قديم له في الأهر صنع لها أغلفة قوية رصيلة زيتونية اللون، وضعتها جميعا في الصناديق. تطلمت حولها، لم تنته المهمة بعد. الصور. كانت مجرد نسخ ورقية حملتها إلى محل بوسط المدينة ملفوفة ومربوطة بشريط دققي، استلمتها بعد أسبوعين: أربع لوحات كبيرة لكل منها بطار وواجهة من زجاج. وجدت معبوة في حملها إلى الشارع الرئيسي حيث مر عليها ثلاث سيارات أجرة لم يقبل سائقوها نقلها بحمولتها أخيرا، أتى سائق طيب واقف على توصيلها وساعدها على حمل اللوحات حتى باب الشقة.

فوق سريرها في مواجهة الداخل من الباب طقت صورة

مأعت مسودة الثوار، ربة الحق والعدل، مأعت تنظر إلى
 يمينها، حين تجلس شجر إلى مكتبها بكتابة صغيرة إلى
 يسارها أن ترى وجه مأعت ينظر في اتجاه لا يظهر سوى
 الجانب الأيسر من وجهها ريشة البمام عالية مستقيمة، مثبته
 بشريط أحمر نقيق مربوط حول أعلى الرأس. هي الحديقة نقش
 المعروف.

على الجانب الأيسر، وراءها مباشرة حين تجلس إلى مكتبها،
 لوحتان: في أولهما نقش إيريس على خلفية من أوراق سماوى.
 شمعها جليسى أرق. تاجها قرص الشمس وكرونا حتحور.
 وجهها وكفاهها وذراعاهما وجزء من تاجها مطلية بلون رملى
 مُشَّح بلون خشب الورد. في يمانها صولجان الملك. بجوار
 صورة إيريس صورة للبقرة حتحور والصبي لمعتب الثانى.
 جسد الفرعون الصغير وجسد حتحور لهما نفس اللون الرملى.
 شعره والبقع على جسد البقرة. البقع النجوم: أرواح الموتى،
 لوتها لخصر. الفرعون جاث على ركبتيه تحت قوس قزح
 البقرة، يرفع رأسه لأعلى، يرصع من صرعها على خلفية من
 أزرق صريح. فوق المكتب صورة بوث المرأة السماوية.
 تلمس الأرض من ساطرات أصابع قدميها من ناحية وساطرات
 أصابع يديها من الناحية الأخرى. تشكل يساريها وذراعيها وسهر
 بدنها المنقوش بالسجوم كوسا محيطا بجسد شقيقها ورجلها. جب
 يركد في حضانتها وعلى ظهره يمسو زرعه للنبات.

أرائسها من الحائط ولقنها بملاءة. ربطتها، أثت بردينة
 النسي، النسخة التي تضعها دائما على مكتبها، ألقت بها فى
 المدقوق. طلبت من أمها مساعدتها فى نقل الصناديق ثم أثت
 بسلم وحملتها واحداً واحداً إلى الصندرة. ملكتها أمها عن
 السبب. سمعت بكلام غير مفهوم.

عادت إلى حجرتها، تطلعت: لا شيء الآن سوى أرفف
 عليها بعض القواميس ومكتبة صغيرة خاوية والمكتب والسرير
 والقمريحة. بدت العزفة عازية، مقطرة وباردة. أطلعت الثور،
 استلقت على سريرها، راحت فى النوم.

بطاقة ملونة بحجم الكف مستقرة تحت زجاج المكتب:
 الميزان العالي والكتفان. تحوت وقف يشرب على الميزان، فى
 يده اليسرى أوزانك وفى اليمنى القلم. استويت شجر رفيع
 للصورة. فى اليوم التالي التبت لوجودها تأمشتها. كررت أن
 تبقيها.

أستاد مباحج البحث فى التمة التهيدية للماجستير: على
 الصوت لا يكف عن الذهاب والمجيئ فى قاعة الدرس كأنه
 يصطدم بما يمثل فى دخله من أفكار عدة لم يكن يوجههم إلى
 المباحج من حيث هى نسايب للتناول ترتبط برؤى فلسفية

ومعرفة وأدوات مختارة هي نتاج منطقي لما تؤكد هذه الرؤى وما تشغل بالبحث عنه. تكفي باجزيات البحث: كيف تكتب للوالد، كيف تميد ثبت المراجع، كيف تقسم الرسالة إلى أبواب وفصول يعقبها تمهيد وتهيبها خلاصة يتلوها ثبت للمصادر والمراجع. قال الأستاذ سألني من كل مكم بحثا عليه أن يرمي به الشروط التي علمتها لكم. أمامكم اسبوع للاختصار وشهر لإنجاز البحث. في الأسبوع التالي لتسرع الأستاذ قلعه وراح يسجل اسم الطالب أو الطالبة وعنوان الأبحاث.

- شجر عبد العفار

- مدينة دير ياسين.

- ليس هذا موضوع البحث في التاريخ يا أمة شجر. هذا موضوع لمقال صحفي أو تحليل سياسي. إن أردت البحث في الموضوع الفلسطيني اقترح عليك دراسة دور الهيئة العربية العليا أو جيش الإنقاذ أو الجهاد المقدس، ابحثي دور قيادة واحدة منها ولو راقبك الموضوع تواصلين دراسته في رسالة الماجستير ببحث دور هذه الهيئات الثلاث وعناصر الاختلاف ولنتشابه. ما رأيك؟

- هل يمكن أن أكتب عن جفر القلي؟

- أي تفصيل؟

- عقد الامتياز الأول وعقد الامتياز الثاني: دراسة تحليلية.

دون الامتياز العلوان في دفتره. وانهمكت شجر في إعداد البحث المطلوب منها

النسوان امر مزاج، يبدو للورا أنه نسي، يظن أن رغبة ماء فكرة ما، واقعة ما سقطت منه، ضاعته؛ والدليل غيابها الكامل عن وعيه، ويتطلع إلى ذلك الشهر فيري عليه ألف شيء، مراكيب كبيرة أو صغيرة، بشرا عذبيين؛ قلة تطفو على السطح أو مخفيات لا قيمة لها، ثم ينتبه ذات يوم أن ذلك الشيء يطفو فجأة كأنه كان محفوظا هناك في القاع، مغمورا بالماء، ممسكًا كشجيرة مرجان أو لؤلؤة مستقرة في محارة، النسيان أمر مزاج تقول شجر لنفسها وهي ترتب أوراقها وتتوكل أمام تلك الدراسة التي أجزتها بعد عشرين عاما من ذلك اليوم في مارس ٩٨ حين قال لها أستاذ مساهج البحث إن موضوعها لا يصلح.

في آخر نوفمبر عام ١٩٧٧ قررت أن تبدأ في بحث موضوع دير ياسين فجمعت ما توفر لها من مادة. كانت تصرف أن هناك رواية صهيوية، تلوى عزمها ونحسها، ورواية أخرى عربية تريد تقيتها وتفصيلها، ولكنها وهي تجمع للمتاح من الوثائق والكتيب والمقالات كانت تكتشف خيوطا جديدة، تتبعها بحرص فتقودها إلى مساحة من المعرفة تصب أمامها مدهشة متسلسلة، لمادة طالت طوالت تلك السنين غائبة، من عيبتها، وكيف، ولماذا؟ هل هي المحاولة الساذجة

لنرد على ادعاء الصهاينة بأن الهجوم على القرية كان مجرراً لأنها كانت مركزاً للجنود العراقيين؟ لم تكن مركزاً للجسود العراقيين، ولكن هل يتطلب إثبات ذلك تصوير أهالي القرية كحماة لا حول لهم ولا قوة إزاء سكانها الجزار؟

تقول الرواية العربية الثالثة: كان هناك قرويون عرب دخل عليهم رجال الأريغون وليحي ودبحوا ٢٥٤ من الشيوخ والنساء والأطفال، وأسروا الباقين وطافوا بموكب الأمرى في الأحياء اليهودية من القدس فانتشر الفزع بين العرب فهاجروا خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب أهل دير ياسين. هل هذه رواية دقيقة؟ هل كان أهل دير ياسين غافلين عن الخطر المحدق بهم؟ لم يكن ذلك مطعناً. بإمكانها وهي جليلة إلى مكتبها، لأن هذا في القاهرة، من مجرد نظرة على الخرائط ومجريات الأسابيع السابقة، أن ترى حدة الخطر: دير ياسين توجهه الصواحيص العربية للقدس، تُسرب على طريق القدس - يافا (أي طريق القدس - تل أبيب)، وهي محطة بسبع مستوطنات يهودية: شرقها "جيفعات شارول" و"منوتيفيوري" و"بيت هكيرم" وتكونات هابو عاليه" و"قبة بوفه" و"بيت تيجال" تشكل سداً يفصلها عن القدس؛ وغربها مستوطنة "موتسا" تفصلها عن القسطنطينية القري العربية المجاورة: جنوباً: عين كارم والمالحة. شمالاً لفتا. قبل أربعة أشهر شن الصهاينة غارات مكثفة على لفتا فسمكت، وهاجموا حبيس عرييين في القدس العربية

واستولوا عليها أغلقت طريق السيارات الوحيدة التي تربط بين دير ياسين والقدس فتصد وصول أهل القرية إلى العاصمة إلا عبر قوس ملتب يأخذهم جنوباً إلى عين كارم ثم شرقاً إلى المالحة ثم شمالاً مرة أخرى إلى القدس، ١٥ كم من طريق جبلي وعرة تستغرق منهم خمس ساعات مشياً على الأقدام بدلاً من خمس دقائق بالآتوبيس في الطريق المباشرة (تتميز على حياة نابلسية المدرسة للوحدة في القرية أن تكفى من القدس وتعود إليها يومياً. أقامت في دير ياسين). بسقوط لفتا لم يمد لدير ياسين سوى مئذنة الجوبى عبر عين كارم والمالحة. ما الذي فعله أهل دير ياسين لمواجهة هذا الحصار؟ هل يعقل أنهم لم يتحسبوا لكارث قائمة؟

القرية تاربخ في مقاومة حكومة الانتداب البريطاني والمستوطنين اليهود. في الفترة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ كانت دير ياسين والجليل المحاذية مركزاً من مراكز الشوار. قام بعض رجالها بعملية ضد قطار يحمل السود والسلاح للإنجليز. قطعوا الخط وانقلب القطار. ورغم القوانين الصارمة التي فرضتها حكومة الانتداب (الجنس ٦ سموات لحيازة مسدس أو بندقيّة، ١٢ سنة لحيازة قنبلة، ٥ سنوات مع الأشغال الشاقة لحيازة ١٢ رصاصاً، و ١٥ يوماً حبساً لحيازة عصا!) كان في القرية سلاح. كانت تتعرض للتفتيش الدوري: يأتي الجنود الإنجليز، يحاصرون القرية، يبحثون عن الأسلحة، يدخلون البيوت،

يكسرون جزار الزيت، يسكنون الجاز على الطحين والسكر والأرز. ثم أقام الإنجليز نقطة تفتيش في القرية تنبئ فيها يوميا في الاربعة مساء أسماء كل رجال القرية للتأكد من وجودهم. تسع سموات فقط، هل تكفي لكى ينسى الأهالي القهر والمقاومة؟

تكثر بطاقات البحث، تشارك بين يديها مادة مشتملة، تستخلص منها بعض الأمور ويظل بعضها الآخر غائبا أو غائما أو مراوغا كخيط تتبعه فيتقطع فجسأ ويتركها أمام السؤال: ماذا بعد؟

تمكنت من تحديد لوكي لمحاول الهجوم على القرية والتواعد التي انطلق منها: أربع مجموعات مسلحة، اثنتان منها انطلقتا من جيومات شلؤل أو واحدة من جيومات شلؤل والثانية من ضواحي القدس الغربية؛ الأولى هاجمت تير ياسين من الشمال والثانية هاجمتها من الشرق . مجموعتان أخريان انطلقتا من بيت هالكريم، أو ربما من بيت هالكريم وياقا بوقه، الأولى انتحمت القرية من طرفها الجنوبي الشرقي والثانية أرادت الالتفاف حولها لتهاجمها من جهتها الغربية. المجموعات الأربع من رجال مسلحين، الإرسون، ورجال إسحاق شامير، نوحى. حدث الهجوم فجرا أو ربما قبل الفجر بساعة أو ساعتين. مالدى حدث داخل القرية بعد ذلك؟ مدبحة؟ كيف؟ ما هي التفاصيل؟ وقيل المذبحة، ماذا جرى؟ كيف تدخل القرية؟

لم تجد في الوثائق العربية ما يمسها، فهل تجدها في الوثائق البريطانية؟ في كتابات الإسرئيليين؟ في شهادات الأهالي؟ كيف تصل إليهم، أين تجدهم؟ بقرت دير ياسين معلقة تسع سنوات.

حين بدأت في كتابة هذا العمل بدا لي منطقيا أن أستمع بالتسلسل
الرمزي لحياة شجر المتخولة وتفاصيل حياته كما عشتها فتسير
الحكايتان متوازيتان بلا تدخل ولا خلط، ولكي أنتبه لأن إلى
أنسى أكتب بمطلق التذاعي وأترك للقلم التحرك بين الماضي
والحاضر في حركة مكوكية، أنتبه أيضا إلى أنني كلف للثريث
من شجر وعرقها أكثر تشابهت الخيط، بالألمس مثلا وجدت
نمسي الفكر إلى شجر بمعارفها التاريخية يمكن أن تسهل على
كتابة الجزء الخامس ببيت الهلباوي، وبيت كوبري عباس،
وبيت شارع مصطفى رضا، يدونها (الصفحة شجر) يتصر على
أن أعود للدوريات والكتيب أو أكتفى بشذرات المعرفة المتوفرة
لدي عن هذه الأماكن.

بيت الهلباوي، نسبة لصاحبه إبراهيم الهلباوي، هو البيت
الذي ولدت فيه، وصممتي أمي في السادسة من صباح الأحد
٢٦ مايو ١٩٤٦ (نظرت لأن في جدول لمقابلة التاريخ
الهجري بالميلادي فوجدته يوافق ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٦٥)

استأجر جدى لأبى هذا البيت من أرملة السهلاوى عام ١٩٤١ بعد أن قرر أن ينتقل هو وأمه وبسبب نزول جنود الحلفاء فى البيت الملاصق لبيتها فى حلوان ولما كان لجدى سبع بنات وأحبه بنات فقد بدأ لهما وجود جنود إنجليز وأستراليين ولقارعة وهبوا فى المنزل المجاور لا يثير الانزعاج فكانت هذه الهجرة الأسرية الصغيرة من حلوان، الصحابة الثلاثة أتوا إلى جروسرة متيل الروسة، وربما وقع اختيار جدى على هذا البيت لقربه من مقر عمله، ومن بيت أمهارة الجدد الذين سيستقبلون بعد شهر قليلة بثينة، أكبر بناته، للإقامة معهم.

فى صباحات الخريف والشتاء والربيع، ومطالع الصوب لهما، سوف يكثر جدى بيت السهلاوى ويمشي خطوات معودة حتى شاطئ النيل، ومن هناك وفى مقابل بصفة ملائمة، يركب معبأة تنقله إلى الشاطئ الآخر، دقائق أخرى من السير ويصل بوابة الجامعة، يمر منها ويمطف يمينا إلى كناية الأدب، فى عام ١٩٤١ كان الدكتور عبد الوهاب عزمك يشغل كرسي أستاذ اللغات الشرقية بكلية الأدب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وفى عام ١٩٤٩ حين ترك بيت السهلاوى ليمود إلى بيته فى حلوان كان صيد الكناية.

سوف يطلب المحامى للشاب مصطفى عاشور يد منى من ليها فى بيت حلوان وحين تزف له فى نوفمبر عام ١٩٤٢ ميلادها من بيت السهلاوى، وسوف يدخل الدكتور رشاد صقر

المتخرج حديثا من كلية الطب إلى بيت السهلاوى لطلب يد تحية الإسماعيلية لعمد الفلاح عزمك ويخطبها ولا يترجها إلا بعد عودته سالما من حرب فلسطين. سيحكي رشاد صقر لعروسه، فى بيت السهلاوى، عن ضابط شاب كان محاصرا معه فى القلوجة إسمه جمال عبد الناصر.

هل استأجر جدى البيت بواسطة سسار؟ هل ذلك صديق عليه؟ هل كان يعرف السهلاوى قبل وفاته؟ هل كان يحترمه؟ يحترقه؟ يشفق عليه؟ أم يحفظ المسافة وعا بالاختلاف؟ تبعد هذه الأسئلة استطرادا لا داعى له ولكنى أعتقد أنها لا تخلو من الأهمية فالسهلاوى الذى جرى إسمه على لساننا فى إثارتنا إلى البيت، وتكرر بعد ذلك للدلالة على منطقة يمينها فى الحى الذى يسكنه، السهلاوى له حكاية. ولو كان الوصف معكوسا وكانت شجر هى التى تحكى لزوت لنا الرواية الكاملة لأبراهيم السهلاوى للشاب دى الأصون الرينة الذى استطاع أن يكون نجما فى عالم المحاماة والذى قبل أن يكون صيد الادعاء فى محاكمة فلاحى دنشواى عام ١٩٠٦ وقدم للمحاكمة، بداية عن سلطة الاحتلال، مبررات الحكم بالإعدام على الملايين، منحه فتوح عبد العزيز جاريش فى جريدة "الواء" لقب "جلاد دنشواى"، وظل للقب لاصقا به حتى وهو يحاول جاهدا أن يكسر عن إسمه ببالاة محكمة دنشواى ولتنوع للادعاء فى القضايا الوطنية. مات السهلاوى عام ١٩٤٠ عن ثلاثة

وثمانيين عاماً؛ بعد عام من وفاته استأجر جدى البيت من أرملة زوجته الثالثة حتى ما لظن. بعدها بخمس سنوات وصعدت أمى .

بيت السهاوى ابن هو البيت الأول، لا تذكره لقد تركه جدى وأنا فى الثالثة من عمرى. أما بيت كوبرى عباس فتقول أمى إنها انتقلت إليه فى شهر يونية ١٩٤٧ من شقة شبرا للنسى دخلتها صروسا، كانت تكلمت على الأول شقة فى الطابق الرابع تعلل على الليل وعلى كوبرى عباس، أراه من الشرفة وبها من شباك غرفة نومى التى أشارك فيها مع أمى الأكبر، طارق. يفتح الكوبرى مرتين يسمح للمركب الكبيرة بالمرور. فى الثالثة بعد الظهر أرى صف السيارات تنتظر أن يعاد إغلاق الكوبرى. فى الثالثة فجرا يفتح مرة أخرى ولكن مستوكة فى النوم فلا أرى من ذلك شيئا.

من الشرفة، من شباك حجرة نومى أرى كوبرى عباس. فى الصباح المبكر وأنا أنتظر سيارة المدرسة، فى مباحات الصيف ونحن نلعب على الشاطئ، نشترى لترمس والبدرة المشوية أرى الكوبرى، وأرى المعسل الكبير الذى نستخدمه بالملات الخصرة؛ نساء فى أثواب سوداء يمتصن لصنادير العمومية على الخس واللجل والكركت والجر جير والبصل الأخضر والبندوس قبل أن يحملنه لبيعهم فى قشوراء المجسورة. لا أرى صم محروس الميناء - بيتك السمك، أعرف أنه فى مكان ما على

الشاطئ، تحت الكوبرى. المعسل، المركب الصغيرة والكبيرة، الكوبرى المعلق أو الممتوح مشهد لكل يوم، بعدها، بشفة فجأة، لمود نمتادها. لكن المشهد المنعوبة يأتى مرة واحدة فى العام، نحصى الأيام فى انتظاره، نتظر يأتى، يوما واحدا، ويذهب. يمتص علينا انتظاره من جديد هكذا كان وهاء الليل، يملو الماء، يتغير لونه، نلحظ ذلك، نرقه حتى اليوم المعلوم. نلعب فى شرفة بيتنا لمشاهدة المركب المربعة بالأعلام والمصباح الملونة تتقدمها "العقبة"، الصخرة الأكبر والأبهى. نطلع إلى سارما حتى نلتفتها عوبسا: نقطة صوة فى الظلام تكبر تدريجيا. نتحدد وهى تقرب. لا حاجة للى أعقاب وجوعا ياتجاء السار، المركب اماما مباشرة الآن يسحب ببطء على صفحة الشهر يصنعه وهو يسرى ويتقدم باتجاه مقياس النيل. نتمرنب أعابا إلى الجهة اليمين لتتبع المركب وقد تجاوزت الكوبرى، تصغر وتضممر أكثر تتعود بقصة صغيرة من الصوة ثم نقطة تحتل فى الظلام.

فى ايح كانت نقطة وتفتى، بقعة معدية أتبعها من نافذة حجرى. أمى سافرت للبحر. أقصى الوقت نطلع من النافذة، يشبعنى انتظارها. أسمع الأزيز، أرفع رأسى، لا شيء بعد، يملو الصوت، يملو ثم تلك الطائرة الممعدى بعدا فى السماء. أمى سافرت بالطائرة، ثم الطائرة. تبتعد. تختفى. لم تلتأ طائرات كثيرة فى سماء القاهرة، فى البيت نتردد كلمة قسطنطين. لا أعرف معناها. لم أجد بعد المسين ونصف.

والقصة كوبرى عباس، محاضرة طلبة جامعة القاهرة بقوات الشرطة من خلفهم وفتح الكوبرى من أمامهم، مساحة غائبة من وعى طفولتى. وقعت الواقعة فى ٩ فبراير ١٩٤٦، قبل ولادتي بثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما فى التسعة سيبدو لى، حتى بعد انتقال امرتى إلى بيت آخر، لى اعرف الكوبرى معرفة كاملة وثقة ونسى رأيت منه أكثر مما رأى الآخرون. سيبدو لى لى اعرف مبادئ كلية الطب ومستشفياتها المعروفة بالقصر العيسى، تشمل الطوب الشعالى من الجزيرة، أمر بها يوما فى طريقى إلى المدرسة من بيت كوبرى عباس ولاحقا من بيتنا الجديد فى شارع مصطفى رضا. لم أكن أعرف لى طلاب الكلية سنة ١٩٣٥ أخذوا جنرال زينهم عبد الحكيم الجزاى فى المستشفى حتى يتكسوا من شبيهه فى جازة شعبية. ولما استشهد الطالب السودانى محمد على أحمد، بعد ذلك بإحدى ضربة سيف، أحصى طلاب الكلية جنازه وتم تلح الشرطة فى معرفة مكانه وتطور الأمر إلى معركة بين الطلاب والشرطة وهى تحاول معهم من إقامة جنازة صحيحة لزميلهم الشهيد فى طفولتى كان مبنى للقصر العيسى حصورا أيضا. لاحقا سوف أكتشف لى الطفل يعرف الأشياء ولا يعرفها ما دام يجهل الحكاية.

وشغلت موضوع الكتابة والتاريخ وشغلتى شجر لثوق عن تتبع انتقال الأسرة إلى بيت جديد. أرسطو قال شيئا فى هذا،

لثقل. مقرر الألب من التاريخ، أعرف ذلك جيدا. الأفضل أن أعود إلى كتابه. أتذكر المكتب وأبحث فى المكتبة. أجد نسخة من الترجمة الإنجليزية ليوثير المنشورة عام ١٩٥٥، وم نسخة من تحقيق شكوى عبادة لترجمة أبى بشر متى عن السريانية مشغولة بترجمة حديثة. أبحث ضمن فقرة بعضها، أجدها فاقبستها.

وظاهر مما قبل أيضا أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقعه وما هو ممكن على مقتضى الزجائن أو الضرورة قبل الموزن والشاعر لا يختلف بين ما يرويه مظلوم أو مشهور (فقد تصاغ أقوال هيرودوتس فى أورش فتقل تاريخا سواء ولدت أم لم تولد) بل هما يختلفان بل أجدها يروى ما وقع على حين أن الآخر يروى ما يجوز وقعه. ومن هنا كان الشعر أقرب إلى الفلسفة وأسى مرتبة من التاريخ لأن الشعر أقرب إلى قول الكليفت، طلى حين أن التاريخ لميل إلى قول الجرنيلات والفكر هو ما يتفق لصيف من لثلى أن يولسه أو يعمله فى حال ما على مقتضى لزجائن أو الضرورة "ويوصل أرسطو قائلا: "الشاعر أو الصانع (بويتس) يسعى أن يكون أولا صانع القصر قبل أن يكون صانع الأور، لأنه يكون شاعرا بسبب ما يحدثه من المحاكاة وهو إما يحكى الأفضل، وإذا إتق أنه صنع شعرا فى أمر من لأمر لى وقعت فى ذلك لا يؤثر فى كونه شاعرا، إذ لا

شيء يمنع أن بعض الأمور التي وقعت قد جاء نقلها مع قانون الرجحس وقانون الإنكس، على هذا الاعتبار يكون هو صانعها

الأرجح أن شجر تختلف مع أرسطو في قوله أن موضوع التاريخ هو الجريئات، ليس اختلافها، على ما أظن، من باب تصوير بصاعتها والإعلاء من شأنها، بل لأنها، في ممارستها لكتابة التاريخ، لا تعتبر رصد الوقائع والجريئات سوى جزء من مهمة لا تقتصر إلا بمعنى كلّي هو الذي يطلق عليه أرسطو "قانون الرجحس" المصير بمطلق للأمر، قانون ما يربط تلك الوقائع ويستخرج من فوصاتها الثروة وشأناها الصاحب حيطا للدلالة وصودا يجعل البشر يفهمون حكائيتهم. هل أخلط بين الأثبات والتاريخ أم أسقط مشروعي الخاص على شجر؟ لا أظن. سأدلل على كلامى بكتابتها؛ ربما تكون دراستها عن دهر يمين مثلا ملامسا، لم تقدم شجر الهجوم على القرية ومقاومة الأهالى ثم المذبحة التي غابت كمجرد واقعة قلانة بداتها أو مرتبطة بوقائع مماثلة في هلمى ١٩٤٧-١٩٤٨ بل قدمت كواقعة سودج تمكّن قراءها من ثأس العلم في الخاص، وربط ذلك الحدث بأحدث متشعبة تشكل في مجملها سمة أساس من سمات تاريخهم الحديث. قد يقصر السودج عن الواقع أو يفرص عنه وقد يتطابق معه، في دير ياسين تجسّى في حدوده القصوى وبقي راسم ذلك مطابقا، أرجح هذا على أى حال وأعود إلى

البيوت التي عشت فيها لمّا أُرّج بها جميعا- أقصد تلك البيوت في فصل واحد! لما لا أتركها تدخل الفصل بشئسل ظهورها في حياتى، وما الذى أريد من حشدها معا؟

في عام ١٩٥٥ استقرى أبى منزلًا بحديقة فى شارع مصطفى رصب بالتميل، وبدا من بن بطل على النور وكوبرى عباس ونسرى الجيرة فى الضفة الأخرى من النهر انتقلنا إلى دحس السير في بعمه يمكن وضعها بانها فى قلب الجيزة. تكاد المسافة إلى "البحر الكبير" الذى يفصل الجيزة عن الجيرة تتماهى مع المسافة إلى "البحر الصغير" الذى يفصلها عن القاهرة. ثم هى يصا فى الوسط بين الطرفين الجوى للجيزة فها وراء شارع الروضة، الذى ينتهى بمقاييس النور وطرفها الشمالى حيث مباني كلية طب القصر العينى.

فى الأيام الأولى لانتقالنا بد هذا البيت لى وإخوتى، طسارق الأكبر، وحائم ووسيل الأصغر، حيزًا أسر من مجهول مشير، لم تكن سمة البيت مقارنة بشقة مكوّلة من خمس غرف هى وحدها المسبب هناك لمرور رجاس السافدين ولعبتها المدفئة مع هسوء للبهار صباها ومع المصاييح فى الليل؛ بالذات من الرجاج المعنق فى كل مسها نقش راعية الراعية لأولى فى ثوب أحمر، تميل بدعها على حركها، لا نرى سوى جانبها الأيسر. الراعية الثانية ترتدى ثوبا بصحى اللون، تميل يمينا وتحمل بين يديها حزمة قمح تتكرر فى السافدين الشجرة،

شيء يمنع أن يعمس الأمور التي وقعت قد جاء متفكراً مع قانون الرجحان وقانون الإمكان، فعلى هذا الاعتبار يكون هو صانعها

الأرجح أن شجر تختلف مع أرسطو في قوله أن موضوع التوزيع هو الجزئيات، ليس اختلافها، على ما أظن، من باب تصوير بصاعتها والإعلاء من شأنها، بل لأنها، في ممارستها لكتابة التاريخ، لا تعتبر رصد الوقائع والجزئيات سوى جزء من مهمة لا تكتمل إلا بمسح كل شيء هو الذي يطلق عليه أرسطو "قانون الرجحان"، المصرد ينطبق للأمور، فكأن ما يربط تلك الوقائع ويستخرج من فوصاتها الثروة وبشأنها الصاحب خيطاً للدلالة وصواء! يجعل البشر يفهمون حكايتهم. هل أخلط بين الألب والتاريخ أم أفسط مشروعي الحاصل على شجر؟ لا أظن. سأذكر على كلامي بكتابتها؛ ربما تكون دراستها عن دور ياسين مثلاً ملائماً، لم تقدم شجر الهجوم على القرية ومقاومة الأهالي ثم المدبحة التي عفت كجسد واقعة قلعة بدائنها أو مرتبطة بوقائع مماثلة في عامي ١٩٤٧-١٩٤٨ بل قدمت كواقعة سودج تمسك أرواحها من تأمل العام في الحاصل، وربط ذلك الحدث بأحداث متصلة تشكل في مجملها سمة أساس من سمات تاريخهم الحديث. قد يقصر السودج عن الواقع أو يعجز عنه وقد يتطابق معه، في دير ياسين تجلّى في حدوده القصوى وبقي رغم ذلك مطابقاً، أرجح هذا على أي حال وأصود إلى

اليوت التي عشت فيها. لماذا أرح بها جميعاً- أقصد تلك اليوت. في فصل واحد! لماذا لا أتركها تفصل الفصل بتسلسل ظهورها في حياتي، وما الذي أريده من حشدتها معاً؟

في عام ١٩٥٥ استقر أبي مسرلاً بدقيقة في شارع مصطفى رمسا بالعميل، وبدلاً من أن يظل على التزل وكوبري عباس وسرى الجيرة في الضفة الأخرى من النهر انتقل إلى دحل الشير في بقعة يمكن وضعها بانها في قلب الجريزة. تكاد المسافة إلى "البحر الكبير" الذي يفصل الجريزة عن الجريزة تتساوى مع المسافة إلى "البحر الصغير" الذي يفصلها عن القاهرة. ثم هي أيضا في الوسط بين الطرب الجوى للجريزة فيما وراء شارع الروضة، الذي ينتهي بمقاييس التزل وطرفها الشمالي حيث مباني كلية طب القصر العيني.

في الأيام الأولى لانتقال بد هذا البيت لي ولأختي، طارق الأكبر، وحاتم ووسيل الأصغر، حيزاً اسر من مجهول مشير، لم تكن سمة البيت مقارئة بشقة مكونة من خمس غرف هي وحدها السبب هناك أنوار رجاء السافدين ولعبتها المدفئة مع ضوئه للهار صباها ومع المصابيح في الليل! ناددتان من الزجاج المعشق في كل منها نقش رابعة الرابعة الأولى في ثوب أحمر، تميل بجذعها على حركتها، لا ترى سوى جانبها الأيسر. الرابعة الثانية ترتدى ثوبا بفسجي اللون، تميل يمينا وتحمل بين يديها حزمة سمح، تتكرر في السافدين الشمجرة.

الأوراق الخضراء والحبوات الحمراء في النافذة الأولى نعمة وصغيرها، الصغير يرفع خطمه يلامس عناق أمه. في النافذة الثانية أربعة خراف، اثنتان يشربان بانجاء حرمة القمح بيد المرأة، وجمعة مستقيمة في أمومتها مستعرة في صمور يرضع من صدرها. في النهار تصبى أشعة الشمس نقوش الشافدين فيحور من يداخل البيت بهاء اللوحة كاسلا. في الليل تصبى منها مصابيح البيت فيلور بجمالها غير الطريق.

لثافتني مشرفان على السلم الخشبى الواصل بين الطابق الأول والطابق الثاني. يختزل الكبار درجاته الأربع والعشرين إلى أدلة للصمود والندول ونرى فيه ملامح تركس فيه، نفقز عليه، سترخلق على درابره الملتصق، نفترش عباته لتحدث بهدوء أو صخب، بصحك، بشاجر، يعصب أحدا أو يبكى أو مسكت فجأة لأل صياحا ليقت بألسا من قبلوكه فتوعدا صارعا: "استقوا على يا ولاد الحمار" بصحك بسلا صوت، تبالل الحديث همسا، تكثف ثم يعود نهمك في الثمب، لا تلتفت لفيلولة أبى ولا لوجود أراعتين المشرفين علينا من موقعهما المستقر في الزجاج مع خرافهما الملوثة.

لم يكن هذا السلم وحده مسرح عملياتنا اليومية، هناك السلم الزحامي العريض في منزل البيت ستخدمه في لعب الكرة، وسلم حجرى عال وثنيه مستقيم يربط بين الطابق الأول والطابق الأرضى، وسلم حديدى مثقف تجده على غير توقع في

شرفة تفتح عليها غرفة من غرف الطابق الثاني (لاحقا ستصبح هذه الغرفة لى بها سريرى وكنسى ومكنسى). سوف نوظف الحديقة والطابق الأرضى والسطح وكافة المساحات فى ألعابنا. سوف لختفى أحيانا فى برميل كبير أو فى إحدى خرائت الحائط بالطابق الأرضى وأنا لعب "الاستمتاع" مع إخوتى. سوف نركس على السلم الحديدى الذى يوصلنا إلى السطوح فصبح بنا لى: "لا تركضوا سيقع واحد منكم عن هذا السلم" فجيبها- وعن تركس- أنا لا تركس. فى الحديقة سوف يربى إخوتى فى فترات مختلفة كلابا مختلفة لها أسماء مختلفة تتفاوت من حارس إلى ريكس ومن قلة إلى لاسى. سوف لأصاب منها جميعا، لا لأعياها ولا لأطعمها ولا ألترب منها. وفى القس الواسع الذى يشغل جانبنا من الحديقة الفلابة سوف نفتنى دجاجة أولوزا أوديكسا رومبا، أو كلها مجتمعة. وأحيانا نفتنى أرانب تسهم فى حمر سرانيبها الأرضية حتى نكتشف أنها وصلت لأسفل الدار بعد سنين حين يتزوج لكوى الأمعر ويجهان يكون لصغارهم جدي يذلونه ويشاركونه كل يوم جمعة حين تجتمع العائلة فى البيت الذى صار الآن بيت الميول تسيروا له عن البيوت التى توزعها فيها مع أروجا وأنفلا. ونكس هذه الميهرات كلها لم ترق أبدا، للهدية التى حملها لنا أبى ذات يوم من أيام عام ١٩٥٩. وكنا مشدوهين قبل أن نحول قشعريرتنا إلى هياج منثنى. قال أبى

وهو يقدمه لنا: "يسمى جريزاً" وإسولاً المستأ المعقودة نقت: "وأنا إسمي رضوى، وهذا طارق وهو الأكبر، وهذا حاتم يصغرنى بثلاث سنين ونصف وذلك وأكل أخونا الأصغر". لم يسمعها قاموسنا للتعبير عن جماله ولا مشاعرنا. سألناه جميعاً وأسراً وإن أركبه أبداً، أما طارق فهو يقرر إلى ظهره يخرج به من بوابة البيت يركض على أنفلت الفئاع حتى يصل إلى البحر الصغير فيمنحه المهر ومهزته في ركوبه شهرة في شارع مصطفى رضا وكافة الشوارع المجاورة.

من هذا البيت الذى اشتراه أبى عام ١٩٥٥ وجاء إليه بجريز وبمشرى الأثياء الصغيرة والكبيرة سوف يخرج معشه من بين زوجته وأبنائه وأخيه الهافى وأمهات وزملائه، سوف أجد نفسى أطل عليه من الشرفة وأصرخ كأنى لم أولد وأترى فى أسرة من الطبقة الوسيطى تنق كتمبان مشاعرنا ولا تودع موتاعها بلطم الوجه والصوت العالي. فى المساء سوف يسأل حاتم من هى المرأة التى كانت تصرخ ونحن نحمل أبى من البيت؟ لن أجيبه على السؤال.

ولدت شجر فى ٢٦ مايو ١٩٤٦ فى بيت بطل على كوبرى عباس ولكن من الجهة الأخرى المقابلة لبيتنا، جهة الجزيرة. (حكى لها جدها عبد المعاز أن أمها كانت حبلى بها، فى شهرها السادس، حين عشت أم كلثوم فى المولد للهوى قصيدة "ملوا قلبى" ثم ثم عشت "ملوا كنوس الطلى" فى شهر مايو- للشهر الذى ولدت فيه. بعدها وفى نفس السنة عشت "وُلد الهدى" ونهج السُرْدَة و"السودا". وكانت القصائد الخمس لأحمد شوقى ومن تلحين رياض السبعاطى).

فى طفولتها، قبل أن تتكاثر بنات الأم، كانت شجر وهى تقف فى الزاوية القبلية من الشرفة ترى النحيل ص يميلها، وغيماً وراء النحيل أهرامات الجيرة. تنقل إلى الجهة الشرقية، ترى فيما وراء الميل باتجاه يدها اليسرى مسجد محمد على مستنداً على قلعة الجبل. (حدثها جدها عن النحيل: الموكب الكبير الذى يطلق من القلعة حاملاً كسوة الكعبة فى طريقه إلى السويس ومنها بحراً إلى جدة قاصدا مكة. تتطلع

إلى القلعة هاتفيها صوت جدها يستحضر القماش المحلى
الطرز بصيوط الذهب، والجسمال والخيول تشق طريقها على
قرع الطبول وتهللات الأفعالي. من السادة الخليفة، سادة
المطبخ ترى أشجار حديقة الحيوان، خضراء فى النهار ومعممة
فى الليل. فى الليل يخبىها زئير الأسود، معلق عليها فى
أغصانها، تعرف، ولكنها تخاف، تود لو كانت مستترقة فى
النوم، تود لو تعلق أدنىها. دلفت ساعة الجامعة لا تخيها،
تسمع الدفك وفواصل الضممت بينها وذلك الشيء المتقى منها
فى الضياء كأنه ذيل الصوت أو صوت آخر خالفت بجوابه ،
كأنه طيف الصوت لو خياله حين قال المديح. أعنت دلفت
ساعة جامعة القاهرة تمام الثانية تمزقت شجر على الساعة
التي عرفتها قبل سبعين: عرفلت بكثتها الأربع والدقة الواحدة ثم
لا شيء، والذقنين، والظلمات الثلاث قبل أن تتعلم المعد من واحد
إلى اثني عشرة، وقبل أن تعرف معنى الربع والنصف والثلاثة
أرباع.

لن تنبه لدلفت الساعة وهي جالسة خلف مكتب مسمير
منفرد فى مدرج ٧٤ فى كلية الأدب، عن يملأها مقاعد
المدرج يشغله أهلها وأصدقائها وزملاؤها لا تتطلع فى
اتجاههم. تتطلع إلى يمينها حيث المنصة والأساتذة الثلاثة.
يرتدون "الأرواب" السوداء وأمام كل منهم على المائدة المغطاة
مقالي أخضر مميّك نسخة من رسالتها.

نقشها أصداء الأجنة ثلاث ساعات. استحووا للمداولة، بعد نصف ساعة
عادوا. ولدت ووقب الحضور. قرأ المشرف للديباجة الطويلة ثم: "اجتمعت
اللجنة المشكلة من ... ومن ... ومن ... فى الساعة السابعة من مساء يوم
السبت الحادى عشر من ديسمبر ١٩٧١ للموافق الثالث من دى للعدة ١٣٩٣.
وبعد مناقشة عبثة للطالبة شجر محمد عبد الغفار قررت اللجنة منحها درجة
الماستير فى التاريخ الحديث بدرجة ممتاز".

كانت محظوظة، كثيراً ما فكرت شجر فى ذلك. لو ناقشت
رسالتها بعد شهرين أو ثلاث لعزقت الإدارة تعييبها ولأمكس
طردوها من الكلية. هذا ما قاله رئيس الجامعة. هل كان كلامه
مجرد تهديد، تلويحاً بالعصا للصبيبة التي لم تتجاوز الخامسة
والعشرين؟ هل كان أسلوباً للردع وضبط سلوكها مستقبلاً؟

التحقت باعتماد الطلّاب منذ اليوم الأول فى قاعة
الاحتفالات، قصت فيها الأيام الأربعة. لم تعد قبة القاعة-
علامة الجامعة المثبتة فى اللطافات والصور- مجرد خط
مقوس، خلفية لمشهد تصدده امرأة من جرائنت. تغلّ الأولاد
والبنات القاعة، استقروا فى حيزها للتسريح، تحت قبتها المائلة،
تحدثوا وتناقشوا وتنفقوا واختفوا ونسخوا الليفات وأطلقوا
الأحلام- للكبرة- عصفائر ترعرع وتطلق وترقصرق باتجاه
السقف المقوس العالي. لا تتطلع شجر إلى السقف، لا ترى القبة
من خارجها الآن، هى داخل القاعة، تنهك فى النقش صبحا
ومساء. تعلق حبيبها وقد استبد بها التعب فى نهاية اليوم، تلام

على مقعدين تصمهما فيصوران مبريرا ملائما. تستيقظ هجرا،
تخرج إلى الحرم الجامعي تملكه زرقعة فجر شتائي غائم. تتلحى
جانبا من السلم، تجلس. يرج الفاعة ثم كلية الأدب عن
يسارها، عن يمينها كلية الحقوق، بينهما مسطح العشب
الأخضر يمتد إلى ما قبل البوابة الحديدية وللصعب التذكاري
للشهداء. تتطلع شجرة، لم يعادها خدر النوم تماما بعد. ثم
يستلب الضوء، تنبته فتبدأ في تسجيل مشاهداتها في اليوم
السابق، تسجل الهفلات والطعيب وبقيرات التأييد. حتى الخلاف
الحد الذي وقع بين طلاب الطابق الأرضي وطلاب الشرفة
تسجله: فوتر يمكن لجو. يهيم البعض أنهم محاولات
للخريب، البعض الآخر يقول المباحث تقوم بعملها. مجموعة
ثلاثة تؤكد إنها خلافات طيبة ولا يصح اتهام من يختلف معا،
مهما لختلف، بأنه مغرب أو حميل. ما الذي أوصل الأمر لنا
وصل إليه؟ تنجر الهتاف فجأة، ليس الهتاف المعتاد الذي يردده
كل المعتصمين بل هتاف من طلاب الطابق الأرضي في
مواجهة هتاف للطلاب الجامعيين في الشرفة. طلاب الطابق
الأول يهتفون: 'طوب وهنمة، بعنو، مصر بكالم، بعنو، مصر
بكالم'؟ يرد عليهم طلاب الشرفة بهتاف مصاد وهم يشيرون
إليهم بأصابع اتهام: 'تسيوحيين، شيوحيين، إحصا إحصا المصريين'
هوجنت شجرة بطلاب محيل يغفر ولقا فوق المقعد الذي كان
يجلس عليه ويهبط إلى أعلى قاصدا الهاتين في الشرفة.

فجر الاثنين ٢٤ يناير التقطت لوات الأمن الجامعة
واقفانهم من القاعة إلى عربات الشرطة.

ثم تقص في السجون سوى عشرة أيام. بعد انتهاء أجازة
نصف السنة عادت إلى عملها. دعاها رئيس القسم، أينها أن
رئيس الجامعة يريد بها توجهت إلى مبنى قاعة الاحتفالات،
مألت عن مكتب رئيس الجامعة. صعدت. جلست تنتظر في
غرفة مدير مكتبه، ثم تتصلى بنا أنسة.

لم يدعها إلى الجلوس. وضع نظارته على عنيه وقرأ من
ورق أمامه. خلج للظفارة. تطلع إليها:

- أنسة شجرة محمد عبد الغفار، معيدة في قسم التاريخ؟

- نعم

- كنت في الاعتصام، أليس كذلك؟

- نعم

- قبض عليك فجر ٢٤ يناير ضمن الطلاب المعتصمين؟

- نعم

- كيف تستأنك على تعليم طلابنا؟

واصل:

- تعرفون أنه يمكن إعاءة تعيين المعيد في أي وقت. ليس
للمعيد عصوا في هيئة التدريس، إنه طالب بحث، مجرد طالب
بحث، موظف مؤقتا نعت الاختبار.
بقيت صامتة.

- أليس من الأفضل أن تتبهي ذراعتك وتكملسي الماجستير بدلا من هذا التهريج؟

- يا فتى الماجستير في شهر ديسمبر، في الشهر الماضي عمت في درجة مدرّس مساعد، علا صوته محمداً:

لم تعملي بعد حتى الدكتوراه! لمست عصوا في هيئة التدريس، بإمكانك فصلك من الجامعة! تطلع فيها، تشاغل بالنظر إلى بعض الأوراق على مكتبه. رفع رأسه:

أوقع أن أسمع منك كلمة اعتذار، أو تصفروا لما فعلت! اعتذرت؟ مألها جدها عبد الغفار، لم اعتذر! ضحك: "صيدة بالبحر!" ضحك أكثر يوم عادت إلى البيت في العام التالي تحصل بعدها خورانة وهودة جندی، كانت القبلة المسيلة للدموع في حقبتها، أخرجتها من الحقيبة وعرضتها عليهم صبحت أسها: "مجنونة"، علقت مت جلسن: "شجر منأني لكم بمصيبة! وادی دقنی لو ما طردوها من الجامعة؟" لم تكن العبارة سوى العبارة الافتتاحية لميلوج طويل حرصت شجر ألا تسمعه، لتقلت مع جدها إلى حجرته لتحكى له كيف خرج الطلاب من الحرم واشتبكوا مع قوات الأمن * الأولاد قرروا أن يقوموا معرضاً للفساد، أتوا إلى بعض خدائهم للاحتفاظ بها، السراوة شترها أحد الطلاب من صاحبها، الخودة

تخرجت على الأرض في المعمة، التفتها طالب، أما القبلة فتكنت طائفة من الإمساك بها قبل أن تسقط على الأرض هذه حصيلة اليوم، والبقية تأتي!

وخرجت من الجامعة وأنت تحلين هذه الأشياء؟

- خرجت من الباب الخلفي وركبت الأتوبيس، ذهبت إلى دار الكتب في باب الخلق، قرأت ساعتين ثم ركبنا الأتوبيس وعدت!

تقسم شجر، تتسامل: جراءة صافية لم متزجة بالقطعة عن الشراك وبنادق الصيادين. أفتكت. مدرج ٧٤ مرة أخرى. الرسالة، "الأرواب السوداء، المناقشة، حصلت على الدكتوراه.

تسامل الصور: صور المناقشة الأولى، في الخامسة والعشرين. صور المناقشة الثانية، في الثامنة والعشرين. السنوات الفارقة لا تبدو في الصورة: الشعر الصياني القصير، الجمد للجميل، النظرة، كيف تصفها؟ صور ملونة كثيرة يحملها لها الطلاب بعد انتهاء المناقشة، نفس المدرج و"أرواب الأسود أيضاً ولكنها المشرفة على الرسالة أو عضو في لجنة المناقشة، لم يعد الجمد نحيلاً ولا الشعر أسود قصيراً بل رمادي مطروح الخلف مصنف بما يليق بأستاذة على مشارف الأربعين، في هذه الصورة، في منتصفها في تلك، في الخمسين في صورة ثالثة، تستعرب الصور الأحداث، كأنها لا تستعرب على نفسها هيها، هل تثبت بصورة الصبية لا تريد هذه المرواً

الحموية بديلا عنها؟ لأنها أقل جمالا، أقل رشاقة؟ ما معنى الجمال؟ الامتلاء، ليس قيمة؟! يتقسم: لا أحد يفت الحياة من بين يديه راضيا؟ المرأة الرجل أيضا، لا أحد يرضى بالثياب والتجاويد والطريق المنحدرة إلى الموت؟

تعود إلى صور الماجستير، الصبية ذات القشعر الصبغاني تشق بين الزملاء والأصدقاء بعد انتهاء المسابقة. في الطرف يقف يوسف، ريفي واضح، طويل، عريض المنكبين، يمشك. في صور الدكتوراه أيضا: يوسف يمشك. في الصور الأخيرة يبدو الوجه صائرا وشاحيا وبعيدا كأنه قطع شوطا في طريق الرحل. لم تنتبه.

زملاء آخرون أيضا في الصورة، بذوا القرب، كانوا القرب. ابتعدوا، في البداية بدأ يوسف بعيدا، بدأ جليا، صريحا إلى حد الغلظة. ثم تعمل الأيام اختياراتها الصعيرة، والكبيرة، وطريق تتفرع مع كل سؤال، وحوارات تستدرج الأصدقاء إلى وهم صمود يهبط بهم ثم يهبط أكثر فتراهم يتحدون، يتركون لها الوحشة والخذلان، والغضب أحيانا. يوسف لم يصعد ولم يهبط، بقي متينا كجدران بيت.

- ماذا فعل يسا يوسف؟

- اهدني قليلا، علينا أن نفكر بهدوء.

كانت توجهت من محطة القطار إلى منزله مباشرة، لم تفكر في اضطرابها أن عليها أن تتأكد أولا من الأوراق التي تحملها.

- فحسنت الأوراق؟

- لم أفحصها بعد!

نظر إليها نظرة مستكبرة، مد يده إلى رزمة كراسات الإجابة، كانت أربعاً وأربعين كراسة، فحسها جميعا. كلتها تحصل إجابات تفسر أو تقصر.

- هل كنت متأكدة أن الولد مسلم الورقة بوضاء تماما؟

أعادت عليه ما سبق أن قالته:

- غادرت البيت في السادسة صباحا خشية التأخر على الامتحان- هذه أول مرة أقدم فيها مقرا دراسيا في جامعة خارج القاهرة- وصلت الكلية قبل بدء الامتحان بساعة كاملة. وقفت في اللجنة طوال الثلاث ساعات أراقب سير الامتحان. عدد الأولاد لا يزيد عن الأربعين، اعراسهم جميعا، حتى من لا أذكر اسمه لك شكلي. هذا الولد لم أره من قبل. استوفيت أنه لا يكتب في كراسة الإجابة، يطلب قهوة، ثم يطلب شاي ويخ، ويتطلع إلى ورقة الأسئلة ثم ورقة الإجابة فقط.

- تأكدت أنه طالب بالفرقة الثالثة؟

فحصت بطاقةته الجامعية. ولما زيد من التأكد منعت على طالبة وسألتها عنه، قالت: "رمضا وأول دفعة، كان الأول في سنة أولى وفي سنة ثانية" انتهى وقت الامتحان، سلم الولد كراسة الإجابة، فررت صعبتها، لم يكس خط فيها حرفا واحدا.

- استبدلت الورقة!

ما يحدث فيه يحدث فيها؟ يوسف على حق ولكن البلاغ
والنبأ والمصيرين وتحقيقات الشرطة...!

- ولعل يا يوسف؟
- لابد من تبليغ النيابة!
- النيابة؟
- لابد من صقل كمين للطالب.
- كمين... لطلاب؟

الامتحان التالي: لم يبق سوى ربع ساعة على نهاية الامتحان.
الوند يغتن وأما كرامته اليبغضاء. يقوم لتسليمها. ثم
الملاحظة يذهب لاستلامها منه. يضع مغير يده على الكرسي،
بشعر عليها. يتحرر مغير يفر على باقي الكراسيات التي
بمؤدة الملاحظة. خشيتها المفاجأة ثم بدأت تصيح وتلطم خديها
في دعر لم يفهم الطلاب ما يحدث، تهمسروا خارج القاعة
إلى أن ملئ منهم الضابط التترقى. قبل فتح التحقيق كانت
الواقعة قد أثبتت: كراسيتان عليها اسم الطالب ورقم جلوسه:
وحددة أوشك على تسليمها حالبة من أية إجابة، وثانية مستقرة
بسر على الكراسيات مع الملاحظة، تحمل أولها إجابات
مطلوبة على كل الأسئلة المطلوب الإجابة عليها! كان على
التحقيق للوصول إلى شركاء الطالب، أستاذ واحد، أستاذة،
موظف واحد، موظفين، وفي مقابل مبالغ مالية، مكافآت
عينية، مركز وظيفي؟ وكيف كانت تستبدل الورقة... إلخ
صناعة أولى. قاسية. شجر، أوسد الجامعة خارج المجتمع،

الفصل الثامن

لم تنتبه للكراسة الموضوعية على مكتبها لافى اليوم الرابع
لرحيل جدها متى وضعها؟ هل كان يسوى كتابة لمريد ثم
أحسن بالموت ولمس كتفه فسارع بوضع هدوته على مكتبها،
بدلت شجر على قراءة المکتوب:

اهدء

أقدم هذه الصورة من تاريخ حياتي الى جبهتي وقررة عيسى
لأشبه شجر محمد عبد الغفار المعطية بقسم التاريخ بالجامعة
المصرية حديثة متواضعة لها بمناسبة حصولها على درجة
الماجستير بتقدير ممتاز معاًلاً الله القائل أن يديم طوبىها بعمله
الملم ويرضى عنها ويرضوها إن ربي سمع الدعاء.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلوة
والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين. أما بعد فهذه مذكرة
بتاريخ حياة المبدع الفقير إلى ربه الكريم عبد الغفار بن علي ريس

العائدين، والدته صاحبة بيت حسن الخواص.

ولدت تقريباً عام ١٨٩٧ في قرية زريبة الأشراف (العديلة لأن) بالقرب من بلبيس بمديرية الشرقية. ولم تكن هذه القرية هي بلدا الأصلي بل سرل فيها أبي قنما من قرية الزرايى في صعيد مصر قبل ولادتي بخمس سنوات (كان أبى خلف وراءه في الزرايى زوجته الأولى وبنتى وثلاثة أولاد). ولم يحك لى أبى مسبب تركه لبلده واختاره لزريبة الأشراف للإقامة وربما كان يتيقن أن يجزى عن تعاضيل تلك عندما يشكك عودى ولكن واقته المنية ولم أبلغ السابعة من عمرى، حكى لى أبى عن جدتى شجر وعسى أبيه وأخواله الذين ذهبوا إلى مساحات الحفر فى منطقة القنال ولم يعودوا أبداً ولا أدرى إن كان أبى شريك باتجاه لاسم عينية بعد مغادرته المركب فى مساء ليلة تنقيد وصية والدته برسالة قبر أبيه وأخواله لم تسب الحفر، سرل أبى زريبة الأشراف واستقر فيها ثم تزوج واحدة من بناتها ولا ين أن تكون من ريسارة قبر والده وأخواله رغم تعدد ريسارته لتلك الناحية، والأرجح أنه لم يجد علامة يستدل بها على مقابر من ماتوا فى مساحات الحفر.

سبب تغيير اسم الزريبة إلى العديلة

فى القرن السادس عشر سرح إلى مدينة بلبيس بمديرية الشرقية ثلاث بخرة من سادة بنى هاشم من قبيلة قريش قدامى

من الملائك بالحجاز. وكان مسهب لشلالهم إلى مصر خلافاً لما يؤمنهم وبين الشريف صوى، حاكم مكة، وكان ثلاثتهم غير راضين عن حكمه يملسون أنه رجل ظالم لا يراعى الحق ولا شريعة الله. هذا ما قالوه وتناقلته الأجيال، أنشأوا بلدة زريبة الأشراف واستقروا فيها وواصلوا عملهم فى زراعة وتجارة الحلة فى مصير والحجاز والمراقر.

فى طفولتى كان هناك شخص من عائلة الحداوى لقي أسمت البلدة صمه محمد صالح ترقى لى وظيفة رئيس محكمة الاستئناف بالقاهرة وكان الحداوى صم لثانى ابن الحداوى توفيق يملك حوالى ألف فدان أطيان ومنية ناحية لشاخص بالشرقية ويرغب فى زيادة أملاكه فى هذه الجهة فكان يوعز لرجال الصبب والعمد وموظفيه بإقناع ملاك الأرضى المجاورة بالتنازل عنها من يريد منهم أن يحصل على رتبة بيك يكتب عدداً خالص الشى بمائة فدان باسم ولّى العهد عبد المصم، ومن يرغب فى لقب باش يكتب عدداً يمانتى فدان أم من يرفض التنازل عن أرضه فكان رجال الحداوى وموظفوه يعمرون الأرض المجاورة لأرضه بالماء، ولأن جميع الأطيان فى تلك الناحية رملية ترشح على بعضها يتخذ عليه زراعة الأرض فتتورجحصر إلى التنازل عنها لولى العهد أو يبعها به بشى بفس. وبهذه الطريقة تمكن ولّى العهد من امتلاك ثمانية آلاف فدان.

هناك عائلة فى تلك المنطقة تمسكت بحقوقها ورفضت التنازل أو البيع حتى عندما تمسخر عليها زراعة الجزء الأكبر من الأرض فأسر الحداوى عماله بوصف اليد على جميع أطيانها

باعتبارها منافع عامة فرفعت العائلة دعوى أمام محكمة الزكازيق ضد الحامسة الخديوية ولكن المحكمة حكمت لصالح الخديوى فقامت العائلة بالاستئناف أمام محكمة مصر. وكان رئيس المحكمة محمد صالح الحصارى ينظر القضية والحكم الابتدائى فلم يقبل الظلم وقرر أن يحكم بالمعدل حتى لو فقد حياته. وفعلًا ودع أولاده قبل الجلسة بيوم واحد لأنه يعلم علم اليقين أن الخديوى سيقطله إذا حكم ضده. توجه محمد صالح إلى المحكمة وحكم على الحامسة الخديوية ببرد الأظفار لأصحابها وإلزامها بالتعويض ومصاريف القضية والاعتساب. وبعد ساعتين جاءه طلب من سراى عابدين لمقابلة الجنب الخديوى.

قال له الخديوى:

- أنت القاضي الذى حكمت ضدى اليوم؟

فأجابته:

- أنا حكمت بما يرضى الله ويرضى ضميرى.

سأله:

- ما اسمك؟

- إسمي محمد صالح الحصارى.

- من أى بلد؟

- أنا من بلدة صغيرة بجوار باريس إسمها زريسة، لأشراف.

قال له الخديوى:

- أنت منذ اليوم إسمك محمد صالح عدلى وبذلك إسمها الخليفة.

فى اليوم التالى صدرت لجرنالد وطلى صفحتانها الأولى بالخط العريض لى الخديوى لكرم القاضى الذى حكم ضده. وكان لهذا الموضوع رنة فى مصر كلها وكانت العائلة للخديوية تتباهى به.

ملواتى

لم أجد أذكى ملاح والذى ولكنى أذكر أنه كان يحب أكل البلح وشرب الشاي وأنه كان يلبس (العرمى) عبارة عن جلباب كبيرة بأكمام واسعة جدا يمسح ذكرك ربيع أردب قمح وكانت العقب معه كثيرا فأدخل فى كمه الكبيرة وأمر على جسمه وأخرج من الكم اللسان. وكان يلبس سروالا من البقعة. وكان كريما جدا رغم أنه كان مريضا رقيق الحال. وكس عند حضوره للميزل للمشاء يكلمنى بل أجبع الفيز العائش من على الطاولة وفتنطزه فى الشارع لمأخذه للفقراء فى الجامع أما والنتى فكانت تمنع فى للتفريط فى الخبر ولتلك تعودت على سرقة الخبر المتبقى كل ليلة لأعطيه لوالدى.

توفى والدى فى آخر صام ١٩٠٤ وكانت فى حوالى السابعة من صدى. كانت آسان تموت فى الفسوارع بسبب لويام الذى كنا نسميه "اللوطة" أو "الكوليرا". وكانت العائلة المكورة من

شخصية أشخاص يموت منها في اليوم الواحد اثني أو ثلاثة، وكثافوا يأخذون الموتى من المسازل على عربات كانوا وينقلونها كما هم بملابسهم بدون غسل ولا صلاة في حفرة كبيرة في الجبل. رأيت موسى ولما طفل السلام التي أرسلتها الحكومة، في كل شارع عومسي وضع سلم جوز كبير وثلاثة صال يصل كل منهم جردل صاج ومقصا كبيرا. يلف أحد العمال على أعلى السلم ويقصن السهو، بالمقص ويضعه في الجردل ويعطيه ويأوله للعمال الثاني الذي يأوله للعمال الثالث فومطسي السهو، بالزمل وكانت هذه هي طريقة مقومة العدوى حسب أوامر الحكام الإنجليز في ذلك الوقت المابر، حفظنا الله من شر حكم الأعداء.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية بين ١٩٠٤ و ١٩٠٦

بعد وفاة السدي انتقلنا الى بلبس للإقامة مع خالي وأنشأت والدتي مشعل لحبشة ملابس السيدات والرجال وكان يساعدنا في المشعل فتاة صميرة، وكانت أمي تحصل من هذا المشعل المال الضروري لمعيشتنا اليومية. كانت تعطيني قرش خردة أشتري به طبخة ملوحيه أو بامية وطماطم (وكان اسمها بانورة) ويصل ويرسيم للأرانب. كل القرش الصاج يساوي ٨ قروش خردة، والقرش الخردة وزنه ١٢ درهم ومكتسوب على أحد وجهيه "تترب في القسطنطينية" وعلى الوجه الثاني:

"صد الحديد خمس عبد سعيد، ويوجد نصف القرش الخردة وهو عشرين خردة وزنها ٦ دراهم من الحبال الأحمر، وربع القرش الخردة ووزنها ٣ دراهم. وكان يمس البياض يستخدمونها في وزن السلع يخل السج، وكانت والدتي تعطيني أجرة حلاتي عشرين خردة فكنت أحتفظ بصنعها وأعطى الحلاق عشرة خردة وهي تساوي ١/٣٢ من القرش صاج، كان الربون يعطي الأجرة للحلاق يأخذها منه ويضعها في جيبه دون أن يراها حتى لو كانت يد الربون فارغة، لذلك كان الله يبارك لهم في حياتهم.

كانت قرية الماء الكبيرة بعشرين خردة والصغيرة بعشرة خردة، ورطل اللحم بقرش صاج، والفرخة الكبيرة بقرش ونصف، واللوزة بقرشين، والعشرين بيضة بقرش صاج، ورطل الزبدة بقرش ونصف، ورطل السم البلدي بقرشين، وأردب الفصح بستين قرش، وأردب الفول بأربعين قرش، وأردب الدرة بخمسة وثلاثين قرش، وأجرة المنزل المكون من دورين، كل دور ثلاث غرف عشرة قروش، وكانت الجاموسة الولدة مع نتاجها بيس أربعة وخمسة جنيه، والبقرة الولدة مع نتاجها بثلاثة جنيه، والحصار التحصيلي المال بجنيه، وللخروف بخمسين قرش، والجدى بخمسة وثلاثين قرش، وكانت الحصيلات تباع بالقشرو (بالمنشة) بدون وزن، مشبعة البلح بقرش صاج، ورطل عسل النحل بقرش تعريفة، ورطل عسل

القميص بقرش خردة، ورطل الملحبة بثلاثة قروش خردة،
ورطل زيت السمسم (السورج) بمئصف قرش.

كانت الدليات والخالقون هم المعالجون وكان هناك طبيب
واحد في البلد يذهب إليه الأغنياء وكان رجلاً تركياً يدعى بصوم
والكثف عنده بقرشين صاع. وكانت أجرة تقصير وخياطة
القفطان قرشين صاع وأجرة الجلابة ومعها الصندري قرش
واحد وكل الصابون قليلاً جداً ولا يستخدمه سوى الأغنياء
وكانت شركة الملح أول من صنع الصابون في مصر فترتبط
ببيع الصابون بالملح فكان على من يرغب في شراء أكمة ملح أن
يشترى قطعة صابون بربع قرش ومن لا يشتري الصابون لا
يسمح له بشراء الملح. ولم تكن الدالية المظلمة من الناس
تستخدم الصابون، كانت الثياب والنساء يأخذن الملابس المراد
غسلها إلى الترعة ومعهن مذقية خشب ويصنعن الملابس على
الماء ثم يفرجهن ويضعنها على حجر كبير ويذلل عليهن
صرباً بالمذقة حتى ترول صها البقع وتصبح نظيفة. أما الزهرة
فلا تستعمل إلا لشال العمة.

في سنة ١٩٠٥ ظهرت البطاطا وكل لها وقع عظيم وكانت
تعد من الثروة المهمة لأنها تغذي الفقير بالثمن القليل. وفي
سنة ١٩١٢ ظهرت المناجحة وجاءت أشجارها من الهند. وكسب
الفتاح يباع على عربات اليد الأكمة بقرش صاع أما معظم
الثواك الأخرى فتباع بالثسروة بدون وزن. وكل الحب يباع

في الجنان بالوزنة والوزنة مثبنة كبيرة حوالي عشرين أكمة
بعمسة قروش ومثبنة البلح عشر أكات بقرش واحد. وكانت
معاملة تجار الجملة وتجار المنازل والأطيان بالكيس. يقول
الأسفل أنا اشتريت المنزل الفلاني بمئشرة أكياس، والكوس
قيمته عرفاً جنينها ونصف. ويقول آخر أنا زوجت ابنتي فلانة
بمئشرة أكياس واشتريت الفدان الفلاني بثلاثة أكياس، أو يقول
اشتريت هذا الحصان العربي الأصيل بأربعة أكياس ولا أبيع
حتى لو جاني فيه مئشة أكياس.

وكان الجنيه الذهب المرسوم عليه ملك الانجليز يساوي
مئبعة وتسعين قرشاً ونصف، والجنيه المرسوم عليه الملكة
يساوي مئبعة وتسعين قرشاً، والجنيه البتو ويسمى بالجنيه
العثماني قيمته مئة وتسعين قرشاً واثنين على عشرة.

في سنة ١٩٠٦ كان الخديوي عباس يحضر كل يوم أربعاء
لمررته في إيشان وفي بعض الأسابيع يعلل أنه سيحضر في
محطة بابوس ثم يعود إلى القاهرة. وكان له قطار خاص بعربة
واحدة وكان يسوق الوهور بنفسه لأنه كسل يعلم الكثير عن
المكاريكا والبخار. كل المسواق والمطبخية يزلفونه ولكنه هو
الذي يقوم القطار وهو يلبس بذلة كاتان وطربوشاً طويلاً مثل
لبس المساكين. وفي اليوم الذي يحضر فيه لمحطة بابوس
يخرجنا أسبانيا لمتشايع من الكتاب لانتظاره بالمحطة وما إلى
براه حتى نقول بصوت واحد: "مرحباً بخديويلاً عباس" فيصع

يده في حبيبته ويرمينا بمعلات فسيحة من ذات القرشيين ففسرنا
لاقتنا لها، البعض منا يحصل على قطعة أو اثنتين والبعض
الأخر لا يحصل على شيء. ثم نعود إلى الكتاب ونعطى
للمشايخ نصف ما ربحناه.

يده عن حياتي الدراسية

دخلت كتاب الجامع الكبير وترسنت فيه أربع سنوات من
١٩٠٤ إلى ١٩٠٨ حفظت فيها نصف القرآن وتعلمت الكتابة
والقراءة. كس لكل تلميذ منا لوح صليح يكتب عليه بالحبر
الأسود والقلم العاد أو البسط. وكنا ندفع للمعروفات رسوم
المبته من كل أسبوع وهي نصف قرش ورغيف مزهرج، أم
غير القناديين من التلاميذ فكافوا يأتون برغيف مزهرج بدون
نقدية. وكان الإفراد الأسبوعي للكتاب مشنتين عيش وحوائلي
خمسين قرشا يتقسمها أسيادنا المشايخ.

كنيت دائما أحرب من الكتاب لأن أسيادنا المشايخ كانوا
يضربونا بقسوة ويستخذمون العقدة وهي عبارة عن صود من
خشب غليظ مربوط في وسطه حبل من القصب. يدخلون رجل في
التلميذ في الحبل ويلقبوه عليه واثنين من التلامذة يرلمان رجله
بالقطة أمام سيدنا وهو يظل يصرب بالعصى العوزون أربعين
أو خمسين مرة حتى أن التلميذ المصروب يظل حوالى مئة
مساعات صابرا عن المشي على قدميه وكانوا يقولون أن

حصاية تقي الكتاب من الجثة وأنا أقول إنها من الشر.

حياتي في المرض

كان سنني أربع سنوات حين مرضت بالحمى. حاولت أمي
أن تعطيني ريثت حروخ ولكني رفضت واجتمعت الجارات على
الإجماع ولكني لم أقبل. قلت لن أحد الشربة إلا إذا أحضرتم لي
أربا فسارعت إحدى الجارات بإحضار أرب من دارها فقلت
أريد أربا ثانيا لولم يلب مع الأرب الأول فقامت بعض الجارة
وأحضرت لي فقلت: هاتوا لي باقة بوصاء. وكانت أمي غاضبة
تفكر في طريقة لإزعامي على تناول الشربة عدما وصلت
الدبة التي حضرت ولأنني كنت معتبرا طبيب المائلة
فلقيت في بطانية وحملتني إلى موصلة الجامع ولقيت بي فيها ثم
نلتني منها ونفقتني في البطانية وعادت بي إلى البيت. وكانت
موصلة الجامع تستعمل للوضوء قبل ظهور الحفوفات وهي
عبارة عن بركة يملأون ماءها مرة في الأسبوع. ولم يكس
ملاها بطيخا لأن المصلين يتوضؤون فيها وبعضهم غير مطويع.
ومع ذلك لقد شفيت من الحمى ولم أمرض بعد ذلك مطلقا
ويبدو أن هذه الطريقة أعطتني مناعة ضد العدوى من كل
الأمراض.

في عام ١٩٠٨ وكنت في الحادية عشرة من عمري أخدمت
أحد أعمام أبي وكان يعمل في البنك الزراعي المصري في
بليس لأتدرب على الكتابة والحساب. وكان هذا الشخص كريما
فسمح لي أن أكتب للفلاحين استمارات النسخة التي يطلبونها من
البنك في مقابل نصف قرش عن كل استمارة. فكان مكسبي
اليومي بيس قرش وقرشين فأعطى هذه المبالغ لأبي. وبمدها
بحام مساعدتي هذا الشخص نفسه على تعييني في وظيفة كاتب
في مزرعة بطيخ بادية بني صالح تتبع دائرة سمو الأسرة
نعمت هاتم مختار (وهي بنة الخديوي اسماعيل ومسميت بتقب
مختار نسبة إلى زوجها مختار بشا في تركيا). وكان أجرى
اليومي قرشين صاغ ويطبخه. وكنت أبيع لبطيخة بصنف
قرش. وبمدها انتقلت لأعمل في برديس وموقعها بين بلييس
والزكريات وبها من لأطيان أربعة آلاف فدان كانت صغر
أملك الخديوي اسماعيل وبعد وفاته قسمت مضافه بين أسرته
أمواله ونعمت مختار. فكان نصيب كل منها ألفي فدان.

وفي عام ١٩١٥ انتقلت للقاهرة وعملت بمحل الحاج السيد
على تاجر محال بشارع بيت القاصي بالجمالية ولم تكن
القاهرة مدرجة وكانت مواصاتها سهلة. كانت العمارة قبيح
في المباني لتوصيل الناس لأشغالها باجر رهيد. وكانت لشركة
الصبان عربات مستوق تجرها خيل أو بعال، واجرة توصي

الشخص من سيدنا الحصون إلى العتبة الحضر ٢ ملهم، ومن
سيدنا الحصون للقمة ٣ ملهم، ومن سيدنا الحصون للسيدة ريتب
ملهم، ومن العتبة الحضر إلى السيدة مورو باب الحديد
ملهم.

أم كلثوم

استمعت إلى أم كلثوم للمرة الأولى عام ١٩١٧ وذلك بعد
انتقالها للإقامة في القاهرة بشبع سنوات. وكنت الحاج سيد على
تاجر شعاع الذي عمل هذه قد رزق بولد بعد سبع سنوات
قرر أن يهربي ذكرى الإنشاء والتمعراج بليلة يتهاكي عنها
الأهل والجيران. أرسلني الحاج إلى قرية طماي الزمارة
للتقاء بالشيوخ إبراهيم السيد والاتفاق معه أن يأتي إلى القاهرة
برفقة ابنته الشبيخة أم كلثوم لأشاد السيرة النبوية في منزله في
القاهرة. فعلا سافرت إلى المسيلوب ومنها إلى طماي الزمارة
واتفقت مع الحاج أن تحيي بيته الليلة في مقابل ثلاثة جبهات
شاملة الأجر ومصروفات الانتقال وعدت إلى القاهرة بسمر
المقد المكتوب موقعا عليه من الشيوخ إبراهيم.

في يوم ٢٦ رجب وعمل الشيوخ إبراهيم ومعه ابنة وبنته
ولما رأى الحاج أم كلثوم أحمر وجهه من شدة الغضب ثم
نقضى بي جانبا ووبخني وقال إن الليلة مستقلب إلى موارنة
وجرسة وسيط الناس أنه بخل عليهم بمشيد همام بسجده

الطلة ولن يصدق أحد أنه دفع لها ثلاثة جنيهات! طلب منى الحاج أن أذهب، إنفلاً! للموقف، تلمعت عن الشيخ لسماويل مكر وكان من كبار المشدين ولكنى وجنته يستند للذهب إلى حلول لإحياء الألبسة في مري عز الدين بك يكن. عدت إلى الجمالية لأخبر الحاج بالأمر. فسبى وكنت أصرف أنه ما إلى تنتهى الليلة حتى يطردنى من عملى.

ظهرت أم كلثوم! هبة صغيرة فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ترتدى معطفاً رجالياً وتعطى رأسها بكوفية وعقال. مري يسر الحاضرين لمط بيس مذهش ومستكر ولكنها ما إلى بدأت تشد حتى صاروا يتمايلون طرباً ويستمدونها وكنت نصى وإن فقدت صلك يا وند، هذه بولة من ليالى العمر واليوم خمر وغدا أمر. فى نهاية الليلة كان الحاج سعيداً لدرجة أنه أعطى خمسين قرشاً هكذا بلا مناسبة!

من يومها صرت أشفق غناء أم كلثوم وأذهب إلى كل مكان تعنى فيه بدا ما تيسر فى ذلك. تسبب هذا الأمر فى مشاكل بينى وبين زوجتى. كانت تقول لنى لهد النفود فى الهلن فأعصب بوصفها ضاء أم كلثوم بلغة 'هلن' فأقول لها إنها جافلة. وفى عام ١٩٢٦ أصدرت شركة أوديون للاسطوانات ١٤ أسطوانة لأم كلثوم فلم أستطع أن أصير أكثر من ذلك أنشأريت غرامافون والاسطوانات الأربع عشرة وبسداً من أن تقترح زوجتى بهذه النعمة صاحت فى وجهى قائلة: 'وتأتى بها إلى

يوتى لتشاركنى فيه! وعادرت إلى يوت أهلبها. حاولت مصالحتها ولكنها أصرت 'ألا تصود إلى يوت إلا بعد خروج الغرامفون منه. فذهب كل منسا إلى حال مسبله.

واقعة معول به يا محمد القدى

فى سنة ١٩١٩ كنت أصلى فى الجمالية وأمسك فى نفس الحى وكان لى أصدقاء من طلاب الأزهر. وقد اشتركت معهم فى الإضراب منذ اليوم الأول وكان ذلك يوم الاثنين ١٠ مارس وهو اليوم الثانى للثورة لأن طبعة مدرسة الحقوق والمهندسة ومدرسة الزراعة كانوا سبقونا إلى الإضراب يوم الأحد.

فى الأيام التالية كان طلاب الأزهر يخرجون من لأروقة فرادى أو فى مجموعات صغيرة ثم يجتمعون فى الميدان ويلتأجرون التجلير بالمظاهرة. فى ذلك اليوم حصلت الشيخ عبد العزيز على كتفى، وكس يتول بصوت جهورى وقذرة على ارتجال هزافات مؤثرة. بدأ يهتف ويص يهتف ورء حتى ظهر الإنجليز وبدأوا فى إطلاق النار. اضطربت الصفوف فاختل توزي لمقطنا قبا والشيخ عبد العزيز على الأرض. رفع رمبل آخر شابا من المتظاهرين على كتفيه، وكان من الأندية، فعلا صوته بالهتاف: 'مفدى الوفا بالأروخ'! فصاح الشيخ عبد العزيز بصوته الهادر: 'الوفد يا محمد القدى، الوفا: معول به يا محمد القدى! جذبتة من يده وزغنه' قائلًا: لعا فى يه

والأخى إليه يا شيخ عبيد العزيز. قوم فز حليموت دهنس تحت
الرجلين. قال: مش قادر. حنفته فواصل الشهات حتى وأنا
أركض به للاحتماء من الرصاص. كانت ساقه مكسورة وطبل
حتى بعد أن حنفته إلى المجير يقول فى مستكتر. نحى الوقء،
يرفع المفعول به، سبحانه الله، لعنية أضر رمن! خف ليدك
شوية يا حاج. ألوجع شديد، شديد كوى!"

والعتان لم أشهدهما يعنى ولكنى سمعتهما من رجل من التقات
روى الحاج محمد عبد المال وهو تاجر جملة ويصف جملة
عملت فى الوكالة التى يملكها فى الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٤٢
قال: "كانت دائرة سمو الأميرة أمية إسماعيل ولدها الهرن
طاهر باشا تأخذ طلبات السراية من محلاتى بالشمس. وكنت
أول كل شهر أكتب فائورة وأتوجه إلى الدائرة لاستلام حسابه.
وفى مرة ذهبت لتعصيل قيمة الفائورة فقال لى الباشاكتب بن
دولة الباشا طاهر فى سادى القرومية فانتظر حتى يأتى ويمطيك
حسابك فبانتظرت. فى هذه الأثناء حضر الملك فاروق فى
مسيرة صغيرة جدا يسوقها بنفسه وكان يلبس نظارة سوداء.
دخل الدائرة فقبله الباشاكتب. سألته الملك: "أنت مير؟" فأجبت:
"أنا الكاتب فقال له: "اسمك إيه؟" قال: "محمود" قال الملك: "أنا
محمود أنا مصطفىان هات لى كوباية مية جالا" فذهب الباشاكتب
مصرعا إلى المبرية التى تبعد حوالى مائة متر عن مكتب

الدائرة لإحضار الماء. وفى الحال دخل الملك مكتب طاهر
باشا وكنت أنظر إليه من خلف الشيك فوجدته يأخذ ثوب من
على المكتب ويضعه فى الجيب الخلفى لبطلونه ثم يخرج
وركب للسيارة وعاد إلى سراى القبة وبعد دقائق حضر
الباشاكتب بجرى ومعه دورق ماء وكباية وقلبه ثلاثه من
الخدم وسألنى عن الملك فقلت لهم إنه دخل مكتب طاهر باشا
وأخذ حاجة من عليه ووضعها فى الجيب الخلفى لبطلونه فدخل
محمود لاسدى يتقيد السهم من المكتب ويخرج وقال بن الملك
مشرق تمثال الحيدوى إسماعيل وهو تمثال صنير من الذهب
الخالص مرصع بالأحجار الكريمة وكان هذا التمثال من نصيب
الأميرة أمية عند تقسيم تركية أبيها وهو يساوى أربعة آلاف
جنيه.

وعندما حضر طاهر باشا أخبره الباشاكتب بما حدث فقال.
بن الكاتب: طنبه مى عدة مرات فلم يقبل إعطاه له. وفور!
ذهب إلى سراى القبة وقابل الملك وطالب التمثال فقال الملك.
"هذا تمثال جدى وأنا أحق به من شيرى!" فرد طاهر باشا:
"مصحح إنه تمثال جندك ولكن والدتى لأخوته خمس نصيبها عند
تقسيم التركية" فرد عليه الملك. "أنا الوراث الوحيد للعائلة
المالكة وأنا الملك!" فعاد الباشا بخفى حنين.

حادثة أخرى عن الملك فاروق

حدثنا الحاج محمد عبد المال قال: كانت دائرة سمو الأميرة لمينة إسماعيل وولدها الأمير طاهر باشا قريبة جداً من مروي القبة. وفي مرة أقام الملك حفلاً كبيراً في القصر وذهب له عظماء مصريين وأجانب، وكان لدى الأميرة أمينة طقم سفره كامل من العصاة المطلى بالذهب وعليه نقش التاج واسم الحديوي إسماعيل أخذته ضمن نصيبها في تركية والدها. طلب الملك الملقم لاستعماله في الحفلة وعادته يذهب لأزملة الباشا، وبقي هد الملقم في المطابخ المنكية ونسى طاهر باشا استعمالته بل تمسسى أنه أعازة للملك. وفي يوم طلب طاهر باشا جرود المطابخ فلم يجدوا هذا الطقم. فأبلغ الباشا النيابة واتهم الباشاكتاب الذي كانت مفاتيح القعدة في حوزته. فتمس على الباشاكتاب وحكم عليه بالسجن ولصقل من عمله. وكان الباشاكتاب صديقى وكنت أصرف أنه مظلوم فكنت أزوره في سجن الاستئناف في باب الخلق من حين لأخر. ولما أراد الله أن يظهر الحق حضر أحد طباحين الملك تصاعمة ومعه طبق قصة مطلى بالذهب وعليه للتاج واسم الحديوي إسماعيل وكان يرغب في بيعه. فأبلغ الصانع قسم الجمالية فقبض على الطبخ الذى اعتُرف بالسرقة وحكم عليه بالسجن. وأخرج عن الباشاكتاب بعد أن قضى مدة طويلة في السجن بلا نسب^٢.

العسل التاسع

لم يترك لى جدى لأبى كرامة ألفها في المكمل وأحفظها في خزائنى إلا ولدت بعد وفاته بثلاث سنوات. وكان أبى حين يأخذنا إلى بيوت، يتوقف عند مدخل البلدة حيث المقابر ليقرأ للفاتحة على قبر أبيه فحدثوا حذوه. لذهب مرة في العام أو مرتين، أذكر بوجة الدار، بوابة خشبية عتيقة لها سقاية. ردهة تربية مسقوفة. حجرات شبه مهجورة في الخابق الأول سلم خشبي. مثهالك. أكراب لنا يسكنون الطابق الثانى. أذكر مملكتين في لقاء واسع ودارا أصغر يسكنها عم أبى.

أبى يأخذنا إلى بيوت يسائرته الهلس السوداء، تستغرق الطريق ساعة. الطريق إلى بيت جدى لأبى في حاور تستغرق وقتاً مماثلاً أو ربما أكثر قليل. تعلمنا سيارة أجرة إلى محطة باب النورق. نركب قطار. يتوقف في السيدة وينصب. سار جرجس، المعصرة، المعادى، طرة، طرة الأسمت، العير مجرد أسماء في عالم طفولتنا لن تمتلئ بالنعيم إلا لاحقاً. سارل

من القطار في معطته الأخيرة، على باب المحطة واثمة
 الخيول وصف الحماطين، لكل منها حودي مستقر في مقدمة
 العرب، في يسراه لجام وفي يمينه سوط، نوكب، تقول أسي:
 بيت هزام في شوارع خمسرو، يا أنسطي لو سمحت، يرفع
 الصودي سوطه، يهزل به على ظهري الحصانين، يتهركسل
 حركة معاجة، ترتج العرب ثم ينتظم اهتزازها مع انتظم قوادم
 الحصانين. أسي على المقعد الكبير، على جانيها حاتم ووائل
 "الكبار". أنا ومبارق- على الأريكة الصغيرة لأمها، لا يملك
 الالتفات ورايا لمشاهدة الحودي فتابع وقع هونجر الحصانين
 على إسفلت الطريق منتظما يتماشي مع تكررة المجالات
 وقرعة السوط يقطعها بوس حرس وآخر صهيل مباحث، في
 البيت أسماء ورقية، أسماء قهوة اللون، صغيرة الحجم، إنها
 جذتي، رقيقة، سلفتها، ممتلئة بهواء، تحب القطط. "بت رقية"
 تقول أسماء، ورقية لا تقلدي سلفتها إلا "بت أسماء"، تتعازل
 على الطعم في كل وجبة، تحافظان على التود والمساواة والألفة
 مع الكلفة، هكذا لأكثر من سنتين عامسا عائسا فيه تحت سقف
 واحد، وقد يأتي للبيت صاحب حاجة يقيم فيه أسابيع أو شهورا.
 أم دقق، في الصيف، تجلس مترحة على سجادة صغيرة على
 عتبة السلم، لأنه "طيرة"، كف بصرها أو كساد، هامة تفكر
 في شيء أو آخر، تتشر واثمة لابن على السلالم بمطعمة
 صغيرة تملأها بين حين وآخر بخفة من حبوب القسوة

المحمصة، حين تفرغ من ذلك تعود إلى ما جمعه من بقايا
 لقشة، شرائط ومبرق تلقها في كرة كبيرة سوب تهك لاحقا
 في استخدامنا لتصنع منها بساطا ملونا راحيا.

- لم دقق إحكى لي حكاية أمير اللوا

- صلي ع النبي

- اللهم صلي عليه

كان يا ما كان ياخذ يا إكرام في سلاب الحصار والأوان الفار
 وفارة، وفي يوم من ذات الأيام الفار والفارة تقوا بيضة، الفار
 يقول دي بيصتي والفارة تقول دي بيصتي، يتعازلوا، راحوا
 للقرود يحكم بالعدل ما بينهم، القرود كسر البيضة لصين وشرها
 وأعطى نص القشرة للفار ونصها الثاني للفارة، حصل إيه،
 حصل إيه؟ الفار والفارة قالوا حصل مركب، نزلوا في بحر النيل
 وهملوا قشرة البيضة مركب، جت الفرخة، قالت:

- مركب ميسن السائرة السائرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة.

قالت:

- وأنا للفرخة الصفرا الففارة.

تظت في المركب ركبت معاهم.

جه الذيك. سأل:

- مركب ميسن السائرة السائرة؟

قلوا:

- مركب الفار والقنارة والفرخة الصغيرة القنارة.

قال:

- وأنا فديك أبو الدويكة التي بيدن ع الحيطه.

بطركب معاهم. جه الخروف، شافهم: قال:

- مركب مين السابرة النابرة؟

قلوا:

- مركب الفار والقنارة والفرخة الصغيرة القنارة والديك أبو

الدويكة التي بيدن ع الحيطه.

قال:

- وأنا الخروف التي صوفه بيتباع بثلثوس.

ركب، جه الجميل، سألهم:

- مركب مين السابرة النابرة؟

قلوا:

- مركب الفار والقنارة والفرخة الصغيرة القنارة والديك أبو

الدويكة التي بيدن ع الحيطه والخروف أبو صوف يتباع

بثلثوس.

قال:

- وأنا جميل الجميل جميل لأحسن.

وبط في المركب معاهم. جه الخروفت، سألهم:

- مركب مين السابرة النابرة؟

قلوا:

- مركب الفار والقنارة والفرخة الصغيرة القنارة والديك أبو

الدويكة التي بيدن ع الحيطه والخروف أبو صوف بيتباع

بثلثوس وجميل الجميل جميل الأحمال.

قال للخروفت:

- وأنا أمير للثوس.

بط للخروفت في المركب خروفت. طلع الخروفت مبلول وطار

على مراته ست البذور لأقاهها مولعة الباور وبسطن ميه

عشان تستحمي .

قال:

- بردن، طبعي.

ولرب من الفار عشان يدغي، طلق مات. مراته حلت شعورها.

شافها للمراب، سألهما:

- مال ست البذور حله للشعور؟

فردت عليه ميرات للخروفت:

- مات البذور حله الشعور أمير للثوس ولع في النار بقي شوا!

قال:

- وأنا للمراب عرتلش!

طار للمراب ع اللطخة، سأله:

- مال المراب عرتلش؟

رد عليها:

- العرب عندئذ، سميت البدور حلة للشعور أسير اللوا وقع
في النار بقى شوا!
الحلة قالت

وإنا الحلة قراقوش!
لمية شابت الخلية، بيلتها:
- مال الخلة قراقوش؟

ردت للحلة:

- الخلة قراقوش، والغراب عندئذ، سميت البدور حله
لشعور أسير اللوا وقع في النار بقى شوا!
لمية قالت:

وإنا لمية قطعون!

نوصل ركبة دم دلق حكايتها، أتبعها أو لفر فجأة لأشارك في اللعب مع بقية
الأولاد والبنات.

لا أنكر جدى في هذا البيت، بيته، رأيت فيه ولمسيت، وبم،
عند كبرت قليلا كان سافر إلى الهند نوصبح أول سفير
مصرى فيها بعد استقلالها، والأرجح أنه عوس في هذا المنصب
معارا من الجامعة لأنه كان أستاذا للمعات الشرقية يتقن اللغة
لأردية فضلا عن الفارسية وهى تخصصه الأول.

توفاى جدى وأنا فى الحادية عشرة من مصرى. الصورة
الأكثر وضوحا له فى مخيلتى، ربما فى العام السابق مباشرة
على وفاته.

أجازة صيف بيت أبى كسور يملكنه عم جدى وتقيم فيه صيفا
ابتته وروجها- أخو جدى وأولادهما، شرفة خشبية واسعة
تتصرف على أرض مزروعة بالبنجيل، ومن وراء النجيل البحر.
الوقت أبدا لا نرى الشباك الكبيرة المثبتة فى جدران الخيل
لاصطيدا السمات المهاجر حلقة من الأطفال المترعبين على
الأرض. يصمتون إلى رجل يجلس بينهم، يزرع الطول، وسيم
العلام، قحى اللون، له شارب اكتفى ببعض الثوب. يحكى
لهم بسلامة وعذوبة عن أرنهاس. (هل كانت قصة من كليله
ودمة؟ أم قصة سمجها على منوالها). يحكى طويلا ولما غلب
النوم وانحاز من الصغار قال عدا أكمل لكم الحكاية. هل أكملها؟
لا أذكر. أذكر خلقتي واقفة فى هذه الشرفة تقول إنها لا تصدق
أنها ستبلغ الثلاثين، أنطلق إليها هارى الثلاثين بعيدة وجميلة
كظوء النجوم فى السماء. رجل جدى وهو فى الواحد والستين
من هره. لم أسمع أبدا يشتد شعر المتبى. ولم أكن أنا التى
قلت لتتبع أنه حقق شعره وكتب عنه. وجد تميم الكتاب فى
المكتبة، قرأه ثم نقله إلى حجرته تميم يكتب الشعر دييه،
وجدى أيضا كان يظم الشعر ولكنه كان أستاذا جامعيا، أعرف
معنى أن يكون للمراء مدرسا، كان فى المهمة شوب يقيد بروح.
لا أنفعل جدى يصيح كالمسكوب بقصيدة تملكته، لا أتبعه إلا
رؤينا هانئا؟ هل كان دائما كذلك أم أن أبى لم أعرفه إلا بعد
أن أصبح جدًا؟ سألت أمى، قالت كان يكره الشعر، أكره وهو

يتريص بالمشي أمام البيت، وهو يخلق ذكاه كل صباح، يسترن
بالشعر بصوت خافت كأنه يشبهه.

الدوبة في بيتنا تبدأ بتميم، يلقي القصيدة والقضاء صانحها،
منمليلاً، طائر الذراعين توشر يده وتتشكل أصابع كفيه في كل
اتجاه

أريد من زمني ذا أن يُخلعني ما ليس يُلغى من نفسه الزمن
لتنقل الدوبة إلى أبيه:

لا تأق ذكرك إلا غير مكتوث ما دام يمشي فيه روحك البدن
لما يديم سرور ما سررت به ولا يزُد عليك الغائت الحزن

يلتقيان في صوت واحد:

تعمثو . حملنكم كل ناهية
ما في هوانكم من منهجي عوص
مما أصر بأهل المشفق أنهمو
تلقى خوبهمو دمعاً ولعسهم
كم قد فلتت وكم قد مت صدكمو
قد كان شاهد دعي قبل قولهمو
ما كل ما ينسى المرء يتركه
مثل بين علي الهنوم مؤمن
بي مت شوقاً، ولا يها لها من
هووا وما عركوا الدنيا وما فطنوا
في إثر كل كيبج وجهه حسن
ثم انتصت فرال القنر والكسر
جماعة ثم ماتوا قبل من دعوا
تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن

يعلو الصوت طرباً ومعبوساً وضارباً حوض الحائط بجار
نائم أو امرأة، تحب الشعر، منهمكة في هذه اللحظة في غيره
من الأمور . لا يسمحان بالفراغهما بمتعة الأوقات، يريدن

انتهائها والتفتها ومشاركتها في النوبة. المرأة جالسة على
مقدمها تتطلع إليهما. الولد الإبر والولد الأب، كير في الأن،
يقان معا في حيز القصيدة، يتوصلان.

الأبوات غالباً للمتكبي. قد يثشان نسواه، لأبي تمام أو لأمري
القيس أو لأخرين ولكنهما في نهاية المطاف يعودان لأحمد
حمين:

تميم.

نُجُ للمثربة والموالي
ويتقلنا المنون بلا قتال
مريد:

وترتبط النوبق مؤزات
وما يُدجين من غيب الليالي
معك:

وس لم يمشق الدنيا كديماً؟
ولكن لا سبيل إلى الوصل
نصيبك في حياتك من حبيب
نصيبك في صانعك من خيال
رماني الدهر بالأرزاق حتى
فؤادي في هشام من ليل
فصرت إذا أصابني ميهام
تكررت الوصل على الفصل
وهان فما أتالي بالرزايا
لأني ما انتفعت بأن أهالي

يخرّب بيته أحمد حمين! تعليق أخير يشي بغيام النوبة.
يذهب مريد إلى المطبخ لإعداد كوب من القهوة ولكن تميم يبقى
ولها ألمي يطلب مني أن أسمع: 'هذين البيوتين فقط!'
أود من الأيام ما لا توده وتكبر إليها بيتنا وهي جندة

أبى خلق الدنيا حبيبا تَكِيْمَةً فما طلبنى منها حبيبا تَرَكُهُ

بأبى صوت مَرِيد من المطيخ:

عزيرُ لى من دأوه الحديقُ النَجْلُ ضياء به مات المُحِبُّونَ من كَيْلُ

من شاء فليَظُرْ! بأبى فمطرى لديرُ إلى من ظنَّ أن الهوى سهلُ

يعود مريد بَقْوته. لم تَنكته النوبة. قصيدة جديدة يلقاها معا:

وإلا كما كالرُبع، انجاء طليعة، بأن تَسْعِدنا وللمع أنشاء ساجدة

وما أنا إلا عاشق. كل عاشق أعق خُلُقُهُ الصَّيِّتِيسَ لائنة

و قد يَركبُ بالهوى غيرُ أهله ويستمتعُ الإنسانُ من لا يلائمة

بليت بأبى الأطلالِ إن لم ألق بها وكوف شحيح صاع في التَّربِ خاتمة

كثيها توقفتى العودل في الهوى كما يكوئى رُيس الخيل حارمة

ثم

و كُنتُ إذا بمنت لرضا بعودة سريتُ لُكُنتُ المرُ واليل كاتمة

هل كل المشيد اليونانى القديم ندى غمته أفلاطون بحوارية

من حوارياته يشيد الشعر هكذا؟ بأبى الشعر إلهاما من الالهة-

هذا ما يقوله أفلاطون- فتحقق القصيدة مجالها المعاطيوسى

تنتقل حلقاته الجلبة من أبياتها إلى منشدها ومنه إلى

المستمعين. ولكن هل كان جدى الذى وهب سنوات طويلة من

حصره لى تحقيق ودراسة شعر المتنبى مجزوا فى حصيرة

قصائده كزريد وتميم أم أنه أحسب على طريقته الخاصة

والمتنقلة أيضا؟ فى مقدمته ليدى أبى الطيب المتنبى الذى

حلقه، كتب جدى:

كنت لى صباى عويت بأبى الطيب، وكثبت رسالة لى

لصاوه وأشعاره، فهدت المسد بالرجل الذى أكبره. وأعدت

لرابع المخطوطات القيمة فى دار الكتب المصرية وأقيس

بعضها ببعض. ثم دعيت إلى العراق ... وأخرجت هناك كتابا

فى تاريخ المتنبى وأبيه، حرصا على المشاركة فى الاحتفال

الذى عم البلاد العربية ما بين شواطئ تجلة وشواطئ المحيط

الأطلسى.

وكان الاحتفال الأكبر فى دمشق واجتمعت وغود البسلام

العربية لى صيف أربع وخمسين وثلاثمائة وألف، ولقيت

المحاضرات فى جامعة دمشق.

وكان من جدى أن شاركت لى هذا الاحتفال كذلك.

وبما عدت إلى القاهرة المصرية اقترحت على قسم اللغة

العربية من كلية الآداب أن يكرم أبى الطيب بسفر خارج نسخة

صحيفة جامعة من ديوانه تكون هدية للباحثين لى شعوره

وحجة للندقيين فى رويته. تلقى الشراعى قبولا، ووكل إلى

بخراج هذه النسخة التى اقترحت، وعُهد إلى لجنة التأليف

والترجمة والنشر فى بيع الكتاب، واستعملت اللجنة لنطبعه

وقيل لى هات ما عندك لمكفت على هذا العمل الشاق المديد

بصح سنين.

تقب عبد الوهاب عزام من أثار أبى الطيب فى حرائر

الكتب في القاهرة ومصر والمنشئ والمطبول وموليس. كان
 بين مختلف النسخ واستمع شروحات ابن جنس والواحدى
 والمعمرى والعكرى لتصحيح المتن ومساهمة الرويات والتثبت
 منها ونهت بتحقيق النون. فى تذييل المقدمة التى وضعها
 للكتاب يقول: "وكان للراع من تحريره بجزيرة الروسة من
 القاهرة المصرية صحوة يوم الإثنين خامس شهر صفر الكبير
 من شهر سنة ثلاث ومئتين وثلاثمائة وألف من الهجرة"
 يحمل الكتاب المطبوع هذا التاريخ الهجرى نفسه والتاريخ
 الميلادى: ١٩٤٤. قدم جدى تسع سنوات من صر فى خدمة
 تحقيق النون.

عند صدور النون كان عبد الوهاب عزام فى السابعة
 والأربعين، أسنداً فى الألب العربى والأدب الشرقي فى
 جامعة فواد الأول (القاهرة لاحقاً)، نشر ترجمته عن الفرنسية
 "الشهامة"، وحقق "كفيلة ونمة"، وحقق "ألف عدد من الكتب،
 وكان له ست بسات وثلاثة أطفال: زينب وفاطمة من بنة أكبر
 بناته، وطارق من ابنته لتالية مـ، أمى.

فى الحادية والعشرين تزوج عبد الوهاب من ابنة صه،
 أسماء، صبية لم تبلغ الخامسة عشرة، تعلمت مبادئ القراءة
 على يد شيخ استقدمه أبوها لتعليمها القروس (هل تأخرت أسماء
 فى الزواج أم أصبر الأمر من مستجدات زمانها؟ تزوجت أسما
 وهى فى الحادية عشرة وعاشت لستى حيدة جديتها لئلا

حشرت طويلاً بل لأنها أصبحت جنة قبل أن تبلغ الثلاثين).
 أثناء ثورة ١٩١٩ كانت أسماء انتقلت من بيت أبيها إلى بيت
 عمها حيث يقم ابن عمها العربى، تحكى جنى: "كنا سلام
 بكامل ملابسنا خوفاً من مدامه الإنجليزي للبيت". لمار، يحالون
 من مدامه الإنجليزي للبيت؟ هل شارك جدى فى الثورة؟ لا
 أصرف، ولكن بذكره الشوبك والبدرشين المرتبطة بالشوبك
 بعلاقات الجورة والقراءة والسب كانت لهما حكاية مع الثورة.
 يكتب عبد الرحمن الرافعى:

"وأبرز الفطائح ما وقع فى قربة العزيزة والبدرشين
 (مركز الجيرة) ونرسة الشوبك (مركز المطاط) وقد سجلت فى
 محاضر رسمية، وأنتج عليها مجلس مديرية الجيرة احتجاً
 تاريخياً، وخلصها أنه فى ٢٥ مارس ١٩١٩، فى نحو الساعة
 الرابعة بعد منتصف الليل، والناس ينام، نفق من نحو مائتى
 بريطانى مدججين بالسلاح على بنة العزيزة والبدرشين، كل
 فريق أحاط بإحدى البنتين". ويوصل الرافعى رويته يصف
 كيف اتهم الجود للزيتوس وتجهزوا على أهلها رجالاً وساء ثم
 أخرجهم من منازلهم وأصرموا فيها النار "وكان كى من حاول
 من الأهالي إطفاء الحريق يطلق عليه الجود الرصاص فى دونه
 قتيلاً".

ثم ينتقل الرافعى إلى ذكر ما حدث فى الشوبك:
 "ووقع بنة الشوبك مركز المطاط يوم ٢٠ مارس فطائح تزيد

عما حل بالمرزية والبرشون، فقد جاءها الجند بعد ظهر اليوم المذكور في قطار مسلح، وركلت منه قوة مدججة بالسلاح فالتصوا البلدة ومنزلها، وسلبوا منها ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومال ودواجن، واحتدوا على أعراض النساء، وقتلوا عدد الثواب عد المقصود حين كل يدفع عن عرض زوجته، وكذلك فعلوا مع شيخ الخفراء، وقتلت زوجة سليمان محمد الفولسي وهي تدافع عن عرضها، ولما رأوا مقاومة الأهالي أخذوا يطلقون النار جازبا قتل من الأهالي واحد وعشرون، وجرح إثنا عشر، ونشعلوا النار في منازل البلدة، فدمرت مائة وأربعين منزلا، والبلدة لا يربد عدد منازلها عن مائتين وعشرة، ومن أطلع ما حدث لهذه البلدة، إنهم قبضوا على أحد مشايخها عبد المصطفى إبراهيم طلبة وابنه محمد وخفاجه مرزوق من أهالي البلد، ونفوههم في الأرض حتى الصائف اجسامهم - يدعو التحقيق معهم ثم قتلهم رميا بالرصاص وهم على هذه الحالة*.

ويلحق عبد الرحمن ثراقي بروايته الرواية المضادة تحت صون: 'بلاغ السلطة العسكرية'، يقول:

'وكل ما ادعته السلطة العسكرية عن هذه الفظائع أنها كانت في بلاغ ١ أبريل سنة ١٩١٩ 'نبعت أخبار كاذبة فيما يتعلق بحوادث يقال إنها وقعت في العريضة، وقد طلب إرسال بلاغ عن الحقيقة، فأبلغ الصابط المتوحي القيادة هناك أنه وردت أنباء

تتضمن أن القرويين في العريضة والبرشون 'شبهوا' بسلبوا البدو المسلحين، وقد أجرى البحث في القريتين بناء على ذلك يوم ٢٦ مارس، فوجدت في العريضة كمية من الأسلحة، وقد حاول المشاعبون الهرب أثناء البحث بالقنفر من سطح لأخر، فألقى ذلك إلى سقوط السطح تحت ثقلهم، وقد سبب سقوط الأسطح فوق النيران أو مصابيح الزيت في المنازل إلى نشوب بعض الحرائق في القرية*.

ويصف البلاغ ما حدث في الشوبك على النحو التالي: 'وجد قطار كان يشتغل بأعمال الإصلاح في أثناء سيرة جنوبا بعد ظهر يوم ٣٠ مارس جماعة من القرويين يحشون بالخط العنيدى في جوار الشوبك، وقد قتل خمسة من الذين كانوا يشتغلون بتدمير الخط، وأطلقت النيران بمنند على القطار من القرية فأخرج للجنود أهلها*.

وفي نهاية تقريره يقتبس الثراقي من كلمات أعضاء مجلس مديرية الحيرة ومنها ما قاله محمد القدي منصور عطائه الذي سجل الأخير من التالي:

'حتى اليوم الثالث من حادثة نزل الشوبك كان الأهالي يجدون جثث قتلاهم خلال مزارع القمح أو طافية على وجه الماء في الترع، ولما أسمع من المؤامري من قذائف المدافع ورصاص البنادق التي أطلقها بعض رجال الجيش الانجليزى يعوق كل تقدير، أما حاصلات البلد من الحرة التي كانت تجف

بمعرفة القسم فوق سطح المنزل فهدد قد رشها الجنود
البريطانيون بالسيرين وأحرقوها فتركت على ذلك حجارة
على هي جميع حاصلات الأمان.

لم يصب جدي ما أصاب أهله في التشويك، لم يخبرهم
الانجليز النار في منزلهم ولا حرقوا راد الأسرة وقتلو مواشيها.
داهم الانجليز البيت فوجدوا منسبا. تبص على جدي بتهمة
حيازة سلاح ثم ألجج عليه وقد برأته شهادة صديق ليبي. ادعى
الدوكالي ملكيته للمعصن ولما كانت ليبيا مستعمرة إيطالية
حظي للدوكالي بامتيازات عليا الأجانب حيث حيازة سلاح لا
توقع تحت طائلة القانون. ورغم تلك الواقعة لا اعتقد أن جدي
كان متصرا على النشاط السياسي. كان درسا مكتبا على حدوثه
وأورقه. يذهب إلى الجامعة. يدرس طلابه. يلتقي بطلاته من
الامتدة والكتاب. يعود إلى بيته في حلون أو السيل، ينزل
بداته ثم يدخل إلى غرفة مكتبه، يواصل درسه. جلوسه للقراءة
والكتابة مشهد يومي ألطف عاشته أمي ولم أره إلا بعين العيال.

في طفولتي لم يكن جدي سوى جدي: جد عذب وموم فارح
الطول، يزيده طربوشه وصغر حجمي طولا. يشتم، ينزل،
يحمل لنا الحلوى ويرسل بطيرة رمص في آخر ليلة من ليالي
شعبان. نخرج لزيارته أو نمتد للذهب إلى المطار لاستقباله
عد هونكة مسن الهاد، نجمع ولدي أحلى ملايسا ونعسى في
الطريق كأننا ذاهبين إلى العيد. ومعنى في طريق العودة أيبص

لأننا لا نترك العيد وراءنا بل نحمله معنا في السيارة أو نلزم
السيارة التي نحمله بالسير خلفها أو أمامها.

التصل العاشر

توفي جدى فى يناير عام ١٩٥٨. بعد خمسين سنوات ونصف من وفاته، التحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة. ثم يكس حاضرا فى مكتبتى وأنا أدخل الحرم الجامعي ومبنى كلية الآداب وأنتقل بين قاعات وممرات لمسى فيها سنوات طويلة من حياته. هناك فى الذاكرة، ربما، أو غيبته تطنعت الصبيبة إلى فروع أخرى من المعرفة. حتى تخرجى من الجامعة لم أكن قرأت لها من الكتب التى ألفها أو ترجمها أو حققها. أتبه الآن لميسر معكوس وطريف أيضا، أحببت جدى وأحببت الجامعة وبقيت حكاية كل قائمة بذاتها ومنفصلة عن الأخرى.

درست فى جامعة القاهرة ولكنى لم أعتن للعمل فيها بل فى جامعة غير شمع. لماذا؟ لأن رئيس القسم آنذاك، الدكتور رشاد رشدى، قال لا أريد هذه المهمة، فذهبت البشت للعمل فى مكان آخر.

هل كان الطريق طويلا لم غامقا مرّ فى لحظة بصر؟

فى هذه صبيبة تدخل قاعة درس حيث طلاب يقرؤونها للمعز وإن بدت أصغر منهم سنا. أتت الوليد والعشرين، تبدو

في السابعة عشرة وتقدر رغم ذلك على توصيل القليل الذي لديها وخلق لحظة تواصل تعلم منها بقدر ما يتعلمون. تُدرّس اللغة الإنجليزية لطلاب الأقسام الأخرى: أقسام اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع. بعد سنوات قليلة تُدرّس الترجمة ومقرر النقد الأدبي لطلاب قسمها. تُدرّس الشعر جاء لاحقاً. حصلت على الدكتوراه، تُقرب إلى من الثلاثين تتجاوزها إلى الأربعين فالحصصير. تتبدل وجوه الطلاب، قاعة الدرس لا تتبدل.

أدب سلفي؛ تحزل بضخ درجات تحت مستوى الأرض؛ باب خشبي صغير عن يمينها يفتح على مدرج كبير. معتم سبيا رغم مصابيح "البور" المضاءة بالسهر. منصة خشبية سقط طلابها منذ سنوات بعيدة ولم يعد لأوامعها سوى لور كالح أقرب إلى لور الرمال. على المنصة مكتب المحاضر، مكتبها، أمطها مقاعد الطلاب؛ صفوف من الدكك الخشبية المثبتة فيها ألواح الكتابة. أربع المراوح المعلقة. ست حشرة مثبتة في السقف - تختلط بصخب طلاب خارج المدرج يصعدون إلى أدب طوي أو يسهطون منه بعد انتهائهم من محاضرة ما. يفاخشا صغور صغير من طريقه، نصف دقيقة، يهرب من النافذة. لا تهرب منها القصيدة، غالباً، كأنها تفرش لها شباكها، كأنها تحترق للميد فقط في الزدانية. ثم تُقبل القصيدة بعد الطلاب أبديهم. ينسبون أثر عثة في جسمها. يتألمون صغور

صينها ورمشة الجعنين. هـ زال شارد؟ كيف ملكها إن؟ كيف استقر قريباً إلى هذا المد ووديعاً إلى هذا الحد؟ حتى هـاب المدرج؟ لا يرى لاسوى ملاح رث يمسك قبضاً بيد شاب ألى تصرس يرى من الحكاية، يحكيها الملاح القديم. الطائر البحري القليل. السفينة الممتقرة على صفحة مائتة. نقش سعية في صورة بحر. شمس وقمر. امرأة تلعب المرد، تنهقه أجساد الملاحين الموتى. حلق من رساء عطش، عرس صاحب وملاح رث عتيق وولد وحكاية.

طلاب الفرقة الثالثة يحثون مقرر الشعر الروماني في الفرقة الرابعة يجعلون من مقرر النقد الأدبي، يهيمون التجريد بمشقة. يتملّونه بجهد مصاعف. لا طائر بحري يثير الخوف والهمال، لا ربح غريبة تربط بين دورات الطبيعة وعوون الثورة، لا شاعر مصوس كالأنبياء يقلب الهامش إلى متن ويدفع بالمش المشط إلى كُتسة في الرواية. يعود المدرج إلى مكانه: الصوة اللومولي لمصابيح البور. الباب الخشبي الصغير. المراوح للكنيسة- نوقها فتعنيق، شملها فتصرد لريزاً يشعلنا بالوزل. ترى هل تنطق إحدى هذه المراوح لال على رؤوسنا، ترى من تصيب؟ ولكن دب سلفي على علاقته يبدو أحياناً مطلقاً عصي التمال: "المدرج مشغول. أعطياء لطلاب قسم اللغة العربية. عددهم أكبر" يقول الموظف المسئول عن الجدول. نحشر في قاعة صغرة الأكثر حظاً يستقرون على الدكك الخشبية، الأكل حطاً يفرشون الأرض أو يقعون مستندين إلى الجدران وباب القاعة، وقد يذير بعض الشباب لهم فيجلس على حافة النافذة.

نفس العزقة، نفس الطلاب، مُدرّج شعيق عربال حيث
تتأقش الرمسائل ويحاصر الأمسألة الروار، واسع، نظيف، سيبيا
عطاء من الجوع الأخضر يعطى مكتب المحاصر، مكبر
مبوت لا يضطرنسى لمدول هاملت؛ أكون أو لا أكون؛
أستخدمه بخوشائه أو حاصر صياحا ولا يصل للموت إلى
الصف الأخير من الطلاب؟ مقرر الأدب الأمريكى الأسود هل
هو المُدرّج يسقط من وجوه الأولاد والبنات توتر المكان القبيح
أو الصائق لم هى المعرفة بمساحة من تجربة يتواصلون معها
لأنها تخصهم؟ القهر يعضهم، تعكس تلك لعبة الميوس والأمسألة
والرغبة فى معرفة المريد، أحيانا أشعر كمنفل لا أم له/ بعيد
جدا عن بيتى" تقول الأهمية التسمية للمريد فى المدرّج
يعبرونها، يصنعون بشعف لأخبار خط الهرب المعروف باسم
"الغفّ السرى لسكة الحديد"، لا مسكة حديد، لا قطارات، لا
ركاب بل شبكات للتظيم الهرب من الطوب إلى الشمال،
أساطير المريد، أنهمهم الشعبى، الحرب الأهلية، وثيقة تحريرهم،
القمائد والقمصان والمقالات تمتهريهم، أصبح أوراق
الامتحان فى نهاية الفصل الدراسى تؤكد لى الإجابات صحة
ما التقطته أثناء المحاضرات، القهر ومسمى التحذير أكثر
الأوتار رهاقة فى وجدى هذا الجبل، ثلاثون عاما، مارق العمر
ببنى وبهم، لم يتميز من الأمر شيئا؟
لم لا أكتب سوى هذه القف من حياتى فى الجامعة؟ كسل أم قصور أم

مراجعة؟ أم حكمة تثبوت بمسألة تجعل الكتابة ممكنة ما دامت تجربة
السنوات الثلاثين التى لعبتها فيها- اللذقة هى واحد وثلاثين يصاف إليها
سنوات الدراسة الأربع فى جامعة القاهرة- تبدو لى الآن كبحر يمكن أن أغرق
فيه، أى كتب استطاع أن يصع كل عمره فى تمن واحد؟
ونكى أريد أن ألكى من والعة المعسلة:

استوقفتنى فى مدخل الكلية، مخطئا الزمنى المفضى إلى باب المكتبة-
هيكل مشيد من المعدن والزجاج، قاعة صغيرة، خلف الزجاج سترات وملابس
معلقة، ميدة تجس ممتدة وراء مكتب من الصاج المظنى باللون الرمادى، لم
أفهم، دخلت، سألته، قالت السيدة:

- محل تزاى كلين" التقطاه هذا الأسبوع.

- معسلة؟

- حضرتك دكتورة فى الكلية؟

- نعم.

- ممكن سيداتك تاتى لنا بمصمليك، نحن نقوم بالغسيل والكى
والتنظيف الجاف ولدينا خدمة مصمتجلة وأسمارنا الاقتصادية.

نسبت أن هناك مصمدا، ولّى سمنا بالطابق الرابع، حملتسى
فدماى إلى تملم لمصممت، قال لى السباعى:

- صياح الخير ها دكتورة.

- صياح الخير، مسلا جوى؟

لم يفهم، تطلع إلى

ابتسم

- السيد أجز متدخل للكلية لمحل غسل.

استمرت ومرت إلى الطابق الثاني حيث مكتب العمود. لم يكن في مكتبه. ذهب إلى وكيل الكلية:

- ماذا يحدث؟

لم يفهم. فصارت مسؤلى. ضحك

- أم المعلقة؟ أرتبنا زيادة دخل الكلية وتحديد دخل رعاية الشباب. أجزنا للمدخل لمعلقة والقاعة الكبيرة التى فى مبنى الأخرى، القاعة التى تستخدمها لجنة لامتحان المكفوفين. فلما نستفيد منها فى غير أوقات الامتحانات.

- لكن يا دكتور هذه مهزلة!

ابتسم بوجه قبيح

- لماذا مهزلة؟ كنت يا دكتورة درست فى الخارج وترغبين ولا بد لك رأيت هناك بقاعة داخل الجامعة وهناك...

- كان فى الجامعة التى درست فيها محل كبير يبيع من الكرايس والكتب إلى الأمشاط ومعجون الأسنان، ولكن قساطمى:

- عليك نور، ليس هناك ما يزعج!

- يا دكتور لمسا الجامعة تكون كبيرة، مساحتها واسمة ومترامية وفيه مبنى خاص وأحياناً مبانى للشايطات والخدمات الطلابية

ممكن يكون فيها محلات لخدمات من هذا النوع. جامعتنا يا دكتور صاقت بطلايقها. فى المحاصرة يجلس الطلاب على الأرض أو يسمعون الدرس والفين. لا توجد قسى الجامعة لا كافتيريا للطلاب ولا لأستاذة والمكتبة مخزن كتب وليست مكتبة. وأحياناً لو فرقتين طالعين من المحاصرة فى نفس الوقت يبدو المكمل كأنه يوم الحشر. ثم إن وضع معلقة فى مدخل الباب الرئيسى للكلية أمام باب المكتبة أمر صادم، شديد القبح!

صارت مكتب الوكيل إلى المبنى الآخر. كانت للمبيعات، لخدمة وجوارب وقمصان، معلقة خارج القاعة. دخلت: البضاعة متنوعة: ثوابل وتمر وفول سودانى وأشرطة كمبيوتر يبعث صوت واحد منها متجاوزاً للقاعة إلى خارجها. شاهدت بام عيونى. انصرفت إلى قاعة الدرس.

كانت الجلطة صاخبة. لم يستطع البعض منع نفسه من التكتيت والسخرية، البعض الآخر كل غاصب، دفع العمود مطولا من قراره. ختم كلمته قسلاً: "أردت تقديم خدمة للكلية ولأعضاء هيئة التدريس" لم تشكره على نواياه الطيبة. لم يقل شيئاً عن جودنا وإلى بدت على وجهه علامات الأسى والدعشة وأمين المجلس يميل قرائناً بباله المعلقة والمحل، فوراً.

ذهب العمود وجاء غيره ثم حل ثالث بالثنتين وقد أتمت اقتراحات العمادة، هكذا بقرار وزارى لم نعرف به قبل غيرنا بل قرأناه فى الصحف عملاً بمبدأ المساواة بين كافة المواطنين.

وأشهد أن لهذا من المصداق متعبيين أو محترمين بعد ذلك
تروده فكرة إعادة تسأجير مدخل الكلية لفضلة.

الفصل العاشر عشر

لم تفكر شجر إلا أنها هدفة شخصية أكرمها بها جدها قبل
رحيله، لأنها في قطعة من السمل وحفظتها. لم يفارقها شعور
مهم بأن الهدية معنى ما أكبر مما تحيط به. حصلت على
الكتوراء وتدرجت في سلم الجامعة من مدرس إلى أستاذ
مساعد ثم أستاذ، في اليوم الذي أطلقت فيه على تقرير
الدرجة العلمية بترقيتها إلى درجة أستاذ عانت إلى البيت وضعت
حالاتها. أخرجت اللقطة المفضلة، فحفظتها، أسكتت الكرسي بين
يديها. تمتلكها شعور طباغ بأن علاقة ما تربط هذه الكرسي
هدية جدها، وكرسي الأستاذية الذي حصلته عيشه. أكت
الكرسي في علاقتها للمعلمي وأمانتها إلى مكانها.

بدأ لها وهي تعانر مكتب رئيس الجامعة في ذلك اليوم من
عام ١٩٧٢ أنها مهددة بالطرود. لم تفرط. هل تقول إنها
محظوظة لاستطاعت الاحتفاظ بموقعها أم تقول إنها لم تتسل
سوى ما تستحق لأنها جنت واجتهدت؟ ولكنك بد تتطلع حوسها
تري أن حكمة من جد وجد، ومن زرع حصد لم تعد سوى

بالرعاية الملهمة لثمة كتيب القراءة الرشيدة لأطفالنا الأول الابتدائي. يكرهون قليلا ليكتشفوا أنها لم تكن سوى خدعة من الخدع المتعددة الذي تجعل بها كتب مدرسية ألفها رجال طيبون أو بسطاء أو محترفون للكتب. كيف زرعت وحصدت دون أن يمسك على رأسها حجر يقتلها أو يتركها معلقة لغيرها شاق. محظوظة، لانسك، لأن هذا الأمر، أقصد سقوط حجر على صبي أو صبية طالعة، كان أن يصبح القادة حتى بدأ من طابع الأمور.

الصغير بحاجة لتدبر من العمياء، يحتاج من يأخذ بيده ويرعاه ويتمهده كأي عود أحضر تهدده هشاشته في التبدى. درس من دورس العمر التقطته وهي صبية يرعاه الآخرون والمزمت به حين تقدم العمر بها فتعين عليها أن ترعى طلابها. بعد أكل من شهرين من لقاءها برئيس الجامعة استكملت خطة مخصصة للبحث وقائمة بالمصادر والمراجع المقترحة، وطلب باسم عميد الكلية لتسجيل الرسالة. قدمت الأوراق إلى أساتذها، قرأها، أشتر عليها،وافق على الإشراف. وقع. في الأسبوع التالي عرض الخطة على مجلس القسم ثم أخذت الأوراق مسارها المعتاد إلى مجلس الكلية لمجلس الجامعة.

تمكنت في البحث ونسيت. بدأ ألفها نسيت. أنجرت الرسالة. لم تنقبه، لا وقت المنقشة ولا لحظة إعلان حصولها على الدرجة العلمية، ولا في السنوات التالية، لم تنقبه لأنها مدونة بمشروع رسالتها لقياتها برئيس الجامعة وربما أيضا للخبوف، خوف دفعها إلى الإسراع في إنجاز العمل وإتقانه لتثبوت

علاقها بالكل. تتأمل شجر الصبية وهي تهبط على الدرج بعد نقاتها برئيس الجامعة غاصبة، يحكمها العناد والرحمة في تأكيد فكرتها برود مخيم بالغ يكثرها ويصغر غريمها، بدأ غريما، 'خاتمة'؟ لم تطرح الصغيرة السؤال على نفسها ولو طرحه أحد عليها لبدأ لها السؤال جافرا وجازحا وغيبا، ولكنها، ترحل شجر الآن، كانت خاتمة.

في سبتمبر ١٩٨١، حين صدر قرار طردها من الجامعة، لم تلزع، لم تستشعر حيلة لكتابة رسائل، لم يكس في القرار ما يهتد بتحويل مجرى حياتها.

في السجن منزع لتأمل مفردات العمر المبعثرة في رحمة المشاغل اليومية. في السجن منزع، لأن الشهوات، والفوضى أيضا، تأخذ وقتها؛ لكل ساعة حيز تقطعه في أثناء، لا تراها عليه الساعة التالية. ساعات رغبة صابرة لا تعرف الركض المحموم ولا رئيس التليفونات المتلاحقة ولا التدافع المضغوط في شوارع المدينة وأتوبيساتها المزدحمة ويقاعاتها المثلثة. تتأمل علاقها بالجامعة، بطلابها، الأولاد والبنات، في قاعة الدرس وأيضا تلك العلاقة الخاصة تبدأ على استحياء، تنقص طريقها، متوجسة؟ ربما، ببطء وتدرجيا تصرب طريقها، تجري فيه، كتهر؟ كتهر أماني، وأحيانا كويهر حوى يجري بلا صعب وبين شق طريقه بنبات. تستمرهم بالوحدة والواحد، البنات والأولاد الذين تعهدتهم بشكل فردى وأشترت على

رسائلهم، معرفة تحتلهم خارج قاعة الدرس، تمتد إلى البيت والحد القعيد حيث تذهب البيت أو الولد مبعوثين للدراسة، تبدأ على جنوبي ذلك المكتب الصغير في قسم التصاريح. للكرة المشتملة، الرغبة المندفعة وراء بحث كبير يضع البحر في زجاجة. تقول 'ولكن...' تهدي العلم قليلا أو كثيرا، الآن خطة البحث. قائمة المراجع، ورشة العمل اليومية وتلقى للمشاكل الصغيرة. ثم الرسالة المطلوبة والرداء الأسود والتصفيق ولحظة الزهر المشترك. قاعة الدرس تختلف؛ تجهل الأسماء غلباء تخلط بين طبقات الفرق الثلاثية والفرقة الرابعة، تحوي أدهم بحرارة طبا منها أنه تخرج قبل سنوات وجاء لزيارة القسم، يشتم الولد، تكتشف أنه في الفرقا الرابعة حذر محليزة اليوم السابق وجاء يستمر عن أسر ماء، العكس أمهات: 'لنت في الفرقا الثلاثية، أنهم كذلك؟' تصحك التبت، 'لا يا دكتور'. تخرجت من ثلاث سنوات ووجدت لرويتك دقائق الأرشيف ثم يستطع الحرج. الأولاد والبيات مرصاة؟ شراع؟ دسبة؟ يوصلية؟ خشب السفينة يطعمو بها ويحميها من الفرق؟ هل تهرب من الشراع إليهم في قاعة الدرس المعلقة على قوائمها للتاريخ لم تقبل عليهم لأن عيوسهم تكذب الواقع في لحظته الكئيبة لكتاب حقيقة أخرى فتصرف أن في الشراع شراع، كامن وغير مرئي الآن، لن يعادنها ظهوره المباحث لأشها رأته ولمسته وجربته في كل يوم وقت أمامهم ومحتهم نصها فمحوها نوسهم؟

كذلك ميلودرامية بالشجر، تفتش الطرف يا شجر، تتشجج يا وهام مخاض بهي وزع جسمه المعجز على صبح مئات من الطلاب؛ تحييم ويحورته جميله لكن ما شل هذا الحب يحلم تلقوه عنهم كجودة ألفتة؟ نوسوا القردة يا شجر، بل بشر من لحم ودم وغير وشر وبعل وغفلة وزمن ويكلمهم فيملسون. لا تملين يا شجر؟ رأيت خليله الأنكى والأبهي يقطع الطريق الشاهقة، يقطعها ركسا وأنت تفتش الطرف، تقولين رتبة؟ هائر، تقولين حالة فرنسية: ولد بدأ واحد، ثم لم يبق بسا واحد. هناك العشرات غيره قابعين على علمهم وشرفهم كجمرة ناره كالبخين وقادريين. وقلعة ملح الأرض ما الذي تقولين فيها؟ كبات والمة من وقائع التاريخ، تاريخها الشخصي في هذه الحالة، منعها إسماء 'ملح الأرض'.

لم يستوقفها الأمر في البداية، بدأ لها التشابه في لوري الإجابة من النوع المعتاد. مذكرات ما يدونها طالب متوسط للقرات، يستسخها زملاؤه يحفظونها عن ظهر قلب، يكتبوها في أوراق الإجابة. تغطي درجة النجاح بالكاد وإن كانت الإجابة صحيحة. تفتش أن المطلوب غير ذلك، البعض يصنكها البعض الآخر يؤثر اتباع مارتيفته مسوات المدرسة وشرات المدرسين؛ لملمة ما خلفه في قاعة الدرس والاحتفاظ به وديمة موقونة بعيدها إليها يوم تطلبها في لامتحنان. صبحت ثلاثين كراسة بجابة، لم تنبيه، استوقفها تكرار جملة

ورنت في مطربين متفاهين. سهر من كاتبتها؟ بعض التكرار في الأوراق الأربع التالية. كيوم؟ أعلنت فحص الكرامات. حالة عش جماعي؟ ورقة ما نقل منها الطلاب بالحرف وتحت ضغط الامتحان، نقلوا حتى جملة مكررة فيها أو خطأ في النحو أو الهجاء. لم يكن العش في لجنة واحدة ولا في سؤال واحد. إن بعض الفلن يلم. تمهد فحص الأوراق. تتبع غيوط الجروسة. يا إلهي، الجروسة؟ لم تفكر وظيفة للشرطي ولا المعبر هل خلفها للطلاب؟ ارتشفت للخطأ. تواجهم؟ كيف تواجهم؟ لم تكن كبرت بعد عندما جاء يوم الاثنين، يوم معاصرتها الأسبوعية لطلاب الفرقة الرابعة.

هل كانت تهدي؟ ربما كانت تنظم لهم حبكات شبيهة بخصمتهم ويلكوسها وإن تخرجت منهم وهم يركضون لركوب الأتوبيس أو الحصول على درس خصوصي أو عمل يفي بواجبهم المعيشية؟ لا تدري ما الذي قلته تفصيلا وكيف قلته، تذكر لها تحدثت عن الجامعة: المشروع، حلم رونها الأرائل والأجويل التي خرجت من معانفهم. جثمان عهد الحكم الجزلحي. طلاب القصر العوني. الإلهة ساعدت التي أحبها وعظمت رسمها فوق مكتبها. الأوراق المتطابقة. كانت تخط الأمور وتنتقل من موضوع لآخر كأنها تهدي. كانت وكأنها لا تلف على محبة الأستاذ، كأنهم أيسوا صغاراً يجلسون على مقاعد المدرس، قالت: أنا خائفة، لريد أن أسمع منكم، لريد أن

أطمئن.

صمت.

تباها بدأ الأولاد والبنات يرفعون أيديهم ويطلبون الكلام. طالبة أوتى: "تقولين أن ما يقرب من ربع أوراق الإجابة تؤكد أن أصحابها نقلوا بجاباتهم عشاً، يسعى أن يقول لك أن النسبة مقربة للقاعدة هي للعش، والملاحظون يقلون طي الأسواب فاصورجية" لكي يبهوا الطلاب بالقرب أستاذ من الأمثلة. طالبة أخرى: "الملاحظون يساعدون طلاب على العش، وقد يطلب من أحدهم أن يحمل 'برشامة' من طالبة إلى زميلة لها في لجنة أخرى". طالب ثالث: "الأسنان صميف بطبمه وحين نجد أن من هم دولنا في المسعوى والجهد يحصلون على درجات أعلى ونجد أن العش هو للقاعدة بعش". أخرى: "الامتحانات بهذا الشكل منذ كنا في المدرسة ولما التحقنا بالجامعة وجدنا نفس الوضع!" وقيل آخر أن البرشام والورق للونسكاب والمذكرات وأحياناً الكتب تستخدم في العش وهو طي. وأخيراً طالب: "قمت بالسلم في هذا الامتحان وفي غيره. سأكون كاتباً لسو قلت لك الآن أني لن أقرب العش بعد ذلك. قد أستطيع الوقوف ضد التيار وقد لا أستطيع المجتمع. ينحنا بلك طريقة، ينحنا كله يوم نلتزم تدريجياً كيف نتحائل عليه. قلت أنك فكرت في ترك الجامعة وأقول لك أنك لو فعلت تجرمين في حقاً جميعاً ليس لأنك حرميناً من فائدة وممتة

درسك ولكن لأن وجودك يعطى لنا قيمة ماء صواء، يؤكد لنا أن النظام لم يعد مطبقا وأن القومى والثراسة والجهل والظلم والفساد وإن لم يستلج أن تفصيل تمسا عنها ليست فى القاتون المطلق للوجود. الإتصال بطبعه يحتاج نجمة ما فى سمائه. قلت لك خلقت صورة ماعت فوق مكتبك وأنت تلمهدة مضبوطة. ألهمتلك الصورة وسعيت فى اتجاهها. لا تفتنى هذه الطلقة يا دكتوراه شجر قد تطلج لنا إليك وأسمى كما سمعت وكعد لا أستطيع ولكن زميل لى قد يستطيع ذلك" صديق له الطلاب. هى كانت تتمسب عركاء، أرأيت أن تقول شكرا ولكن للصوت كان محبوبا فى مكن ماء مقبدا مع النموع حتى الأرجح.

قل أن تذاكر القاعة جامتها طالبة ومدت يدها إليها بوريقة صغيرة مطبوعة قلت هذه هى "البرشامة" التى نقلنا عنها إجابة السؤال الأول، إنها مكتوبة على الكمبيوتر ومصحورة وهناك محل متخصص فى إصدار هذا النوع من البرشام، فى مختلف التخصصات.

لماذا وجدت نفسها بعد أن غادرت قاعة الدرس تغنى طلابها من المسؤولية، هل أغتتهم من المسؤولية؟ هل تعبهم إلى حد التواطؤ على طريقة الأمهات، يصورون لأنفسهن أن الآخرين، دائما الآخرون يقومون بإفساد أولادهم؟ هل كان الموقف كله ميؤودا كمشهد عطلى فى هيلم روى؟ يعود الولد لحاق، يبكى على صدر أمه، تصفح عنه فتكون النهاية السعيدة؟! لماذا

وبانتها الفش فى كس مرة كانتها لا تعرف أنه صار القاعدة؟ لا ليس قاعدة بعد، لكن امر عدوى ودارج وغير مستنكر كأنه قاعدة، هى المدارس الابتدائية والاعدادية والثتوية، فى المعاهد والجامعات. هل نطبن أن الفساد يطول كل شىء الا قاعة درسها وطلابها. هل أصاب الفساد طبع الأرض؟

جئت إلى مكتبها وكتبت مذكرة إلى المعهد تشرح فيها ما حدث. قلت بن الفش ثابت ولا يقبل أى شك فى ١٢٦ ورقة إجابة وهى تمثل ٧٨% من مجموع أوراق الإجابة. طالبت بإلغاء الامتحان وإجراء تحقيق.

معركة جديدة، خاسرة كالمعاداة رفض المعهد إعادة الامتحان أو إجراء تحقيق رسمى. رد على مذكرةها برسالة نفسى فيها والفة للفش، أكد أن الملاحظة فى الامتحانات دقيقة وأن سير الامتحانات فى الكلية نموذج للتصباط. وأسمى رسائله بلوم ميعطن. ليس ميعطنا، لوم واضع كالمشمن؛ قال المشكلة فى أن الأسئلة يضعون أسئلة متوقفة وأن الطلاب يحفظون مذكرات الأساتذة عن ظهر قلب مما يشجب فى تشبه الإجابات. باختصار تقول الرسالة إنها مخطئة ومقصرة وواهمة وأن كل شىء على ما يرام. ثمة عمن فى ذاتمبارك! يا إلهى هل يتعين عليها أن تعيش تجربة لغتى هائلات وهى فى الضمين. أى هائلات وأى بطون، لى تصادر المبرج وأجساد الأبطال مبتنة على الحشة فى نهاية المباراة المأسوية. إنهم

وكريم؟

لم تشهد ولادته، لم تحمله بين يديها في أنابيبه الأولى، لم تساعد أمه في تمييز أقمطته المبتلة وعسل مؤخرته أو تحميمه وتجفيفه ورش جسمه بالبودرة الناعمة. ركب معها للصعيد وشب على أطراف أصابعه وهو يسألها عن الطابق الذي نقيصه:

- الخامس وأنت؟

- الخامس برطسسه؟

- عندك كام سعة؟

فتح كله وفرد أصابعه كالمروحة ثم ثنى الإبهام

- يعني أربعة

- عارف، بس ما حبش الكلام الكثير، لما الوعد بتكلم كثير ممكن يخلط، وممكن يزحج الناس وممكن ...

وصل التصعيد إلى الطابق الخامس، سألت وهي تخرج المفتاح من حقيبتها

- ماما وبابا طالعين ورك؟

- لا، هم في البيت؟

- أنت ساكن هنا؟

- أبوه، انت مساكنة هنا؟

- ليه

- يبقى احنا جيران والإنسان المحترم لازم يكون لطيف مع الجيران؛ لما يشوفهم يقول لهم صباح الخير، ولما يمرضوا يسأل عليهم، ولما يكون عنده أكل لذيذ يقدم لهم منه دقيقة واحدة.

انطلق إلى شقته، دق الباب باستعجال ووقفت تنتظر. عاد يحمل صحنًا عليه قطعة حلوى.

- أبارح كان عيد ميلادى

- كل سنة والسب طيب، ممكن تفصل عدى عشان ليهك هدية عيد ميلادك؟

- ممكن أورك بعد ما أسأل ماما، لكن مثل ممكن تدينى هدية لأن عيد ميلادى كان أبارح، معنى خلص. لازم تسلكي السنة الجاية ولو كنت نسيته بتحبيسى - لال الواحد يدى هدية لللى بيحبه بس، اللي ما يحبوش مش لازم أبدا يديله هدية - للسنة الجاية تقولى: كل سنة وأنت طيب يا كريم وتديلى هدية. أنا أقول شكرًا. ممكن الهدية تكون وردة، ممكن لمبة، ممكن قلم، ممكن بومبة.

- بتسحكي ليه؟

- لآنك ولد ذكى ولطيف. ممكن أسألك سؤال: أنت قلت الواحد يدي هدية لللى بيحبه. ولت انتى هدية من غير ما تعرف بعض...

- قوت إيك لطومة، لو بعد كده طلعتى شريفة حابطة لأجيك

وأفضل أدبلك هندوسة. زى الأكلام واحد شكته طوب أجه وبندوس
يظهر انه شرير خلاص صاحبوش
- ممكن تسأل ماما وتوجى تروزي؟
- حاشاها بس ممكن أصرف اسك؟
- شجر
- شجر؟ ده اسم حلو خالص
- وكريم كان اسم جميل
- لا
- ليه؟
- لأنه فى فى الحصانة خمسة إسمهم كريم. المدرسة تقول
اسكت يا كريم. وأنا ساكت أو تقول كريم ما بهرغش يرسم
أنا بأعرف أرسم ورسمي جميل. وهى بتتكلم على كريم على
أحمد أو على كريم بيهل تانرس أو كوكو، أصل كوكو برحبه
إسمه كريم. لو إسمي أخضر، مثلاً، يعنى مثلاً، اسكت يا
أخضر باكون أنا اللي بتكلم. تقول أخضر أعذ صفر بكون أنا
اللى ما كتبتش الواجب! أخضر ممتاز يعنى أنا الممتاز. يبقى
كل شيء واضح. صبح.
- صباح! أنا أخضر إسم هريپ!
- أنا لست لمانسا ليه ما سميتوش عهد المقصود، ملش ولا ولد
فى القمصان اسمه عهد المقصود؟! لكن أخضر أحسن من عهد
المقصود. وأنا بأحب اللون الأخضر وحافظك على الرسم

بتاعى وكمال فى مرة حلمت انى اشتريت جزمة خضرة وقيل
لعمرك قلت أنا عاود جزمة خضرة ماتقياش وأنا عيطت، عيطت
كتير، وبندوس بابا اشترالى حلقة ألوان كبيرة وأنا رسمت ولد
لايس جزمة خضرة. ماما وبابا ضحكوا وقالوا إن للجزمة
كبيرة قد راس الولد ثلاث مرات يعنى أنا مش حازورك
دلوقت لأن ماما حاقول ده وقت عدا وزاحلة، الساعة ستة
أحسن، مائسى؟

يقصر الحبال، حتى المقول المنتبهة المشهود لها بالذكاء
تقوتها أحياناً أكثر الأشياء بديهية. لم تمر الفكرة ولا طويع
الفكرة بخاطرها طوال ثلاثة أشهر من الأسبوع الأول من
سبتمبر إلى أن أخرج عنها. عادت إلى بيتها، ضلّت وجهها
وبذلت ملابسها ونقلت باب كريم. استقبلتها أمه، نادت عليه، لم
يجب. دخلت لثنايه، عادت بذويه، قالت إنه مائم. لتظرفه فى
بيتها. لم يأت. ذهبت هى إليه. نادت عليه. لم يجب. نظلت
الفرقة. كان جالسا إلى مكتبه. لم يلتفت.
- انت مش حاوز تسلم على ليه؟

لم يجب.

- مش لانا صحاب، ليه مش يتلم علينا؟

- مش حاوز أسلم عليك!

- ليه؟

- كده، أنا حر!

انقربت من المكتب فأزاح المقعد بعيدا وصعدت عتبة الشيكولاتة التي أتت بها. كانت محققة في ورقة لائحة ومربوطة بشريط دقيق أبيض.

- لو سمحت تأخذي الهدية لأخي مش عاوزها -
ليه؟

لم يجب، قام وترك الغرفة. سألت أنه إن كانت أخبرته أنها كانت في السجن. قالت باستكبار: "طبعا لا، قالت له أنك كنت ممسورة!"

فهمت. هذا الأمر أسهل ثم هذا أصعب.

وقفت تنتظره بباب البيت. رأسه وهو يارل من سيارة المدرسة. دخل المسارة دون أن يتوقف لتحيتها تبعته في اتجاه المصعد وركبت معه. قالت الكلمات التي أخذتها طوال الليلة السابقة: أنا كنت في السجن، ما كنتش مسافرة، وفي السجن ممنوع إنى أتكلم في التليفون أو أكتب جرائد. لو كان ممنوع كنت حاصلة بيك وأعرفك و... سويت بقية ما أعدته من كلام. وصل المصعد إلى الطابق الخامس، خرج وظللت واقفة مكانها حتى سمعت الأبواب يصيح: "إقبل لأبني" لتبتهت. أغلقت باب المصعد واتجهت إلى شقتها.

لم تنتظر طويلا. بعد الظهور دق الباب. سأل وهو يتكلم بالهاسب:

- ممكن أبيعك ليه كنت في السجن؟

كان في السابعة من مساءه كان عليها أن تجيب على سؤاله.

هل كانت إجابتها- لم تعطه سوى إجابة مبسطة ومجرومة- بدنية لتتأهه للظلم. ترتمش للحظيرة وكأفها أوتت بالولد إلى التهلكة. تسرع من رعشتها وفكرتها، ترد عليها بصوت عال كالمجائين: ما المطلوب، أن نحصى المصير بأى ثمن حتى لو أغلينا عنهم الحقائق؟ كنت بلهاء يا شجر المسندك الوظيفة، غيبته، تتصورين نفسك مصير للمزارع، كلى الحياة أيسرت سوى امتحان ليله بعيد لك كلامك كجواب الصوت. للحقائق ملقاة أميهم على قارعة الطريق، تطعن البعوض، تلفجر فوهم كالأنعام، تقتلهم أو تشوهمهم، والبعوض الأكثر الأكثر حطبا (لأن أهله يملكون تعليمه وإطعامه وتسكينه وتوظيفه) يملك أن يفض الطرف عنها. هل يفضون الطرف عن الأعلام حقا أم يعتبرونها من مستندات الواقع؟ الواقع يتطلب منهم الإسهام في تصنيفها وررعاها، فما دامت المعادلة أن تكون قتلا أو مقتولا، فلتحفظ برأسك وتعيش، كالمثوك إن أمكن. هذا ما قاله خليل. وكريم قاتل أم مقتول؟

النسل الثاني عشر

في ١٧ نوفمبر ١٩٧٧ سافر المئات إلى إسرائيل، في اليوم الثاني، صباح يوم العيد، جاء خمسة من رجال الأمن إلى بيتنا وأخذوا مزيد لأرجلهم من مصر.

بعد شهرين، سافرت للقاء مزيد في بيت شقيقه في الدوحة. صورة تميم في جوارز سفره الأول: مدور الوجه، لا يشتم، يبدو قلقا أو مترعجا. في الراويين السلطتين للصورة تبدو يدان تساعدان الولد الخاضع على الجلوس منتصبا. كل ابن سبعة أشهر أو ربما ثقل قليلا بإمكانه الجلوس، على الأرجح، ربما حشيت من سقوطه من على مقعد المصور فرفصت وراءه وسلكته يدي. أرسلت الصورة إلى مزيد ليستخرج له جوارز من منزل يمكنني من اصطحابه إلى الدوحة في أجازة نصف السنة.

ميدان التحرير. مبنى المجمع. امرأة في الثلاثين تصعد المصعد ومط جمهرة المصاعدين والهابطين. تسأل. تلف في صف طويل. تقرب كترعينا من القمصان الحديثة للشباب. تصل

تمد يدها للموظفة الجليلة وراهم بجوازى سفر. جوازها :
أخضر يحمل شعار النسر تطوء عبارة جمهورية مصر العربية
مكتوبة بالعربية وبالفرنسية، وجواز خصرته الفتح يحمل نقش
تاج تطوء عبارة المملكة الأردنية الهاشمية بالعربية
والإنجليزية، ونسخة مصورة من جواز سفر ثالث. تمد
الموظفة الأوراق والجوازين للمرأة. حينها أن تكتب، فضلاً عن
طلب الإقامة، طلباً لفر. إلى المكتب رقم كذا" كتلت الموظفة.
أشترت المرأة ورقاً أبيض وطوابع نسخة. توجهت للمكتب رقم
كدا. "المطلوب" كتابة إقرار بكافة الطفل والتمهيد بإعتابه. لا
بد من كتابة إقرار. المرأة لا ترى الورقة. المرأة لا تقمرف
على التصرف. المرأة تخطئ في هجاء الكلمات، تترك الورقة.
تبدأ من جديد. تخطئ في كتابة اسمها. ورقة جديدة. تخطئ في
كتابة التاريخ. تعيد الطلب لتسرة الزبنة. أخيراً كتبت الإقرار.
غشه للموظف، مكتب ثالث، يسأل الموظف:

تاريخ الوصول إلى مصر؟

- وصول من ؟

- وصول فينك.

- صر ستة أشهر. ولد في مصر ولم يفرها.

- تاريخ أخر وصول لوالده؟

يبحث في الأوراق المصورة.

- وجدته: ٧٧/ ٥/ ١٧، للعمول على الإقامة لأبد من تسجيل

تاريخ لفر وصول.

- ولكن إلى مولود بعد هذا التاريخ بشهر!

- لا يهم!

سجل التاريخ طوى الجواز والإقامة لمدة عام. حملت امرأة
الجواز إلى موظفة كتبت: "البيانات صحيحة" ووقعت. موظف
أخير طبع خاتمين: خاتم صغير وخاتم النسر يحمل اسم مصلحة
وشاق السفر والهجرة الجنسية مضافاً إليها؛ وحدة تسجيل
الأجانب.

بإسكفا الآن أن تصطحب نيلها لزيارة أبيه. وضعت المرأة
الأوراق في حقبتها وضمت.

يونيو ٧٧ قبل ترحيل مزيد بخمسة أشهر، بعد ثلاثة أيام
من ولادة تميم. صورة فوتوغرافية. تميم: أحمله ملففاً في
الأكفطة البيضاء، أحيطه بكتفا لراعى. لا يبدو منه سوى
شعره الأسود يعطى جزءاً من جبينه. عيناه مقلتان. التويل
وانصح ورائى يملأ خلفية الصورة. أسلمى المستشفى السدى
مبارته قبل دقائق، لا يظهر في الصورة. نفس الشارع الذى
ولدت فيه قبل واحد وثلاثين سنة. يمتد بطول الشاطئ الجنوبي
لجزيرة منهل الروضة من المباني الخلفية لتقصر العننى إلى
قصى الطرف الشمالي للجزيرة إلى مقاييس الروضة إلى القصى
طرفها الغربى ماراً بكوبرى الجامعة وكوبرى جيل. ولادة
صورة دلت لرائى. جاء تميم، ذهب مزيد لتسجيل شهادة

ميلاده. عاد. بدأ مدهشاً ومربكاً. قال وهو يجلس بجوار سريري في المستشفى: 'أعطيت البركات للموظف، وعقد الزواج وورقة المستشفى. وبنته إن الأم مصرية' قال الموظف: 'سأسجل في الشهادة إسم الأم وبنيتها ولكن لا معنى لهذا على الإطلاق. أن تكون الأم مصرية أو إنجليزية أو برتغالية لا يهمنا في شيء، المهم الأب!'

فلقينا بمزيد في الفوحة وفي يوداهيست وفي عتال، في تعطلات الميرية وعطلات نصف السنة، والتقيت به في الجزائر والإمارات والمغرب في فعاليات ثقافية دعينا معا للمشاركة فيها.

بعد سبع سنوات من الترحيل سوف يتكس مزيد من العودة إلى بيتنا في القاهرة ليس للإقامة معنا بل لزيارتنا زيارات قصيرة تحكمها في كل مرة مواقف مسبقة من الجهات الأمنية عند وصوله إلى مطار القاهرة يفتتح ضابط المطار جواز سفره ويؤشر عليه بعبارة 'السبوع لإيجد' أو 'السبوع لقط'، نستهله في المطار. نودعه في المطار. ننتظر أن يذهب إليه في عطلة الصيفية أو نقدم طلباً جديداً قد يوقعون عليه فيرونا مرة أخرى، دامت بنا هذه الحال عشر سنوات أخرى.

في يناير ١٩٩٥ سمح لمزيد بالإقامة في معمر. عاد إلى البيت رقم ٦ شارع راسر بالمهندسين، نفس البيت الذي غادره مرحلاً قبل صبعة عشر طناً. كبرنا، صرنا في الخمسين، أنشأ

مزيد قبل عام وكنت أمها في العام التالي. تميم أيضاً كبير، أصبح في الصف الثالث الثانوي يستعد لامتحان الثانوية العامة. بعد شهر سيصطحبه أبوه إلى لجنة الامتحان ثم يذهب إليه بعد ساعت ليصطحبه إلى البيت.

اجتاز تميم الامتحان وحصل على ٩١,٦%. أعلن عن فتح المرحلة الأولى بمكتب التنسيق. ذهب مع زملائه. وقف في الصف، لشترى الاستثمارات. عاد ظافراً إلى البيت. بعد يومين تصبح أن الاستثمارات التي اشترأها لا تفعله. للوالدين تنسيق خاص. أين؟ في منشأة الكبرى في مواجهة بيت عبد أناصر. ذهبنا، للشروط المفصلة مكتوبة بخط واضح على ورق مقوى مطبق بهاب المكتب. اشترينا الاستثمارات الصحيحة، جالسين طالب والده، أمه مصرية، درس المراحل التعليمية الثلاث في المدارس المصرية. المطلوب؟ فضلاً عن استثمارات التنسيق، عقد زواج الولدين، بطاقة الأم أو جواز سفرها، شهادة من جهة العمل إن كانت هائلة، شهادات الإبتدائية والإعدادية والثتوية العامة، قدامها. أرفقا خطاباً من جامعة عين شمس يفيد بأن الذكورة رموى عاشور أستاذ ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب.

ظهرت نتيجة التنسيق: قبل تميم في الكلية التي أراد الالتحاق بها في جامعة القاهرة بدأت الدراسة في أواخر شهر تسعة، شهر أكتوبر: تسأل في الكلية عن الأوراق. لم تصل. نوفمبر:

لم تحصل. أخيراً ديسمبر: وصلت. بفترة شئون الطلاب: قامت
الموظفة المحببة من وراء مكتبها، أخرجت عددا من الملفات.
استفدت منها واحدا، ملفه تميم.

- والد؟

- له مصرية.

- أوائل والأ مطلقات؟

كررت بصوت أحد

- أوائل والأ مطلقات؟

- من فائمة

صرخت في

- سوانك أرملة؟

- لا

- مطلقة؟

- لا

- يعني الولد والدة، أجنبي. مايش معنى الأم المصرية.

انفلتت نفسها صرعا:

- قرار المجلس الأعلى للجامعات الصادر في شهر مايو
الماضي يقضي بمعاملة أبناء المصريين من الطلاب نفس
معاملة الطلاب المصريين.

- ما وصلكش قرار سن هذا النوع؟

✓ ثلغ ضريح سعد، الإدارة العامة للوقف، تمررت على

أحد كبار الموظفين، فلن انه حمير لسي مائنة دكتوراه. طلب
لي قهوة، أعطاني صورة من قرار المجلس الأعلى. قال أعقد
أنهم تراجعوا عن القرار دون إثبات ذلك في الأوراق واستبدلوا
به إعفاء أبناء المصريين الذين يقومون في مصر من تسعين
في المائة من المصروفات بشرط تقديم بيان حالة، 'يصلى'
'يعنى شهادة مفادها أن الوضع المادي للأسرة لا يسمح بدفع
المصروفات'^١

في هذه السنوات المتعلقة بين الكوارث العاصي والعاصي حسنا
كميرنا من البشر. لم تغل حياتنا من مهاج، صغيرة أوكبيرة،
فالحيات تحي نفسها في نهاية المطاف، بعد أيام قليلة من مجازر
صبرا وشاتيلا مسوف يذهب تميم إلى يومه الأول في المدرسة،
مدرسة الحرية بالجزيرة. يرتدى قميصا أبيضا وبنطالا رماديا
وربطة حلق حمراء داكنة. أتأمله بمنى وحسن أبيه فأعش
فوحا مزوجا وكاملا ومطلقا. لم يكن الذهاب المنتظم كل
صباح إلى مكان به أطفال ومعلمات ومشرقات جديدة على
تميم، كان صره عاما ونصف حين أنقله بفضة 'ماني
تومي'، حضنة خالصة في بودابست، ولطبخ على الذهاب إليها
من يناير حتى أغسطس ١٩٧٩. في سبتمبر رفضت الجامعة
الموافقة على طلبى بتدوين إجازتى لمرافقة الزوج. حسنا إلى
مصر. دخل تميم حضنة أخرى في القاهرة. في نهاية العام
الدراسي رجلا إلى بودابست. ألقاه حضنة جديدة يقول

يسمى باعتقاد: "بودائشي هاريتيا جيار أوفودا" (حصانة مصنع جوارب بودايت). انتظم في هذه الحظيرة عامين متصلين. يأخذ ريو في ثلاثة صباحا ويأتي به في الرابعة مساء فيدخل البيت بحصوله من الحكايات أو أغنية أو وردة يقدمها لي أو ثمار الجوز في جيوبه. ينتهي دائما من الشرفة، يفرغ، يخرج غنومته، يطلع حذاءه، يمسك بإحدى اللدتين يكثر بها حيث الجوز. أحاول أن ألتصقه، يقول بحمى إن الجوز يكسر هكذا، هكذا يفعل كل الصغار في الحظيرة كم كان صره حين كان لي: "الحقيقة زى البندقة لازم التواحد يتعب لأخيه ما يلقاها؟" لم أفهم من أين أتته هذه الفكرة إلا عندما دخل البيت يحمل تلك اللقائات الشوكية: "ما هذا يا تميم؟" "بلندق" ظننته مزح: "هين البندق؟" "منخفي جوا لازم لأخيه".

سوف نخرج أيام العطلة إلى تلال بودا، هابت من أشجار البسوط والسرو والصور والكستناء والجوز وأشجار أخرى لا نجد من يفتنا على أسمائها. نركض ونقفز ونلعب بالفكرة ثم نجلس على حصيرتنا نتناول ما حملناه معنا من الطعام. أو نذهب إلى مطعم الفول في تلك القرية المجاورة. نأكل على الحساء. يقدمونه لنا في قصعة فيها ما يكفي عشرة أشخاص. يتعجل تميم الانتهاء من وجبته لأنه يعتمد الفول يريد إبطائها أو ليمسها لومتابعة ركبها. في هذا المطعم في صيف ١٩٨٤، حصل تميم، وكان في السابعة، على البيضة التي أرادها. كنا

نتناول غذائنا حين سر قروى ينادى على بصانته: "بيضة تجلب لصاحبها الحظ". في يد الرجل بيضة طريها حذوة منمعة مثبتة بمسامير دقيقة. "أريد واحدة؟" دفع مزيد ثمن البيضة. مد تميم يده ليمسك بها. هاتف: "أهذا بقي طدى حظ، حايسمحو، نأبأ يرجع مصرا" دارينا نأرنا بالحديث عن البيضة. قلنا إنها جميلة ومدهشة. قلنا أنظر يا تميم كيف مسحها الرجل: قلبها هذا القرب اللقيق، نأرغ ما في داخلها ثم أجت الحذوة بالمسامير دون أن تنكسر، كيف؟" لم يمس أي مما قاله تميم ذلك اليوم وعندما سمع لمزيد بالدخول إلى مصر بعد شهرين اكتسبت البيضة مكانة ليس لأشياء أنا ومزيد على الأقل، صلتنا أنها جلبت الحظ لتمام ولنا بل نجرد أن تميم قال ما قاله وتحققت الأمنية.

تدخل الفوط، كلها تتدخل. حتى أيام المستشفى لم تغفل من فرح ناعم وعيق. المستشفى القريب في أول أسبوعين، المستشفى الآخر اليميد في الأسابيع الثلاثة التالية. مصحة لأمراس الصدرية كل ما فيها كنوب يزيد من وطأة المرض. لا يرافقي في جرتي سوى القديح الرومي الصنع، شتره لي مزيد خصيصا لانتق بث الإذاعة المصرية ومتابعة أخبار حلة سبتمبر ١٩٨١. مزيد يأخذ تميم إلى الحضانة في الثانية صباحا. يأتي تريارتي. معنسى كهوتنا. يذهب إلى عمله. في الثالثة يمار مكتبه. يذهب إلى الحضانة ليأتي بتميم. في الرابعة

ليبدأ في الانتظار. يميلان في الراحات والربع أو بعدها بقليل.
عبر التفتحة أرى للسيارة اللامعة البيضاء. مرصد في مقعد القيادة،
تتم في المقعد الخلفي. تبطن السيارة. تتوقف. يتزلزل. تحول
عيني إلى الباب.

في القاهرة كان تميم يأتي لزيارتي وأنا أركب في مستشفى
بدوان وبعدها في مستشفى مجدى. يرويه أن ينام في سريرى.
كان في الثالثة. صار الآن في الرابعة لا يشغل السرير بل
المرصة المعدلة التي تجرها للمرضى محملة بوجبات عشاء
المرضى. تضع للصوبة بجوارى يواصل عمله؛ يمكن يا
مما أكل معك؟ انتهى وقت الزيارة. ينادون. أراها مما
عبر النافذة يلتفتان ويلوحان. تحملهما السيارة وتبعد.
أرى المشهد كاملاً عبر النافذة وزهرة جرييرا برتقالية في مزهية
من فخر جاء بهما مرصد (الزهرة هشت أسبوعاً كاملاً
والزهرة نقلت معنا من المستشفى إلى بيتا في بودابست ثم
إلى بيت شارع راسز والآن معنا في هذا البيت). لم يكن مجرد
حزن ولا أسى بل حياة مثقلة بغرور متشابكة شوكية بداخلها
حبات البندق. صديقتى فى السجن: لطيفة وأمية وعاطف
وفريدة وشاهده ومالي لاز، والعديد من معارفى، وشكرات
من التبادلات السياسية والثقافية فى مصر. المعتقلون المسترف
بهم رسمياً ألف وخمسمائة لم يرد بينهم يسمى وإن ورد فى
قائمة الأسكنة لمطرودين من الجامعة الأومناخ فى مصر لها

وطأة أحد من تلك الألام التي تمتد من ظهري إلى كتفى
الأيسر وعنق بعد كل مرة يضعون الإبرة فى الرقبة لمحب ما
لها من ماء. لكن الحياة، أكر، تحمى نفسها. فى المستشفى
فى سبتمبر ٨١ وأنا مصابة بفسكاب بالورى فى رتقى اليمنى
كان مرصد وتمام يأتان كل يوم ويبدو أنى أتمثل للشفاء فيسمع
لى الطبيب بقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى البيت. مساء
للجمعة أعود إلى البيت. باكراً صباح الاثنين يمدنى مرصد
للمستشفى. وأحياناً، حين أتمكن ويسمح لى الطبيب، أمشى فى
حديقة المصحة. أتمثل لشجار الكروك والكمقاه، أتمرف على
جدوعها ولورالها وتمارها. يبدو لى الوجود أيضاً ومتناً، رغم
كل شيء.

تميم يحب المطارات والسفر، يقول ذلك فأعطى ما يقوله
أحياناً وأحياناً لمكت. ركب الطائرة لأول مرة وعصره سبعة
شهور. رافقتا فى رحلتنا إلى الفوحة والدة مرصد. كانت الرحلة
ممتدة على غير رحلتنا إلى بودابست فى سبتمبر التالى.
الإجراءات الأمنية فى المطار مشددة. قبل أيام عقدت لقاء
كاتب ديفيد الأولى. قال موظف الأمن: غير مسموح للركاب
حمل أية حقائب فى كابينة الركاب. يبدى حفيظة صغيرة بها
غير الولد وعطاء صوفى صغير وعطيفة خضراء وزجاجة
للزخا، ألهمته.

- ممنوع الخلط معاً بيتاً

- والعلة؟

- بسيطة، أمسيكهم في يدك.

- كيف؟

- في كيس فانيون.

كان على أن أنتظر المرور بصائط الجوازات قبل الوصول إلى السوق الحرة حيث أكلهم الفانيون.

حشرت عتبة الحليب وغبار تميم في حقيبة اليد، علقها على كتفي، حملت تميم وزجاجة الحليب في يد وجوازتي المسافر والتذكر في اليد الأخرى. اتجهت إلى صائط الجوازات، سددت يدي بالأوراق، المسلت زجاجة الحليب. سقطت على الأرض، انكسرت، نشهور طويلة لن يصل تميم من تريد حكاية انكسار زجاجة الحليب. كل صرة عسا وثلاثة أشهر ويصدر على تكوين جمل موفدة.

لم يكن أتم السادسة من صرة حين ركب الطائرة وهذه، ودعته بهنوه، لن ألقى به قبل شهرين يمين على أيهما تصحيح أوراق طلابي وإنهاء أعمال الامتحانات، كتبت له بطاقة المفردة، ورنيت له حبيبته، قبلته: "سلم على بابا" لوّح لي. مشي مبتعدا، استدار، لوّح لي مرة أخرى وهو يبتسم كأن فرحنا.

لم أكن أعتني للطائرات، صرت أخشاها، الشيوخوخة؟ (مع الشيوخوخة يتشبث البشر بحياتهم أكثر وهذا مطلقى رغم

للمعارفة نظاهرة: ليست الشيوخوخة في أحد تمريلاتها حيالة مهددة بالرحيل) الأرجح أنها الشيوخوخة، أقول لنصلي لمقاومة تطير يوموس بأن الطائرة منقش. هل هو نوعي بأن طائرة ماء غدا أو بعد غد، مستعمل تميم إلى بلد ما يكون فيها غريبا لأنه فلسطيني فتحمله طائرة أخرى ثم تتولد الطائرات لترسم في حركتها المعلقة في الفضاء خريطة مؤرية؟ أليس هذا قتلون الثقات الذي حكم كل من عرفت من أمهات للفلسطينيين، حكم أم مريد وأولادها الأربعة؟ أم أن السبب هو تراكم مصروف لم أسمح لها أبدا أن تميز عن نفسها في حبه فتستع منى بهضور مضاعف: تلك الساعة التي أنتظرها في المطار، أنتظر بهنوه كأنني لست معلقة على جبل غريب بيد صائط يسمح لمزيد بدخول البلد أو لا يسمح، ومخاوف استجنت ما ين بلغ تميم الرابعة عشرة من صرة فيوهونه لبعض الوقت لبعض القوائم والتأكد، ونكون سويا عاتين من السفر فأقدم الجوازين معا، يختتم الضابط جوازى ويقول لتهم لتتطر، أنتظر معه، يقول الضابط: "تفلسي حصرتك" يصوغ الأمر بلطف ويكون على أن أمثل قاصر لأغف في جانب من المرور وتميم في الجانب الآخر، نتنظر.

أماي الآن على المكتب أربعة عشر جواز سفر قدوم لى ولزيد ولتوم، كلها تحمل خاتم "منى". أحملها في يدي فأبني كموظفي شركات السياحة في المطار يستقبلون مجموعة

سيادية وجمعهم جواركها لإنهاء الإجراءات.

أنشأ إيمانكا في يودايسيت تكررت زيارتنا لفيينا والمصاهرة بين
العاصمتين لا تتجاوز ٢٦٠ كيلو تقطعها السيارة في ثلاث
ساعات، نذهب إلى فيينا لقضاء عطلة قصيرة، للملاح أحياناً،
لللقاء أصدقائه... إلخ. الأردن لم تعد تجدد جوازات مواطنيها
المرتبطين بمنظمة التحرير. لم تجدد جوازات مُريد يحصل جواز
سفر جزائري منحه له الجزائر. الإسم على الجواز مُريد
البرغوشي، الوظيفة شاعر. مكان الميلاد: دير حسنة، الجزائر!
أعمل جواز سفر مصري. ولأن المرأة في المشروع تتبع زوجها
فقد سجلت مصلحة الجوازات المصرية، من باب الصعف
الإيماني، تحت ملحوظات: زوجة موكاف عبد الرزاق البرغوشي،
أودنى الجنسية. وموكاف هو اسم مُريد التي سجله مختار القرية
عام ١٩٤٤ لآل القبلة عندما ذهبت إليه لتخبره أن عبد الرزاق
وسكنة أتاهما ولدت سألها عن الإسم تلعلعت، قالت إنه إسم
غريب. حاولت تذكره. لم تذكر. حل لها المختار المشكلة: قال
أفوه صيف، بسميه نوكاف. سجل المختار ميلاد الطفل وحصل
الشهادة إلى ولده، أخذها منه. شكرته. حفظتها بعيداً عن
ليدى الأولاد حتى اليوم الذي عاد فيه مُريد من المدرسة
كان في الحادية عشرة- وأخبرها أن المديبر يطلب شهادة
الميلاد لأنها ضرورية قبل دخول المنزل لشهادة الأبدان-
ساحتها لحظت اكتشف مُريد إسمه الآخر. القبلة والمختار اللذان

لم اتفق بهما حدداً الإسم المعجل في جواز سفرى وجواز سفر
تقوم. احتلال الصهاينة للجزء الأكبر من فلسطين أدى إلى ضم
الضفة الغربية لسائر الأردن إلى الضفة الشرقية فشنّت المملكة
الأردنية الهاشمية وصال مُريد ومن بعده تميم أردنيين. رفض
الأردن تجديد جوازات سفر الفلسطينيين أدى إلى أن يحصل
مُريد جوازاً جزائرياً يحدد مكان الميلاد بدير حسنة الجزائر،
رغم أنه على قدر علمي لا توجد قرية في الجزائر بهذا الإسم.
لكن بحرية الفرد مزايهاها وهي أوروبا الملكات المفتوحة لم يكن
ضابط الجوازات النمساوي على نقطة الحدود بين المجر
والنمسا ليتوقف طويلاً. حالة عذرية: شخص جزائري يصادق
امرأة مصرية له طفل من زيجة أو علاقة سابقة بشخص
أردني. ربما يستوفيه تكرار إسم برغوشي. لا يستفسر، يحشى
أن بينو جاهلاً قد يكون الإسم شائعاً كاسم محمد بين العرب أو
يان بين المسيحيين! وإلى عقدها الضابط وواجهتاً مشكلة يصبح
كبر القس المشعل: جئت على نفسها ما دام ذهبنا إلى فيينا نعرف
كل بنينا الذي تكفى عنه. أما أن يأتي مُريد تلقاء زوجته وأبيه
والإقامة ليما معدودة في بيته فلا نعرف هذا ولا يراقش. نذهب
لاستقباله في مطار القاهرة، سنظر في العمر الكتيب لكي نسمع
عن قرب الخارجين من قاعة الوصول. سنظر ساعة أو
ساعتين فيبدو ذلك محتثلاً ربما لأننا تعودنا وأيضاً لأن العبرة
بالتهايل، أقصد السماح لمُريد بالدخول.

عام ١٩٨٦ لتنتظروا عشر ساعات من الوحدة بعد منتصف الليل حتى الحادية عشرة صباحاً، غادرت المطار في الرابعة والنصف فجراً بدون مزيد. سبب: تأشيرة السفارة المصرية لا تعني شيئاً، لا بد من الموافقة المعتادة للاطوار على (قسم المصطفيين بمباحث أمن الدولة)، هذا إلى البيت، ثمهم بكرر:

- جامل يه يا ماما؟

- الصباح رياح يا ثمهم.

يدخل مزيره ينادي على:

- ماما، تشتكري بابا حيدخل؟

- لوه يا ثمهم، الصباح إن شاء الله يدخل

- متأكد؟

لا لبيب، بكرر:

- متأكد؟

- نام يا حبيبى

أنفج. أفكر: أبدأ بالاتصال بمن ومتى. كيف أصالح تيمى عن لجنة الامتحان الشفهي لطالب السنة الرابعة المقرر عقده في الكلية صباح الأحد. أطلع إلى الساعة: الساعة: فى الثامنة صباحاً اتصل بأحد العاملين بمكتب المنظمة. وتحسنى على عدم الاتصال بالمكتب قبل وصول مزيد لعمل اللازم (لم يحدث أن نجأت إلى المكتب لتسهيل دخول مزيد سوى مرة واحدة لم يأتى فيها جواب، تجاهلاً أو إهمالاً أو عجزاً، الله أعلم!) اتصل

بصديق لنا. يعد بحل المشكلة: "بعلنى عشر دقائق فأعود الاتصال بك". اتصل برئيسة القسم: "وضع طائر لوجسو أن تحل إحدى ميلكى مكانى إلى لى أتى". يتصل الصديق بى كما وعد. يتصل مرة أخرى، وأخيراً: "بعد نصف ساعة سيكون مزيد فى طريقه إلى البيت، لا تدهسى إلى المطار". فى الحادية عشرة يصل مزيد إلى البيت. أعد القهوة، شربها معاً. أهدر على عجل إلى الكلية. أقول لثمهم وأنا أصعبك: "كرمة أخرى للانفراد بأكبك؟"

فى عام ١٩٩٢ بدأ أنا بنقدم، رغم كل شيء، مساعدات الانتظار العشر صارت خمسا! مزيد مدعو من الهيئة العامة لتصور الثقافة للمشاركة فى مهرجان الشعر العربى. موعد وصول الطائرة من صال لثانية ظهراً. كنت لثمهم: "لا داعى للتقريب عن المدرسة. أنت تعود للبيت فى الثالثة أو الثالثة والرابع، تذهب وتشتري ورد، لأبك وتعود لفتحنا فى البيت أو لأبك بعدها بربع ساعة. أبوك مدعو رسمياً معه سعدى يوسف وإبراهيم نصر الله. لن تستغرق إجراءات الدخول سوى دقائق". فى المطار، اتل من موظفى المجلس الأعلى للثقافة ينتظرون لاستقبال الضيوف. هبطت الطائرة بسلام. مرت ساعة، ساعتان. يدخل أحد الموظفين إلى المنطقة الجمركية. يعود. يتصل بالمجلس. يدخل مرة أخرى. اتصل بثمهم: "ما المشكلة؟" يمكن منك سعدى لأنه عزالى، يمكن باباء لا أعرف! يظهر موظف المجلس وفى يده قطعة شيكولاته: "الاستاد مزيد أرسلها لك، يعرف أنك أتيت من الكلية مباشرة!" يتصل بالمجلس، يطلب منهم الاتصال بمكتب الوزير. يقد بجوار التليفون. بعد عشر دقائق يعود

الاسمال. يدخل إلى المنطقة الجمركية. بعد ساعة يظهر، مهتلج توجه هذه المرة. "خير؟" عرفنا المشكلة، هناك تطابق بين اسم الأستاذ مزيد في جواز السفر وبسم ثنى على الكمبيوتر ممنوع من الدخول، تشابه الأسماء تسبب في هذا التأخير! لم أعلق. واصلنا الانتظار حتى ظهر القوم الثلاثة: ابراهيم نصرالله - سمحوا له بالدخول وبقي تصالفا مع مزيد ومعدى وبعد ثلاث ساعات ونصف وانفقوا على دخول معدى بقي مع ابراهيم نصرالله من أجل مزيد. وأخيرا سمح لمزيد بالدخول فخرج ثلاثتهم. وصلنا بيت شارع ولسر قبل التاسعة بقليل.

ولأن ذلك كله يمر بسهولة فهو لا يمر.

الأمر أكثر تركيبا وهذه الكتبة تستزل. كم مرة حملتنا الطائرة برفق وسلام لتلتقي؟ صارت الطائرة المجرية - الوحيدة التي تذهب مباشرة من القاهرة إلى بودابست - أليفة كالأوتوبس أو قطار الامكندرية. تنقل بنا في الثالثة والنصف فجرا. نصل مطار بودابست في الصباح المبكر. يحملنا مزيد في سيارته. تقطع شوارع بشت ثم لاندوب في طريقنا إلى بودا في الضفة الغربية للنهر. نصعد باتجاه حي "الزوجا دومب". مهبل يميلنا إلى شارع "هز هانم"، يهذي مزيد بسرعة السيارة. يتوقف أمام البقعة. يدخل تميم ويمود مهتوجا بأفرا من الخير التي أحبا منذ كلى يتردد على الحصانة في المجر. فتجاوز البقعة إلى مجموعة البيات السكنية. يمر من البوابة. عن يميننا شجرتي للهور العاليتين وأرجوحة الأطفال، منحرف يسارا. يوقف مزيد

السارية. نحمل أمتعتنا. نصعد إلى الطابق الثالث. نفتح الباب حتى الأثاث الأبيض. هذا أيضا بيتنا. المطبخ الصغير إلى يسار الدارجل يطل على شجرتي الحور وأرجوحة الأطفال. أنادى على تميم لتناول شحاده أو عشاده أو يسادي مزيد عطشه: "يا تميم! أوحنا، وأوحنا يا تميم" أو "طماطم!" (تحولت لاحقا إلى "طماطش" ثم "مكرز" و"مفقود" بعد زيارة للجزائر حرب فيها مزيد أن صلصة الطماطم في الجزأ تربة الدارجة يطلق عليها: "مكرز مفقود طماطش" فتوزعت للكلمات الثلاث أسماء جديدة لتميم) يصبح مزيد بأعلى صوته: "مفقود! مكرز!" هيئتي صوت تميم من تحت النافذة "عم بابا!" في لحظات العيظ أو التوتر: "يا زفت!" ثم يا ماما! يركض صاعدا إلى الطابق الثالث متوجها من توبخ ما على الطريق. يندق الجرس. افتتح الباب فيجدنا نضحك. هو أيضا يلتقط المفارقة، يضحك!

في الثالثة من عصره سيحصل تميم على عوده الأول، اشقراء له أبوه من تونس. ومن بودابست، من امرأة مجرية ممراء تبسط على مدخل سوق الحصىرة القريبة من الحصانة مصنوعةا من القش والخيزران والحشيش يشتمري لتميم كرميا صغيرا، يجلس عليه، يمسك العود، يرتجل تلك "الملاحم" المبكرة الطريفة التي يصنعها كل معارفه من المكرونة إلى فلسطين.

تتلمس أنها زيارة لأسابيع معدودة تنتهي بانتهاء العطلة.

تستقبل الأهل والأصدقاء. سيقى حسين مروة عام ١٩٨٣.
وفي العام التالي لاجى العلى، سيجلس تميم على كرسى
الصفير ويقدم عرضاً فيها لأبى تزار، حسين مروة، وعلى
ورقة دفتر صفير يرسم تاجى حظلة بمسك بوزة، يقول:
صباح الخير يا تميم. يغادران. تنقل دار الإذاعة البريطانية فى
بشرتها خبر الاغتيال. حسين مروة فى بيته فى بيروت. أسمع
الحبر فى القاهرة، يسمعه مزيد فى بودابست، خبر اغتيال لاجى
العلى فى لندن، يسمعه معاء من نفس الإذاعة، فى بلاتسون
فودفار* قرية على شاطئ بحيرة البلاتسون فى المجر. كاتم
الصوت فى المائتين. إميل حبيبي ولطيفة الزيات ماتا
بالشيخوخة على سرير المرض. فى بودابست أتت لطيفة لتقيم
بيبى، أحمر صفير، ترتج أمامه ورق عليه، عمره سنة
وبصاف، قال: "أقصى يا لطيفة" ضحككت. كلمات وخطت
خطوتين. جنست وضحككت أكثر. بعدها بسنوات ضحكك إميل
عالياً وطويلاً، يهتز جسمه الممتلى، يمسك بخاصرتيه: 'من
شان الله ياتيم، كفاية' ولكن تميم يواصل قول بكته المصرية
للى لا تفتد. فى مطلع التسعينيات سوف التقى إميل فى مطار
القاهرة، نصباح، يعى كل مما العجوة المستجدة بعد قبوله
للجائرة التى منحها له دولة إسرائيل، استظمها فى يوم ١٥
مايو، يوم استقلال الدولة. بين الأعلام الإسرائيلية المرفرفة
ميصعد إميل لمناقشة شامير ويتملم جاززته. بعد خمس

مسلوات، يوم ١٥ مايو نفسه ستودع تمشق جفنان محمد الله
ولوس. هو أيضاً زارنا. مشينا فى شلال بوداء، حكى وحكى
عن الاسكاف البأسورى الذى أصابه وأصابنى.
تفرقت للمساك وتشعبت الطرق، جميعهم رحلوا. تركنا
بودابست.

ون جرس الباب. فتحت، ثريا، جارتى. دعوتها للتحول، طلت
واقفة بالباب:

- طي أن أشكرى بعض الأعراس، متى تسالرين؟
- مساء الغد.

- سمعت الأخبار؟

- لا

- بشير الجميل مات، بالأمس قالوا أنه أصيب فى انفجار ببيت
الكتاب. هذا الصباح، سمعت الأخبار، قالوا إنه مات.

ذهبت، أغلقت الباب، الماعة تقرب من المدية عشرة.
مزيد فى المكتب وتيم فى الحضانة. لم ألتصق الرنديو ولا
التفزيون لمعرفة التفاصيل، وصلت الإهدة للسفر،

مساء اليوم التالي، الغميص. حملنا مزيد فى سيارته السلاذ
إلى المطار ألفت بسا الطائرة فى العاشرة والنصف مساء.
تيم شديد التآثر لمعارقة أبيه، أشاغله بالحديث عن العزومة
الجديدة التى سيدخلها، عن ألبا وأصدقائنا الذين يتطربون فى
القاهرة، عن رياننا القابعة ليودابست، فى أجازة صمن السبع،

تلعب في الثلج مع أصحابك*. ظل صانعا ثم استغرق في النوم. أوجعت ظهر مقعدى إلى الخلف قليلا. أعصت عيسى في طريقى إلى القاهرة بعد عامين من الإقامة في بودابست جنث إليها في أعقاب علويات جراحيتس كبيرتين. العام الأول فيه مشبع، للنقابة، للكتابة، لحائكا معا. العام الثاني مصحوم بما يحمله، حقبة متفقة ثقيلة تكاد تنفزز من كثرة المحشور أوسها: بصابة في الرنة اليمنى. المستشفى. المستشفى مرة أخرى. في مصر الاعتالات. طرد من الجامعة. مقتل رئيس. تولى آخر. إخراج عن المعتقلين. قرار جمهورى بمودة الأستاذة المصوليون. اجتياح لينل، حصار بيروت. رحيل المقاومة الفلسطينية. سفن وشاحنات وأر ودموع. جراحة جديدة. مزيد بلوح لنا مودعا. أفسر الطائفة.

هبطت في لاريكا. بعد ثلاثة أرباع الساعة أطلعت في طريقها إلى القاهرة. وصفاها في الثانية ونصف فجرا. في الرابعة وصلنا إلى البيوت. تميم يكر: بابا وحشى*. جنثا معا في الصلابة، انتظروا حتى طلوع الفجر. يتسلل الصوء من السواتر الخشبية للنوافد وكذلك زرقعة العصافير. بدا تمكك لل وحشة فخلنا لنسام.

صت يوما متعلما ولما استيقظت الهكت في فتح الحجاب وترتعب للملابس وشراء الضرورى من المأكولات. في المساء جاءت أمى لزيارتى وأبعا بعض الهدايا. لم أشتري

بقرقند. لم أفتح العدياع. صباح السبت كان على أن أذهب إلى طبيب- قبل سوى بأسبوع أجريت لى جراحة صغيرة فقلت تستلزم تغيير الخصائص والمتابعة - بعدها ذهبنا إلى بيتنا في المنول. هناك لمحت عابون للصحة الأولى في الأفرام. لم أغرا للتفاصيل. أعقد لنى لم أعرف ما جرى إلا في اليوم التالي: يوم الأحد ١٩، أقصد احتلال الإسرائيليين لبيروت ولذليح. ولا أدري لماذا ارتبطت ذاكرة ما حدث في تلك الأيام في بيروت بكل للتفاصيل المحيطة بالسفر كأن عدم متابعتى إفتهاى أيام الأرباء والخميس والجمعة من الحطيا لنى لا تكفى ولا أفتكر. تبقى متسيرة في الذاكرة. أعرف أن في الأمر مفارقة ملخرة ومرة لأن متابعتى للحدث أو عدم متابعتى له لا وزن لهما فالمحصلة النهائية مجرد مطلق في الحالتين، وقهر، ولا شىء آخر. ومع ذلك يبقى أن الانهياك في الحدث يؤكد أننا نشئ له ونلتيل هناك لدى هو قتلنا. لا ليس تماشا. أقصد ليس التعبير معادلا لما شعرت وما زلت أثمر به. ربما شعور مقارب لشعور حماني كلما فكرت أن ابنها مفيع، أكبر أولادها، كان ملقى على الرصيف في شارع من شوارع باريس يحزم دما ويموت. تحاول أن تتذكر مالمذى كانت تعلقه يوم الاثنين في الحنية عشرة ليلا هل كانت نائمة؟ كيف كانت نائمة تكاد الفكرة تحيلها إلى الجلون، يصبح النوم دبا، وعدم المعرفة لا يشفع في الذنب بل يكرسه.

عندما دُفنت ثريا الباب صباح الأربعاء ونقلت لى حير قتل بشير الجميل كل إريال شارون، الرجل الأبيض الذى بحسب الكلاب ويكو العرب، يقف على سطح بناية عالية بالقرب من السفارة الكويتية فى بيروت يراقب المدينة والمخيمات، بعدها إتصل ببعض وقيل: تموتنا تستخدم نحو اهدافها. أستطيع أن أراها بأم العين". أتم شارون الاتصال ثم ذهب إلى بكفنا لتقديم واجب العزاء فى بشير الجميل. لا نذكر متى ست ليلة الثلاثاء ومتى ستقفلت صباح الأربعاء ولكنى الآن أعرف أن الاسرائيليين، طوال ليلة الثلاثاء على الأربعاء، كانوا ينظرون عندهم ومظليهم عبر جسر جوى مختلف يصل مطاراتهم بمطار بيروت. فى المجر كنت رائة، بعد تلك القوت الاسرائيلية التى تطوق بيروت العربية من الصحابة جويًا ومن المرفأ شمالا دخول المدينة. الأربعاء- خميس أعد للسفر، أحمل ملائيم، اكويها، أشتري أسواق شيكولاتة صغيرة عليها رسوم طريفة يحبها تميم، سأعطيه منها وهو ذاهب إلى المدرسة. سقطت بيروت. الدبابات الاسرائيلية فى شارع الحمراء. فى العاكهاني. فى كورنيش المزرعة. ظهر السبت كانت القوت الاسرائيلية استولت على كل بيروت ومكثت رجال الكلاب وسعد حداد من قصاه اربعين ساعة فى مخيم صبرا وشاتيلا. استخدموا الرصاص والفنوس والباطات والسكاكين قتلوا، ذبحوا، اغتصبوا، حطموا الريموس. قطنوا الاطراف. مثلوا بالبحث.

لهيوا ما لمكن نوييه من أسوار وحلى. السبت. أجرت المهمة. قتلوا المحيم الأحد: الجرافات، الجثث، الدباب، كاميرات وميال الإسعاف. خدمات مصوري وكالات الأنباء. لسانه يدين. دبلوماسيون اجاب يتكلمون بخطى ثقيلة بين الأرقعة. ليلة الخميس على الجمعة. الطائرة فى الجو. عبر السافنة ظلام مطبق قطعته مؤشرات ضوئية متقطعة. فى بيروت قطع الكهرباء، يخيم على المدينة ظلام كامل قطعته بدءا من منتصف الليل صواريخ مصونة موجهة إلى المخيمات. فى الحادية عشرة ليلا- بعد ساعة من إلحاق الطائرة من مطار بودابست- يبلغ قائد القوت الكتائبية التى دخلت شاتيلا تقريره إلى القائد الاسرائيلي: هفتنا حتى الآن ٣٠٠ مدنى ويرهاني. حصيللة الساعات الست الأولى. الحصيللة النهائية، لم يمكن تحديثها بهذه الدقة. أمكن لمصادر الحكومة اللبنانية أن تعصر ٢١٢ جثة دفنت فى المقابر الجماعية بعد القتل فى تحديث هويات أصحابها. ٣٠٢ جثة تم للمركز عنونها وبحرا القها بواسطة فرق الإسعاف. ٢٤٨ جثة دفنت بواسطة المايستب الأحمر. حوالى ١٢٠٠ جثة تمركز عنها أهلها ودفوها فى مقابر خاصة. كانت هناك جثث أخرى- يقدر عددها بالمئات تحت الأنقاض، وجثث دفنها رجال الكلاب وسعد حداد فى حفر جماعية، أثناء المجزرة، لم يسمع، بعدها، بنفشها. وأكثر من ألف رجل- قنرت الصحافة الفرنسية عددهم بألفين- ختلوا فى

شاهدات نقلتهم إلى جبهة غير معلومة. هابوا إلى الأبد. لقد المفوم في أربعين ساعة ما يقرب من ربع مسكته. وطول الأربعين ساعة سبتايح الإسرائيليون ما يجري عبر مسانظيرهم المكبرة، من مواقعهم للمشرفة على أسطح البيوت الثلاث المتاخمة. لاحقاً سوف يشهد أحد صباطهم: كما نرى كما يرى مشاهدو الصنف الأول خشبة المسرح".

سوف ترى الحكومة الإسرائيلية ضرورة نشر ما يرى إسرائيل مما حدث. نشر الجيش كإعلان منقوع الأجر في كل من "النيويورك تايمز" و"الواشنطن بوست" تحت عنوان: "مؤامرة دموية".

نشأه رأس السنة، حكمت ضد الدولة اليهودية وحكومتها وحد جيش الدفاع الإسرائيلي مؤسسة دموية حقيقية. ففي مكان بعيد عن مواقع جيش الدفاع الإسرائيلي دخلت وحدة لبنانية إلى مفوم للجائنين، حيث كان يختبئ الإزهابيون، بهدف القرض عليهم. اعتدت هذه الوحدة على السكان، وأوقعت عددا كبيرا من الضحايا في صفوفهم. ونحن سجل هذه الواقعة بحزن وبأسف صغيين. وما كاد الجيش الإسرائيلي يعرف بما جرى في مخيم شبتايلا حتى يند إلى وقف معك نماء المدنيين الأبرياء، وإلى إرغام الوحدة اللبنانية على ممانرة المفوم.

ولقد يند السكان المدنيون أنفسهم إلى التمييز مراحة عن حرفاتهم بالجعل لعملية الإنقاذ التي قامت بها قوات جيش

الدفاع الإسرائيلي إلى كل الاتهامات الصريحة والمبطنة التي إرصت أن الجيش الإسرائيلي يتحمل أي قسط من المسؤولية في هذه المأساة. اتهامات لا أساس لها من الصحة ترفصها للحكومة وتطر إليها يندراء. لقد ثبت أنه لولا تدخل الحكومة الإسرائيلية لكان عدد الضحايا أكثر بكثير مما هو عليه الآن.

ومن جهة أخرى، فإن تساحل (الجيش الإسرائيلي) قام بعملاته ضد الإزهابيين في بيروت العربية مدة يومين على التوالي، دون أن تصدر شكوى واحدة تفيد الاعتداء على المدنيين من السكان.

وفي هذه الأثناء تصح أن لارهابيين غرغوا اتفاق الجلاء وأبقوا في بيروت العربية ٢٠٠٠ رهابها فصلا عن مستودعات سلاح كبيرة بها دبابات ومدافع هاون وكومات هائلة من كل أنواع الذخيرة.

وكان هدفهم من كل ذلك متابعة أصبل الإزهاب الديموية ضد إسرائيل وغيرها من الشعوب، إنطلاقاً من بيروت العربية. ويرحم التشهير الذي يجد له تجاوباً داخل البلاد ذاتها فإنها تدعو لشعب إلى الانتفاذ حول حكومته المتخفة والتي تساهل من أجل صلمان الأمن والسلام لإسرائيل وجميع سكانها. لن يعطينا أحد دروساً في الأخلاق وفي احترام الحياة الإنسانية وهي القيم التي كانت خطوتنا والتي في صونها سواصل إعداد أجيال من المقاتلين في إسرائيل.

عبد الرجل الأبيض مرة أخرى! الجيش الإسرائيلي (باسم جيش الدفاع) جيش إنقاذ. في دخول الجيش الإسرائيلي (إلى بيروت) يحمل السلام والأمان، ويعتزل دون مجررة يتعرض لها السكان الفلسطينيين في القسم العربي من بيروت. شارون للمبعوث الأمريكي ديزر. "نقولنا إلى بيروت حول دون وقوع كارثة" والفاتل إيلان، رئيس الأركان، للمحاضرة الإسرائيلية ليس الاستثمار الكلاسيكي وحده، هم أيضا في حاجة لاعتماد صورة أخلاقية عن الذات. ربما كانت حاجتهم أكبر لأنهم يهود يحملون تراث الصحوة المتطلعة إلى العدل. لابد أن تعكس المرأة نبل الوجه وسموه الأخلاقي. الوجه القديم، المعتمد، للكارثة أن تسقط فجأة على المرأة بقعة سوء مباحة يرى الوجه ذاته غير ذاته فيزعج أو يهز طهره أو يمد يده ليكسر المرأة لأنها حكيمة وكاذبة. في الكنيسة أعلن شارون. كل محاولة لربط هذه القصة التعيسة بجيشنا، بما في ذلك المطالبة بتعيين لجنة تحقيق هي تجس يتركب في حق جيش الدفاع الإسرائيلي، في حق المسؤولين عنه، وفي حق الشعب الإسرائيلي بأسره" قد يبدو هذا التصريح طبعيا لأن شارون وزير الدفاع المسئول الأول في عملية اجتياح لبنان ودخول بيروت ومدائح صبرا وشاتيلا يذلل عن نفسه وعن المؤسسة العسكرية التي يرأسها ولكنه قد يكتسب معنى أعسق في ضوء ما كتبه إسرائيليون في إدانة المذبحة. قتل أحد الجنود

إن مرأى أكلوا الجثث في مخيم بيروت جعلني لأجل. لأول مرة، من اقتل للجيش الإسرائيلي. وقال أحد الصحفيين: "هذه المجزرة جعلت من حرب لبنان الكارثة الكبرى التي حلت بالشعب اليهودي منذ المعركة". وقال أحد الأدباء، "ياسد يغن، بضربة واحدة خسرت ملايين الأطفال اليهود الذين كانوا كل ما تملك على هذه الأرض. إن أطفال لوشاتز لم يموتوا ملكا لك. لقد هزتهم. بعثهم دون ربح". كان بإمكانهم جميعا بذلة المجزرة وربما سهل عليهم ذلك لى الأيدي التي نفذتها لم تكن إسرائيلية، وأن المزد كل لأرض مجاورة إنما لبنان أما الخطيئة الأصلية التي سمحت لهم بإقامة دولتهم فهذا ما لا طائلة للمرأة على احتماله، كان على المرأة أن تحتفظ بسمعتها، ربما ببعض الطلل، ذلك إن حالت في جرائنها. قليلون هم اليهود القادرون على الصياح على طريقة طفل أندرسون بل لملك الذي يتكلم الكل في الإطراء على روعة ملبسه، عز تمايا. وهذا ما سوف يلتقطه نجوم شومسكي الكاتب اليهودي الأمريكي حين يصف إلي وهزل بأنه الحاق بشع، فورل الحاصل على جائزة نوبل وعلى جوائز عالمية عديدة والذي كتب مجلدات ضد الصمت وحصل تجربة يهود المعركة وهو الحاج منها لا يرى معركة في صيته المطبق إزاء ما يحدث للفلسطينيين ولا في ارتباطه وعمله في الأربعينيات مع الإزغون أكثر العصابات الصهيونية صغرية وإرهابا. سوف

يشبهت منك المتقيس اليهود بمكرة التراث الأخلاقي لليهود.
سوف يواصلون اعتماد الهوية المتوقفة مسقطون المحتوى
المستجد لكلمة يهودي: محتوى صنعته دير يامس ويمر البقر
ونكسور العظام وقائا. إنها هوية مستجدة لا تملك المرأة إلا
طمعها

في قرطبة، قبل خمسة أعوام، وعلى مدخل مسجدها الجامع
رايت رجلا إسبانيا وأمراته وبدأ لى، رغم لى لا أعرب
العمة المربية، انهما يتشاجران. تساءلت إلى كل القبح البلى
على وجوههما بسقاطا دشاعرى عليهما أم أنهما فعلا كيرحان
مزيج من الخلطة واللباقة وشىء آخر مفرد لم أستطع تحديده.
فى دخول المسجد-الكبيرة رايت مجموعة كاملة من السواح
الإسبانيين. لم يكن أحد منهم يتشاجر، كانوا يصمتون لمرشد
مبهاجى. راقبتهم لحظات. انبغت، لا ليس بحساسى بالقهر،
شء فى الوجوه، هى الحركة، فى نظرة للعمر، ما هو؟ لعلمها
هذه للمرأة، لعلمه للكتب أو التكرار لعلم العدل للقيم والإدعاء
بأنه قائم. وربما شىء آخر. لتذكر الآن مقال جان جينيه: 'أربع
ساعات فى شاتولا' كنت ترجمته من الفرنسية إلى العربية مع
الدكتورة أمية رشيد لى عام ١٩٨٣.

يقول جينيه: قبل حرب الجزائر، فى فرنسا، لم يكن العرب
يسمون بالجمال قبيحتهم ثقيلة، وخطواتهم متباطئة، ووجوههم
موجعة وهجاء ضاهم النصر. ولكن قبل أن يتحول ذلك النصر

إلى شىء مبهز، عندما كان أكثر من نصف مليون جندى
فرانسى يقتلون حلقهم ويشهرون فى الأوراس وفى الجزائر كلها
كان بالإمكان ملاحظة تلك الظاهرة المريبة التى تمتثل على
وجه الجمال العرب وفى أجسادهم: شىء كجمال يقترب،
كحتمين جمال ما زال هشاً وإن كان سيختلف الأعمار عندما
لحظ القشور عن جلودهم وأعينها. وكان لابد من قبول ذلك
الأمر الجلى: أنهم تحرروا سياسيا ليظهروا بالشكل الذى يعفى
طينا لى نراهم به، غاية فى الجمال. كذلك أيضا كلى الفنانين
الشباب من مخيمات اللجوء، الهاربين من المخيمات وبطامها
وقانونها الذى فرضته ضرورة البقاء. ولما كان هذا الجمال
جديداً، أى وليداً، أى بريئاً، فقد كان نظراً وحياً إلى حد
اكتشافه الفورى لذلك الذى يربط بينه وبين كل جمال فى هذا
العالم يلتزع نفسه من العار.

للعين المتدبرة يبدو ما يقوله جينيه مجرد تعبير بلاغى عن
الحياة ومحبتة لشوار الجزائر وشوار فلسطين. ولكنى اعتقد أنه
بكلامه يصوغ قانوناً إنسانياً عاماً. قبله بأقل قليلا من سبعين
عاما كتبته بيتكس، الشاعر الإيرلندى، لنفس القانون حين كتب
قصيدته الشهيرة عن انتفاضة ١٩١٦. ماس عاديون، يعرفهم:
هذا جلف، وذلك سكير، وتلك عالية الصوت، سوية مرعجة؛
يحبهم مجرى الحياة اليومية، يشاركون فى مناهتها السخيفة
تجاء تقول القصيدة، 'ولد جمال مزروع'. يشتد بهم الحب.

يُتمسكون. قلوبهم حجر يعترض المجرى. يُقتلون. يُتفكرون، يتمسكون تماماً: يولد جمال مروع. إن هذا الجمال الذي رام جنه ومن قبله يتمس بقلبه فيبح عليه التواطؤ والكذب. وكلن المرأة تتنقم من الصمت المفروض عليها فتترك للوجه والنظرة وحركة الجسم ويتنازع الكلام مهتة فصيح ذلك الشيء المتفصح في الداخل والذي كان تضرعا وحيا ويربسا ذات يوم، ولم يجد.

الفصل الرابع عشر

انتهى تميم - وكلنت أحنثه عن مفهوم "لكا" و"أيا" ضد قماء المصريين - إلى أن العرب، في أيام الجاهلية وصدر الإسلام، كانت تعتقد أن روح القتيل تمسير طائرا يحوم حول أفعه صلتها: "مسقوي، مسقوي" حتى وأخذوا يشاره. قال تميم: كانت العرب تسمي هذا الطائر الهامة ربما لاعتقادها بأنه يخرج من رأس القتيل. كذلك تسميه طائر الصدى والصدى تسمى، فصلا من رجع المسووء العطف.

رجعت لكتاب "حياة الحيوان الكبرى" لتتسرى فتأكد لي فكرة ما قاله تميم. عرفت أن الهامة أو الصدى هو نكر اليوم، طائر من طيور الليل يخرج من بيته ليلا. يرتبط في بعض الحكايات بالقتل ولا يقتصر، في بعضها الآخر، عليه. ويقول للتمسري: "ترجم العرب أن الإنسان إذا مات أو قتل تنموور بعضه في صورة طائر تمسرخ على قبره مستوحشة لجسدها". ويرد تميمير "طيرن الهامة" في بعض أبيات الشعر القديم، مراجعا بين قطع

الزئبق والإشارة للطائر. والإشارة، بمعنى الباء وتثنية القوب، طائر يشبه اليوم إلا أنه أصغر منه.

استوقفا التشابه بين هذا المعتقد ومفهوم الروح أو البيا لدى قدماء المصريين وقد صوروها على شكل طائر له رأس بسنن وأحياناً له ذراعان أيضاً. تراقق البيا صاحبها إلى قبره ولكنها لا تبقى حية معه فيه بل تنقل بحرية بينه وبين عالم الأحياء، تزور أهل الميت أو الأماكن التي أنفها، تقي حاجتها إلى الطعام والشراب والسفاد لسهل وفي الليل تمسود إلى قبر صاحبها، تتوحد بجسده لتضمن لهذا الجسد الخلود.

تعرفت على "البيا" وأنا أبحث عن مفهوم "الكأ" فوجدت أن الإشارة لأحدهما ترتبط دائماً بالإشارة للآخر، وأحياناً ترد ضمن تناول تصور قدماء المصريين للشخصية الإنسانية. لسم أجد ما كنت أبحث عنه، ولكنني عرفت بمصر الأشياء، منها مثلاً أن شخصية الإنسان تتكون من أجزاء خمسة: جسده وكأوه وبياؤه وإسمه وظله. ولا يبدو أن ما وصل إلينا أو ما اكتشفه النازيون حتى الآن يسمح بفهم كامل لهذه العناصر ربما لأنهم لم يهتموا في مصيبتنا الحالي مفاهيم مقابلة لها، ونسوء الحظ فلي مفهوم "الكأ"، وهو ما أبحث عنه، كان وما زال أكثرها غموضاً ومدعاة للتأمل.

تصور بعض النقوش القديمة هذا القرعون أو ذاك ووراءه شخص يطلقه، وأصل هذه النقوش هي التي تسببت في ترجمة

الكأ في البحوث المبكرة بكلمة "قرين". لغزوم إلى الخلق له مجلة دورية كمجلة الفضارين هي أداته في صنع البشر، يستخدمها في تشكيل مسخيتين متطابقتين: جسد المولود الجديد وكأوه التي تلازمه من يوم ميلاده إلى ما بعد الموت. في حياته يكون الإنسان "سيد كأكه"، "مروح ورجيى معها"، وإلى بقوت غير مؤكدة. تحصل "الكأ" ملاجئ الشخص وصفاقه، لها نفس الطول والهرم والشمية والصحكة، وترتدى ثياباً مطابقة لثيابه. قد تتركه مساعة يومه لتذهب في جولة هنا أو هناك لتلقى فيها كاهات أخرى تتحدث معها. وعلى غير "بيا" التي تأخذ شكل طائر، يُمرر للكأ بينين مرفوعتين فوق الرأس ذلك لأن إليه القمص يبدأ الوجود بأن تقل من فمه زوج الألهة الأول ووضع ذراعيه خلفهما فكلتسهما كأوه وعاطت عليهما بالحياة. لكل إن كأكوه: الألهة والملوك والبشر. نزع أربع عشرة، وللقرعون أكثر من واحدة، أما باقي البشر فلكل واحدة، تولد معه، تلازمه في حياته، وحين يموت لا تموت معه. تصاحبه إلى قبره لتسكن في موميائه أو مثاله الجنائزى. يحصل لها الأهل مسا تتقوت به من مأكولات لتبقى حية لأن في حياتها تأمين لبعث صاحبها وخلوده.

يلعب بعض النازيين "الكأ" بأنها طاقة الحياة لدى الشخص، قوته الروحية، قدرته الإبداعية ولكن الغريب أن الكأ لا تسكن في جسم الإنسان بل في إسمه، فهي تصل إليه وتو جسدها.

وتربط بعض النصوص بين لكّا والإسم الذي لا يبلى رغم رحيل صاحبه. وتشير هذه النصوص إلى من يبقى ذكرهم في الأرض رغم أنهم لم يصنعوا لأنفسهم أهرامات من نحاس أو شواهد من حديد. لم يخلقوا ديرة ترثهم، تحصل أسماءهم وتكررها، استبدلوا بها جموعاً ما أتجهوا من كتابات وأسماء وتعاليم تشهد على قوة كاهنتهم وبقاء أسمائهم بعد أن يطوى النسيان أغاريهم، ويموت الكهنة المسنولون عن أهورهم، وتحول هذه القبور إلى أطلال.

لا أريد أن أدخل في تفاصيل جديدة حول الإسم والظلل وعلاقة كل منهما بهذه 'لكّا' المحيرة التي رحلت فقرأ عنها وأنا أكتب هذه الرواية. مسهل البعض ترجمة 'لكّا' بكلمة قريب ولكن ما معنى كلمة قرين؟

عدت إلى 'لسان العرب' فوجدت أن لسان منظور للمصري ألفرد لقرن ثلاث عشرة صفحة. للكلمة وثائقاتها عشرات المعاني منها، القرين: المصاحب، وتعالى أيضاً الأسير وفي الحديث: أنه عليه السلام، مر برجلين مقرنين فقال: ما بال القران؟ قالوا: نذرا، أي مشهودين أحدهما إلى الآخر بحبل. والقرن، بهاءحرك، الحبل الذي يشدان به... وقوله تعالى: وأحدين مقرنين في الأصفاد' والقرن: مثلك في السن، تقول هو حضي قرني أي حضي سني. الأصمعي: هو قرنه في السن، بالفتح، وهو قرنه، بالكسر، إذا كان مثله في الشجاعة. والقرن:

الحبل يقرن به البعيران... وقال:

أبلغ أبا مسمع، إن كنت لأقربه إلى، لدى الباب، كالمشود في قرن

والقرين: صاحبك الذي يشاركك... والقرن، بالكسر: كفرك في الشجاعة والعرب، والقرن بفتح القاف: الحمار، وجمعه قرون... والقبروون والقرونة والقرينة والقرين: النفس.

هل لكّا تجسود للنفس؟

ولئن مواسع شجر من ذلك كله؟ ولماذا أريد أن يكون لهذه الرواية نفس العنوان الذي اختارته شجر لكتابها عن دير ياسين؟ ليس للعنوان متطابقاً، ليس تماثلاً، هوون كتابها 'الأطيات'، إسم معرفة استبدلت به 'الطيات' مجردة من أدلة التعريف. أطلق الجزء السادس والأخير من 'لسان العرب' حيث كلمة قرن، ولفتح الجزء الرابع بحثاً عن ما يصيغه لي ليس منظور. خمس صفحات يعصف فيها معاني وثائقات كلمة طوف. القبح منها:

'طاف بالقوم وعينهم... استدار وجاء من تواجيه. وأطاف فلان بالأمر إذا أحاط به، وفي التنزيل العزيز: يطاف عليهم بآية من فضة.

وتجمل: أطاف به حام حوله وأطاف به وعليه: طوافه لولا... قال القراء: قطائف والطيف سواء، هو ما كان كالخيال ولشيء يلهم به... وروى عن مجاهد في قوله تعالى إذا مسهم

طائف قال: المذهب... قال أبو منصور: الطوفاء في كلام العرب الجور... وقيل للمذهب طائف لأن عقل من استقره المذهب يعزب حتى يصير في صورة المجنون الذي زال عقله... وطائف في البلاد طوفاً وتطوفاً وطوف: مارة فيها... وقال أبو الهيثم الطائف هو الخادم الذي يحملك برفق وصداقة... والطائفة من الشيء: جزء منه... الطائفة الجماعة من الناس وتلق على الواحد كأنه أراد نصيب طائفة...^{*}

والطوب... حطب يشد ويركب عليه في البحر وللجمع أطواف. وقال أبو منصور أتى يعبر عليها في الأنهار الكبار تسوى من القصب والميدان يشد بعضها فوق بعض ثم تقطع بالقسط حتى يؤمن انحلالها ثم تتركب ويعبر عليها.

والطوفان: الماء الذي ينشئ كل مكان، وقيل المطر الغالب الذي يفرق من كثرتة، وقيل الطوفان الموت العظيم. وفي الحديث عن عائشة: رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الطوفان الموت، وقيل الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً محيطاً مطوفاً بالجماعة كلها كالفرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة، وللقول الزريع والموت الجارف يقال له طوفان... ويقال لثبدة سودا الليل.

وتحت طيف يكتب ابن منظور: طوف الخيال: مجيئه في النوم... وأطاف لفة، والطيف: الخيال نفسه.^{*} لا لكن أن شجر رجعت إلى أصل العرب.^{*} كان للكتاب

المنسوخ على الآلة الكاتبة يحمل عنوان: ديسر ياسين: تحقيق حول مجررة* ولكنها في ذلك الصباح وهي تحضى كهوتها، قيل أن مصادر «بنتها» للناس، هيأت العموان إلى الأطفاف: وروية ديسر ياسين* هل كان السبب مجيئ هريزة ونريهة وهامة زهران في الحلم تلك الليلة؟ أم كانت تربطه برعي أو بلا وعي بين رائحات الليل ورحلة أخرى شعلتها طويلاً في صياها حيث العبور في النهر المستتر من ضفة إلى ضفة؟!

ماذا تعمل شجر؟

تكتب كتابا في التاريخ.

الكلمات تختزل. تكذب. كيف تفسر الأصوات التي لازمها، كلمات حياة الأبيهم، منديل بسملة زهراني، عمر؟ جاءها في المنام، لم يكن ابن عاملين بل ملكها كبيرا. الموتى لا يكبرون، تمتعت شجر، المصعد معطل. نزل الدرج الذي صمته إلى قسم المصنفات الفية بوراة الثقالة. يلحسون الأثرطة الواردة من خارج البلاد. في الطابق التاسع بداية في القصر المعنى، تسلمها، توقع. ترأسل أصدقاء تعرفهم وأخرون لا تعرف إلا أسماءهم ووظائفهم. يحمل لها ساعي البريد لورلا مصورة أو كتابا أو فصلا من كتاب. وصلها على الساكن صفحة من جريدة، شهادة بخط اليد، أخرى مسوخة على آلة كتابة: كلهم متغولا إلى القصص. لماذا الأثرطة: نص كلماتهم. بنمتهم اليومية الدارجة، تعملها بحرس أكبر.

عجيب أترك يا شجر، تسعين بتموك إلى الأطباء. تعودين بهم إلى البيت. تمتعتن. لم تقري لشيوخك بعد يا شجر. هل

صرت جنتك القديمة، تُقرن حديثهم في صدرك أو تحكيهم
بعضه القليل للمفسر المجتمعين على العشاء؟ تنزل على
الدرج، تذهب إلى بيتها، تنصت. حلال، لا حول لها ولا قوة
إزاء مكين الجزار؟ كذب:

شكلنا لجنة طوارئ لتنظيم الدفاع عن القرية، أقمنا
استحكامات، نظمنا الحراسة الليلية، تناوبنا على الحراسة من
الساكنة مساء إلى ثلثية عشرة ليلا، ومن الثلثية عشرة
ليلا إلى الساعة صباحا. حفرنا خنادق في مدخل القرية جهة
الشرق، من ناحية جبهات سلازل، نقلنا أحجارا كبيرة من
الكسارات: قطعنا الطريق من ناحية المدرسة. أوكلنا إلى على
قاسم وهو من المحاربين القدامى في ثورة ١٩٣٦ وصالح
ضد الذي عمل في قوة الحدود البريطانية مهمة تدريب
فصيانا، أرسلنا مجموعة منهم إلى مصر لشراء الأسلحة.
سافروا وعادوا بخمسة وعشرين بنادقة ومدفعي رشاش،
طراز مستين.

خليل متور:

بلغ سعر البندقية ٥٥ جنيا وهو المراتب الشهري لكار
موظفي حكومة الائتلاف العرب. بلغ سعر المخبزن الواحد
للبنكية (٥ طلفات) ٥٠ قرشا وهي أجرة يوم كامل للعامل
العربي للعدي. مساء القريسة تخرجن بطنهن لشراء الأملحة.

حسن عطية:

جئت معي إلى مصر ١٠٠٠ جنيه فلسطيني، اتصلت
بالساسة، أخذوني إلى المنصورة، اشترت خمس بنادق مع
خبرتها، اعتكفتي للمخابرات المصرية. صافرت السلاح
والنخوة، أوجت على بعد تصالات مع قيادة الجيش
المصري، توّلى الجيش نقل السلاح. سلمه لي في رفح.
وضعت في صناديق في سيارة شحن تحمل خصرا إلى القدس،
ومها إلى عين كازم، ومن عين كازم على الدواب إلى دير
ياسين. وصلتها يوم الأحد ١٩٤٨/٤/٤.

عادوا من مصر. المصارف مشغلة في القسطل، بمقدور
الصغار متابعة تفاصيلها من فوق أسطح الدور. مكثت
القسطل، استعدنا، وصلت تعزيزات من الهاغاناه إلى
المهاجرين اليهود. حاصرونا، يوم الثلاثاء ٤/٦ أرسلت
القسطل تطلب النجدة من القرى المجاورة. توجه ١٢ شاب
من دير ياسين للمشاركة في الدفاع عنها.

الضابط الإسرائيلي حوزي تركيس:

وصلت القسطل يوم الخميس ٨ إبريل لإمداد القوات بالمو
والنخوة. مكثت إذا كانت الأمور تسير على ما يرام. قالوا

أمورنا متشاكسة والمعنويات عالية، جعلتنا العرب يستعينون ولا خسائر من جانبنا، ولكن توجد جثة واحدة هناك، ذهبت إليها. ما رلت أنذكر هذه الجثة، ممددة على بطنها في الحقل في رداء بني فاتح. لم يكن نعلم من هو صاحبها ولكنه كان يحمل معه مصغرا. أخذت المصغير وغادرت.

زينب عطية (أم صلاح)

لما شهاب بلدا ذهبوا إلى القسطل غربا للمجاهدين وفرحنا بأخبار شهاب عبد القادر الحموي. لم نعلم أنه استشهد ولن القسطل سقطت إلا من وهد من بلدا اسمه يوسف أحمد عيا، قل لنا: مثل ما خيتم، راح تكفين بدل الدموع دم.

الحاج محمد محمود أحمد:

فوجئنا بلياً استشهد عبد القادر الحموي... كبار رجال القرية جمعوا الشهاب والرجال الذين يعملون السلاح... ثم توريهم على المواقع الرئيسية في القرية وعلى وجوه الحصون الدابة الشرقية والتي نعد مستعمرات جفعت شاول/ متفوري/ بيت حكيريم/ بيت فجان.

أم حود:

يوم الخميس ليلا سمع زوجي محمد عبد نعي عبد القادر

الحموي من جهاز راديو بالبطارية. تجمع وسام. قمت بإخراج الشاور بعد تنظيفه. شمرت بحركة في العنفة. خفت. اندفعت إلى داخل البيت. طرقت الباب بشدة لقطعت زوجي هناك. وضعت الولد. نمت.

عوية سماعيل عطية:

لم أم. من سطح دروا رأيت تجمعاً في جيفات شاول. لم يكن زوجي بالبيت، كان يقف مع أخيه أحمد في نقطة حراسة عند الكسارات في المدخل الشرقية للقرية وكس الصغار سامير. لم أتمكن من النوم. حملت صبيحة العجور وأغلقت الباب على الصغار واتجهت إلى منزل القرية. كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً.

أم حريز:

لم يم أحد في تلك الليلة... ذهبت مع عدة نساء من النعي كماندا بمحل العجور لنعبد الصبر في الطابون. خرجت الطرخة الأولى مبعدة أرغفة. وصعدت الطرخة الثانية مبعدة أرغفة أخرى. بقيت في الطابون. لم أخرجها.

إسماعيل محمد عطية:

في الثانية والنصف فجراً شاهدت أمواء كاشفة لسجلات

تتأخر المستعمرات وتعود إليها أمام دارنا المطلية على الرادى
والمساحة هي جنوب شرقي القرية، ذهبنا إلى الطريق الرئيسية
لاستطلاع الأمر، توقفت الحركة، بدأ كل شيء ساكناً والظلام
مطبقاً، عدنا إلى مركزنا حرسنا أنفسنا الدار.

حصن عطية:

سمما وقع أقدامنا قادمة من الجهة الشمالية الشرقية. كنا نطمح
على تلة مشرفة على الطريق الرئيسي، في مواجهة جبهات
شاولول. توقفت الحركة وساد السكون، ثم سمعنا إطلاق النار
خلفنا وسط البلد، ضد مركز بين نعم اسماعيل عطية وابله
محمود.

الحاج محمد محمود أسعد:

في الساعة الثالثة والنصف سمعنا طلقات ناربية وصوت
محمود إسماعيل عطية بصيح: "يا أهل البلد هاجموا اليهود،
هاجمونا اليهود".

حصن عطية:

بعد هذا مباشرة طلعت علينا مجموعة ثانية يهودية من
الشمال، من عند المدرسة، بدأت المعركة بيننا وبينهم، وفي

هزات وسط البلد، انتقلنا إلى دار الحاج أحمد وصوان
المشرف على المنحدر الشرقي للقرية. تمركزنا على سطح
الدار. رأينا مصفحة إسرائيلية تقترب ووراءها عشرة مقاتلين
لم مجموعة أخرى مهاجمة تلحق بهم.

عزراً وأحين، تصابط الاسرائيلي المنقول عن مرافقة العربة المصفحة:
اصطدمت العربة بالحجرة، كان علينا أن نندمها حتى تنكس
من الاستمرار. ثم وجدنا حجرة أخرى، وفي منحل القرية حجرة
ثالثة، قررنا أنه لا فائدة من الاستمرار.

أبو توفيق ياسيني:

عبروا حتى وصلوا المدرسة وكنا وضعنا بعض الأحجار
ولم يستطيعوا التقدم أكثر. ترك أحدهم العربة وبدأ يرفع
الأحجار، صوت طبله وحد من شهابنا وأصابعه، جده زملاؤه
تحت العربة وأدخلوه فيها.

أبو محمود:

سمعنا مكر الصوت من المصفحة المحشورة في الحندق.
حاولوا إزهاها حتى يهزوا القرية وتهرب. أخذ مكر الصوت
يكرر، "لوقفوا القتال، إنسحبوا إيجوا بحياتكم، إلقوا أسلحتكم".

حمين عطية:

استمر تبادل إطلاق النار. أصيب رمون أسعد وميخائيل بدلت تخيروتنا تتقدم. انسحبنا إلى الأعلى العربية للقرية بعد أن مجعنا في وقف المجموعة المهاجمة من المدخل الشرقي للقرية.

جمعة زهران:

خرجت من الدار لصلاة الفجر حوالي الرابعة، سمعت قرعة لم أعرف مصدرها بسبب الظلام. كان الجو غائماً وبدأ رذاذ المطر. وحين بدأت المعركة في حوالي الخامسة لم يكن معي سلاح لأن السلاح كان مع والدي الحاج محمد، ومع لفي علي، وابن أخي محمد موسى. بعد الطلقات الأولى قُتل والدي. أخذت منه البندقية الإيطالية، فوجئت باليهود أمام بيوتنا. استعصمت خلف جدار وأخذت أطلق النار. انقصر علي أحد المسيحيين يريد سحب بندقيتي. تماركنا بالأيدي. تألمت طيه. أطلقت عليه النار. أصيبته، انصب علي وأبل من الرصاص. انسحبت إلى الأهل العربية للقرية، كن المقاتلون من شهاب القرية تمركزوا هناك. بعدها لم أرى أياً من أفراد أسرتي وعائلتي ولا بيتنا.

أبو محمود:

للقوا قبلية يدوية داخل دار زهران فاحتوت الدور بمن فيها: ٢٨ فرداً من أفراد الأسرة قتلوا في الحال.

لقد جمعة زهران زوجته بسمه أسعد رضوان وأطفاله الخمسة: فاطمة وعلوة وشفيقة وفتحي ورسمية، أكبرهم في الثامنة من عمرها والأصغر لم تتم عامها الأول.

لقد جمعة أباه الحاج محمد زهران وأمه فاطمة وزوجة أبيه خنفة.

لقد جمعة زوجة أخيه الأكبر موسى وأولادهما الأربعة.

لقد جمعة أخاه الأصغر علي محمد زهران وابنه محمد علي.

لقد جمعة زوجة صه أحمد زهران وصداها الأربعة: الأكبر في العائلة والأصغر همراء عامان.

لقد جمعة ابن عمه محمود، شاب في الثامنة عشرة من همراء.

أبو ياسين:

بقي صري ثلاثين سنة وبقينا نأمين أنا والخوتى وأخواتي وأمي، أبوي بقي متولي. صحتنا في سن الليل على صوت الرصاص والمدافع من جميع الجهات. طلع أحوي يشوب شو

صار ويعتبر رجوع بسرعة وأعدنا أنا وحنوى عثمان يورينا.
أعطى القرعيرة على ظهري والأصابع كان فوق روعنا مثل
المطر. وصلونا لمد طريق عين كرام ورجعت أسى وأخوى
وكل معا وقتها المعلمة حياة البابيسى. وقتت وكلفت. والله أنا
مستفى من حالى ولجسى بهضم على اتى أرجيع ولستف
الجرجى على الأكل. ورجعت وما كنتش للطريق ممنا.

بدأت المقاومة عند المدخل الشمالية الشرقية للقريّة وفي
دار الحاج إسماعيل صنية المشرفة على الوادي في جنوبها
الشرقي. تمكن أولاد الحاج وأحفاده من صد المجموعة
المهاجمة وهي تصاول لفتح باب البراية المقابلة للوادي.
أرضعوا على الخراج. ثم خرطوا في مواجهة المجموعة
القائمة من الشرق.

تركزت المقاومة في الأحياء الغربية المشرفة على القرية
كلها. الشيران نصبت على المهاجمين من أربعة مواقع: من
بيت على قاسم في أقصى غرب القرية. ومن بيت محمود
رضوان وبيت أخيه حسن رضوان في شمالها الغربي. ومن
بيت أبي على صلاح آخر بيوت القرية في طرفها الشمالي
الغربي (لم تتوقف المقاومة من هذا البيت الأخير إلا عندما
وصلت وحيدة من الهاغاناه بمفصين اثنين بوصة فصلت بهما
البيت).

الحاج محمد محمود أسد:

استطاع على قاسم أن ينحر المجموعة المهاجمة من جهة
الغرب قبل أن يصاب إصابة خطيرة وينقل إلى عين كرام.

حسن رسول:

استقظت على صوت الرصاص والصراخ، خرجت
لاستطلاع الأمر. أخذت بندقية من ابن جري. استحكمت أمام
الدار، خلف جدار يُشرب على القرية كلها وعلى الطريق
الرئيسية من جمعات شاول. كانت بندقيتي إنجليزية من مصر
يحتوي مخربها على خمس طلقات. وكان في منزلي حوالي
ثلاثين مخرباً اثريت ذخيرتها من هنا وهناك ومن بعض
أهالي القرية. عند طلوع الشمس رأيت اليهود يسكنون من
الشرق، من عند بيوت زهري. كانت الساعة حوالي الخامسة.
لحنت أطلق عليهم النار وهم يردون على في حوالي تسابعة
انضم إلى جمعة زهري وحلويل سحر وأنواء عبد المجيد وعبد
المعبد.

في الساعة صباحاً أرسل المهاجمون في طلب التجهدة.
جاءتهم من جمعات شاول. أسلحة. ذخيرة قنابل يدوية.
مقننات. وحدثين من كرات الهاغاناه ومدفعا هاون.

روهن غروبورغ، من رجال الإنسيل (الإرغون)

كان العرب يقتلون كالأسود، تفكوا عثيا في دقة القمص، كانت السماء
الحريات يركس من بيوتهن تحت قصع النيران ويجمعن الأسلحة من
المصابين من مقتليهم ويحملنها إلى البيوت

يهوشع غولد سميث، ضابط صليبات إنسيل؛

فكرنا في الإنسحاب، كانت المقاومة شديدة ولا نستطيع
إخلاء جرحانا بسبب كثافة النيران. اقترحت جميع القوة
لمهاجمة كل منزل على حدة، يطلق عليه النيران بكثافة وتحت
سائر النيران بتقدم حملة المتكجرات لنفسه.

بتحيا زيفانكس، قائد قوة ليحي (ششيرن)

تقدمت كل مجموعة إلى الهدف، نسفنا الأبواب بأصابع
علمانيت. قلنا قبل يدوية إلى داخل الدور ورشقناها بالثيران.

مورنداي رعان، قائد الإنسيل في القدس - شارك في الهجوم:

في الساعة الحادية عشرة نسف المنزل الأول، بعدها بربع
ساعة المنزل الثاني. هكذا كل ربع ساعة منزل. اعتبرنا كل
منزل حسبا قتلنا بذاته.

كلمان روزيلايت (من رجال الهاغاناه الذين جاءوا لاحقا لمجدة المهاجرين):
التيبا القليل البدوية في البيوت قبل أن ندخلها.

ديفيد هوتليب (من رجال ليحي):

حقق رجال الهاغاناه في ساعة ما لم نستطع تحقيقه في عدة
ساعات، كان معهم أسلحة جيدة ولديهم خبرة قتالية.

العاج محمد محمود أسعد:

في حين روس، تحت شجر الزيتون كان يتواجد العديد من
جنود جيش الإنقاذ العربي الذي لمسحب من القسطل، طلب
منهم أهالي القرية للفارين من الموت تجدة القرية. كانوا
يسمعون نوى المدافع، كان ردهم: "لا توجد لدينا أوسر
بالشكل".

زينب محمد اسماعيل صطية (أم صلاح):

والذي وصي تتركز فوق سطح المنزل... تلبها إلى أن
الجنود يقتربون من أبو العبد صلاح. كان يتوصأ في حوش
داره المقابل لدارنا. حسذره فهرب إلى بيت أخته المجاور. ولكن
الجنود داهموه وقتلوا كل من فيه. كان جندهم ٢٧ شخصا. إينة
أبو العبد صلاح وزوجها وحماها وحماها وبخوة زوجها

وعائلاتهم... أطلق والدی وجدی الرصاص فی اتجاه الجنود
فتتلا قائد الكتیبة وبعض الجنود، كصفوا الدار بمدافع الهاون،
قتل والدی وجدی على السطح، اقتصموا بوابة الدار وطرقوا
الباب. كنت مختبئة أنا وأطفالی وأخی الأصغر موسى. قالوا:
"افتح الباب" لم افتح. رموا قنبلة فأصيبت ابنتی مريم فی
قدميها. دخلوا البيت. أغوى موسى كان عمره ثلاث عشر سنة،
محبوبه من شعره إلى الحوش وركلوه بأرجلهم. أخرجت ٢٥٠
ليرة من عتي وقدمتها إلى أذههم مستجيبة أن لا يطلق عليه
الرصاص. تناول القنوس بيد وأطلق الرصاص بالأخرى. ثم
صرخوا فی وجهها يا أولاد الكلب اطلموا... هربت طفلتی مريم،
كان عمرها ثلاث سنين، عندما رأت اليهود يقتلون خالها
موسى إلى زوجة أبی فی الطابق الثانی. وجدتها مذبوحة
فسهرت إلى الطابق الثالث. وجدت خالها محمود يصرخ، طلب
ملها ماء... روت لى والدتی رحمها الله أن محمود ووالدی
بقيا على قيد الحياة مدة ثلاثة أيام.

نزیهة أحمد أسعد رضیون:

دخلوا البيت، رجلان وامرأة مسلحين، قتلوا عسى رضیون،
وضعموا أنا وجدتی وأخی عمر فی كفن الدجاج. ساروا نحو
القرية. كان عمر عمره سنين وأنا ثمانية. حملت ستي عمر
على ظهرها واخذتنا هير بمائتين الريتون لنذهب إلى عمتی

بسمة فی دار زهران. قاتلنا يهودی، أطلق النار على ستي.
سقطت على الأرض. سقط أخی عمر عن ظهرها. ركمت
إلى دار عمتی بسمة. كان الحوش على وسعه كله جثث وباب
الدار محروق والدخان طالع وعتی على مدخل البيت مرمية
ومن حولها جثث بناتها وابن عمتی فحسى، عمره ثلاث سنين.
تحت رأس عمتی بركة دم ورأسها مكشوف وشكلتها مرمية
جنب رأسها. سمعت أنا من الدخول وكنا من الباحية الثانية.
لنايت فاجابنی صوت يقول: "أنا فاطمة" فمرقتها لأنها بنفوس
هزري وكنا نطمع موسى. سألتنی: "أنت موم؟" قلت لها: "أنا
نزیهة" قالت: "تمالي، أنفلي عدي"، قلت لها: "ماقدرش.
بينكم محروق، تمالي انت برة" قالت: "ماقدرش. راسی
مكشوب، فيه دم. مثل قانزة أمشي". رجعت إلى عمتی
وضعت يدي على جبينها ورأسها. حسنت عليها، لقيت إيدي
وشعري عليها دم. انفرغت وركمت على ستي وتمددت جنبها
وجنب عمر، وبمست.

نسة زهران (أم محمد):

حطوا المدفع النماحة لثين ونص. أول قنبلة، ثانی قنبلة وثالث
قنبلة... الزمعة بعيد منك كيف النار، الذخيرة، لا احنا نشوفهم
ولا هم يشوفوا. قال: افتح يا خنزيرة. قلت ما بفتش. صرخب
الحامسة صارت الدار عليها مثل الطابون، بقلنا نشوف بمصمما.

قال الفتح يا خيريه، قلت يفتح يقتل الأولاد، قال: ما بئالئ
 جدا... هات على القلب الذي يقدم على الباب. صرنا زى
 النسايبين. رفعت الرشد وقلت هي موته واللا موتتين. إلا ما
 استرجى يموت ... قال يا خيريه هيك وهيك محمدك ودينك
 ...

أخذوا على دار خالي مصطفى وحنونا هناك، لقبت مرة أحمد
 سعد جابر: بـمرة عسى وريسى دار أبوى. قالت شو تشوفى
 قتلهم ٢٧ نسمة كوم.

تفنا فى الطريق أبو جبر وأبنة خليل رشيدة فى طريق دار
 أبوى مكوين الثلاثة عسى وجوههم. . قلت يا بنت عسى خديسى
 دار أبوى، قالت وين تروحى إذا رحسى بتموكسى، ٢٧ نسمة
 كوم. بنت صغيرة فى السرير قتلوها.

حنونا فى دار خالي مصطفى الساعة ثلاثة بعد الظهر.
 جابوا العلم الأبيض وسدو طح وحرقوا البلد حرق، حطوا، أصلام
 بيضا إسمهم استحلوا البلد. جابولنا تركت ديزل من البلد، من
 الكبار.

جمونة على (لم محمد):

إحنا لما طلع قعدنا ثلاث أيام فى بعض البلد اسرى عدهم،
 بعد الثلاثة أيام فتحوا البابا علبا وأطلعونا... وصلونا عند
 الباص. لما وصلنا عند مغرق الباص فيه كوم من أهل البلد

الباص. لما وصلنا عند مغرق الباص فيه كوم من أهل البلد
 مقوليين بيحوز ١٠٠ أو ١٠٤ أو ١٠٥ مكوين فوق بمصمهم.
 اليهودية أخذت ملقى وقتلته وحطته هناك عند الكوم.
 وكان ٥٠٠ مسلح فى حين كارم وما علمناش على بلنا واحد
 وساعدنا.

وظلمنا فى التركات وجابولنا برتق ٥، وقالوا يا خيريه بلنا
 بنشق حلوكم ولو اتكوا بتدبعونا ذبح، ركوبنا التركات.
 ...أخذونا على محلها يهودا، كان. يتكسوا الألباجور يقولسوا،
 على المسلح، ناس يقولوا على الحريقة وباس يقولوا على أبو
 جبة. جينا عازفين ميس أبو جبة ١٢ سفونا للجنة القومية هناك،
 للجنة القومية حطونا فيها، كعدنا شهر عسى القدس.

أبو توفيق اليمس:

أخذوا أربعة عشر شقصا إلى لا ساجر وأطلقوا عليهم
 الرصاص. رأيت ذلك بأى عولسى.

ألقوا بهم فى البحر، بلر الجورة رفعا علمهم على بيت
 محمود صلاح فى الأعالي الغربية لاربية قفنا منهم أنه بيت
 المغتال. فتشوا البيوت بنفة أملا فى العصور على مبال أو على
 ذهبية. نقلوا المون. لاحظوا الفجاء والماعر والأغنام المسالبة
 فى أزقة القرية ونقلوها إلى الأحياء اليهودية فى القدس. لم

ينبغي سوى شيء واحد: نحن الجثث.

حمولة شحادة: من عائلات سمور وزودان وحمدان وصيد
الله.

دفعوا أحد عشر رجلا وامرأة وطفلا وطفلة من حمولة
جابر.

دفعوا تسعة رجال ونساء وأطفال من حمولة حميدة.

ثمانية من دار حيد.

سنة من دار حسين.

دفعوا حيد الثران وابنه وثمان من الخليل.

دفعوا المظمة حياة البلبسي التي وصلت إلى طريق حين

كارم ثم ولدت ولدت: والله أنا مستحي من هالي واجبي

بهجت على أني أرجع وأسطع لجرمي على الأقل. ورجعت

وما كنتش الطريق.

موشيه بركيلي (من لص):

الأحد عصرا: صبيبا ثلاثة أوعية نط على ثلاثير جثة في
الشوارع الرئيسية في القرية. بعد نصف ساعة أتركنا أن هد
مستحيل.

شمعون مونيتا (من الهاغاف):

اعتقدنا أن الجثث ستشعل. ولكن لا يمكن بحراق جثث في
الهواء الطلق. ولقد بنى اللاربيون من أجل ذلك موكدا خاصا
يشتمل بدرجة حرارة عالية جدا.

يهوشع أريائيلي قائد لواء الجندا:

لثلاثاء صباحا: دفنا حوالي ٧٠ جثة في قبر جماعي. لمسد
مجموعتين من اليهود في كل منها حوالي ٢٠ جثة.

أحضروا لهم قفازات. معاطف والية. كمامات لتغطية
الوجه.

دفعوا أربعين رجلا وامرأة وطفلا وطفلة من حمولة هنل:
عائلات رضوان وعظيمة وزهران.

دفعوا واحدا وثلاثين رجلا وامرأة وطفلا وطفلة من

الدليل؟ لا دليل سوى الحس. ولكن هل يأتي الرد مبرراً وفورياً إلى هذا الحد؟ ومن الذي قرر: مسئولون في جهاز ما يعملون من مكاتبهم على بعد آلاف الأميال أم شخص جن جنونه فاتفق هذا القرار بشكل منفرد وبغذه أو أوكل إلى غيره مهمة تلكهذه؟

تطلع حيط أفكارها. تمشي في الاتجاه المعاكس. حادثة، مجرد حادثة من آلاف الحوادث العابرة، يتعرض لها إنسان ما في مكان ما، تصيبه مصابة وقد تصيب غيره، كيف تفسر الظرة إذن؟ رجل صاى تماماً تضيق ملامحه في زحام المحطة وقسائم الكهربائية وأرصعة القطارات. هل تتبعها حين ركبت القطار؟

جلست على طرف المقعد تعد نفسها للتوأم في أية لحظة، تنقل عينيها بين الخريطة المرسومة فوق الباب إلى يسارها والبلدة إلى يمينها، وتوقف للقطار، تقرأ اسم المحطة على اللوحة، يمشى القطار. تنتظر المحطة التالية. هل كان ينظر

إليها من حين لأخر؟ ربما التقت عونهما فجأة، ارتبك.
لاحظت واستغربت، لم تطل التفكير في الأمر، واصلت تتبع
المحطات، محطة أخيرة ثم تحرك القطار، كابت وانتظرت
بالقرب من الباب، توقف، نزلت.
بدأت أشتت أعينها في السدود أمامها، قال لها زميل من
زملائها:

كلّك تصعبين رأسك في عشب النهاير، مدوة عن مارتى بوهر
بمناسبة مرور أربعين سنة على رحيله، سيكون الحضور صباهة
يذهبون أنسهم يساريون وقديميون، باختصار حرقه دم بلا داعي.
ما للأصبي؟

- لن يكلفني الأمر سوى ركوب القطار ساعة للذهاب إلى
كامبردج مساء الجمعة وساعة للمودة منها، مساء الأحد.

- وجهد البحث؟

- لدى ما أقوله في الموضوع، أرسلت لهم العساوي وملخصا
من ملتي كلمة وأرسلوا لي بالموافقة على المشاركة.

- رينا يسترا

ما الذي يشناه؟ نخوة عظيمة، أوراق ومكتبات ثم يذهب كل
إلى حال مسويله.

الجمعة مساء: للشعب الأعظم، ملتدة مستطيلة، طماء
أبيض، الكنوس والمثروبوات، أكاديميون، مجموعات صفيرة
تتجدد بهوء حتى تتبدل، هذا يتحدث مع ذاك فيخلق بهم ثلث.

فائق، يلتفت الأول لشخص ما، يذهب إليه، يسير في
الجماء مجموعة أخرى، ينسأ واحد منها، يتجه إلى ملتدة
المثروبوات، في الطريق يتوقف ليتبادل الحديث مع زميل له
يصرخ عليه سابقاً أو آخر يتعرف عليه الآن، من مصر؟
طمت دننا بليلة مصر.

المسبت: ثلاث جلسات، ثلاثة محاور، أوراق عن بوهر في
الجماء: تكوينه الثقافي، دوره في مواجهة النازية، فكره
الاشتراكي.

الأحد: ثلاثة محاور: بوهر: الدين والمهانة، العهد الأخلاقي
لصهيونية بوهر، بوهر وحرب فلسطين.

قرأت شجر ورقتها، جاءت التعليقات على ما توقعت: فشلت
في فهم المشكلة اليهودية، فشلت في فهم بوهر المفكر الصهيوني
العظيم الذي ناضل من أجل إعطاء حقوق متساوية للعرب في
إسرائيل، اتهامات بمساعدة النازية، بالفتنة الموضوعية، بالرواية
القومية المتعصبة، 'بروغيسورة' ضد الفلار، كتبت كتاباً عن ديو
ياسين، هل تلمين لي بوهر أذن المدحجة؟! لقد أذن المدحجة!
أصرف ياسيني، كان كريماً مثلاً في ذلك؟ تكلم رئيس
الجلسة: 'أرجو عدم المقاطعة، ستمحك فرصة للتعقيب يا
بروغيسورة ضد المعار'

أعطاهم رئيس الجلسة الكلمة، قال حمس فائق فقط،
شكراً، لا أحتاج سوى دقيقة واحدة: تنوغل في خطاب بوهر كل

صانعو الخطب التكلوبالي: المهمة المقدسة لشعب مختار
ينشر صوته الحماسة في صحراء البداوة، يتكلم على أهلها
بالصباح لهم يأخذ وجودهم في الاعتبار. وعلى أي حال يسعى
ويشركي أن أربط بعقدي حتى لو كان في رويتنا الثالثة
للقضية الفلسطينية. شكر^١

ما الذي دعاهم للاشتراك في السجود؟ ليس العمل مبررا مقبولا
لعمل ككاهن. نشر الورقة في وقائع السجود؟ كان نشرها متاحا
في تورية متخصصة دون أن تكلف نفسها ضياء العصور. لم
تجد بجاية مقبلة. أغلقت التلفزيون. أصمت كوبا من القهوة.
جلست إلى مكتبها. ترجمت رسالة عفا. في اليوم التالي
واصلت العمل: ترجمت رد بوهر. بعد أسبوع انتهت من
ترجمة النصبين وإعادة صياغة بحثها باللغة العربية. وضعت
المخطوطة في مظروف وأرسلتها إلى يوسف في القاهرة
وفوضته في نشرها في كتيب. لم تجد إجابة على سؤالها إلا
وهي عائدة من مكتب البريد. هريب، تمتعت شجر، يبدو النرا
تلقائيا وهو يعمل هذا الأمر أو ذلك ثم يكتشف أن ما فعله
معكوم يمتطى متفهمك وإن لم يمه. مشروع الكتابة عن بوهر
وعفا. المشروع الموجل مفد مسولات، حرص بضمه فجاء.
بسبب السجود؟ لم تكن السجود سوى تكتة. كانت ترد صميا-
وبشكل مباشر أيضا- على الشعمة المساعدة حول ثقلة للسلام
وحولة شاتية القومية كحل للمشكلة الفلسطينية. لا جديد. أتكلم

طرحها بوهر قبل مستين عاما. لم تتطبل على السهدي الفحيل ذي
المصدر الماري والرأس الحليق. نظارته الطبية جيدة الصمم.
مكتفه أن يرى من هناك، من الهد البعيدة، مالا يستطيع رؤيته
بعض المتعفين العرب الواقفين على بعد أمتار من خط النار.
في نوفمبر ١٩٣٨ كتب عفا:

فلسطين للعرب كما لي إنجلترا للإنجليز وفرنسا
للفرنسيين... إن التصديق على العرب المعروفين بالكبرياء
لإحطاء فلسطين لليهود جرنيا أوكليا لتكون وهذا قوديا لهم
جريمة ضد الإنسانية.

إن السبيل الأكثر نبلا هو الإمبرار على معاملة اليهود
معاملة عائلة حيثما ولدوا وتربوا. إن يهود فرنسا فرنسيون كما
أن مسيحيها فرنسيون. وإن لم يكن لليهود وطن فهل يتقبلون أن
يُرغموا على ترك بلدان العالم الأخرى التي استقروا فيها؟ أم
لهم يريدون وطنًا مزدوجًا، فيقررون العيش هنا وهناك حسب
هوامهم^٢.

لقرت إلى بوهر:

السلام إليك والسلامة	من هنا ليوم اللقاء
يللي أظهرت الكرامة	بعد عهد المرسلين
يللي من لعبك بمغرل	تطلع البورصات وتقول
فوق دماغ لندن، وتعلز	لأنكشاف المراكيبين ^١
فيلسوف ما يخبش قولك	كل قلبك في نورك

والتلاميذ إلى حوزك
لتجليز عايشين في لذة
وانت تصريهم بمحزة
بالملككك شفاوون
صدهم أسطول وعزة
سودا بنت أربع سنين

مسودة إنجليزية عابرة تصدق فيها باستعراپ. اتبتهت شجر
أنها كانت تنقى للتصيدة بالصوت المسموع، هل كانت ترفع
صوتها وتحرك يديها؟ ضحككت. اتجهت إلى مطعم أنيس.
أكلت. هانرت للمطعم. السماء رقيقة وكتلك مزاجها. تنسى
أضية قديمة لعبد ألوهاب. تكسرت سبت جشئين واحتجاجها
المستمر كلما سمعتها تنسى. الله يرحمها. كانت على حق. أنشز
واغى بصوت عال. لم تردعها لفكرة. واصلت الغناء.
قطعت الطريق من المطعم إلى بيتها في ساعة. الوقت
مأخر والمارة قليلون. لم يحدث شيء.

بعد أيام، زيارة وميلدون. لا تصرف المكان. القطار. الرجل.
تعالول تذكر ملاحه، لا تذكر سوى ارتياكه لحظة التفت
عيونها. لا، نعم ارتباك رجل تنقى عيانه فجأة بميسى لسراة
يتطلع خلفه إليها. ارتباك نعره، لم تفهمه. غابرت القطار ثم
المحطة. اتجهت بمسا في الشارع العمومي كما لو صافها
أصدكلاوها. مرت بمفرق، مفركين، صد المفرك للثالث وجدت
لافة مصيرة تحمل إسم الشارع. على وشك الوصول. اتعلقت
بمسا إلى الشارع. خطوات معدودة. بدا لها أن حجرا وقع
عليها. سقطت على الأرض. هل سقط عليها مزبد من الأحجار

لم أن أحدا يضربها. لماذا؟

لم تنلق شجر بناجي العلى. لم تكن تعرف وهي في طريقها
إلى أصدقائها في ميلدون أن بيست نأجي، الآن بيست وداد،
أولمائه، وأبائنه الأربعة غاك وإيال وجودي وأمامة، في نفس
الشارع على بعد خطوات من المكان الذى تقصده. ولو كانت
وداد في تلك اللحظة في طريقها إلى محطة القطارات أو البقالة
في الشارع العمومي لسمعت صرخة شجر. أو كان أمانة في
طريق عودته من المدرسة لأراها ممددة على الأسفلت وسواراة
الإسعاف تقترب واركض إلى أمه ودخل عليها لاهثا: 'يا أمه فيه
واحدة في أول الشارع ضربوها، حذا ضربها وشفتها يا أمه
مكومة على الأرض، والأسماع وصل وحطوها على
المستشفى'. ستمت وداد: 'يا وأدى' لن يلاحظ أمانة صوت
أمه- هريب كأنه يأتي من بحر صوكة مظلمة. لن يرى وجهها
المتلع. يهرول صاعدا إلى الطابق الثاني. يتوقف فجأة ضائعا
كأنه لا يعرف إلى كانت حجراته جهة اليموس أو اليسار، إلى كان
يريد أن يدخل الحمام أو يدخل حجراته. يهبط الدرج ركضا،
إلى أمه في المطبخ :

~ يا أمه وين غاك؟

- في الجامعة.

يدخل للصائون. يجلس. يقوم. يعود إلى أمه:

- هو خلد بده يتأخر؟

الفصل السابع عشر

كل ذلك لم يحدث ولكني الآن وأنا أكتب عن شجر أشوكه يحدث لأنني أعرف وداد والسلمة. أعرف المطبخ والدرج وغرفة أسامة وغرفة الصالون ولوحات ساجي المعلقة على جدره. أعرف بيتهم والشوارع ومحطة قطارات وميلدون. لكن لماذا جعلت هذا المنطقة مسرحاً للاعتداء على شجر؟

شجر الآن ممتدة على الأرض. لا تسمع الصفير المتقطع لسيارة الإسعاف. تقترب. توقف. يزلزل منها شخصان. أحدهما يلحمها. الآخر يعود إلى مؤخرة السيارة ويأتي بثقالة يحملها عليها. للرجعة. الصفير المتقطع. الضوء يظهر ويختفي. سفينة حارقة في سفلها الهللي. هل لو كنت لإريق الشاي للمطلي. على ساقها؟ هل كانت تصنع لنفسها الشاي؟ متى؟ أين؟ ألم في الرأس. تحاول أن تتذكر. تعيب.

في الطائرة العائدة بها إلى القاهرة بعد تسعة شهور من الإقامة في إنجلترا كانت شجر نفسها؛ حساب المكسب والخسارة؛ مسودة كتاب عن ١٩٥٦ اعتياداً على الوثائق البريطانية؛ بحث "علاءي ضد بوبر"، أصنافاً جدد، سائق معطوبة وعكز. لم يكن الحساب دقيقاً. عانت لتجد كريم غير كريم. هذا أيضاً يتغلغل في حساب الخسارة.

حين صدرت رواية خريطة ربط أكثر من سجد بينها وبين فلسطين واعتبر البعض أنني أتحدث من سقوط الأندلس معادلاً لصهاغ فلسطين. فاجأني ذلك الربط الذي لم يجر بهنسي سؤال لفترة كتابتي للنص. وأجبت على سؤال طارحه على أحد الصحفيين: حين أستطيع الكتابة عن فلسطين ساكتب عنها، ولا لأنني بحاجة للرجوع خمسمائة عام إلى الوراء لكتابتها ما دلت حية وحاضرة إلى هذا الحد في داخلي. وجزءاً أيضاً من حياتي اليومية. ثم أنني لم أسلم بصهاغ فلسطين ولا أملك نصياً أن أتحدث عنها عبر خريطة. فاجأت الصحفي بأن خريطة كانت معادلاً لخوفي أثناء حرب الخليج. وكنت صانعة.

ولكني وأنا أبحث في دير يائسين للكنيسة من شجر وكتابتها "الأطراف" انتهت لأنني لثوم بنفس ما قست به وأنا أكتب عن خريطة. في الحالتين كانت خريطة المكان ضرورية للعامة. مكتبي خريطة قديمة لمدينة خريطة من معرفة تفاصيل المكان؛ موقع مهر حدرو، موقع مهر شافيل، ثلة اليازيرين والقة

المقابلة حيث قصور العمارة، سوق القيصريّة، ميدان باب الرملة... إلخ. ساعدتني دراسة هذه الخريطة، وخرائط أخرى لاحقاً، على تحليل الحيز الذي تشغله وتحرك فيه شخصيات الرواية. زرت خريطة موشين بعد ذلك، مرة في آخر صيف ١٩٩٢ بعد أن انتهيت من الجزء الأول من الثلاثة ومرة ثانية في مطلع صيف عام ١٩٩٤ بعد شهرين من صدور الجزء الأول ولم أكن أجزت سوى بضعة فصول من "مريمّة" وهي الجزء الثاني من الرواية.

لم أر دير ياسين، ولم يتح لي أبداً زيارة فلسطين ولكنني رجعت إلى خريطةني ولدت الحادي (نشرها في جريدة "الحياة" مع مقالاته السبع: "المسجون عانا على ملحة دير ياسين: قرية أمام مظلمات صهيون"). توضح الخريطة الأولى موقع القرية والمستوطنات اليهودية السبع المحيطة بها. وتشير بأنهم سوداء غليظة للأماكن الأربع الذي انطلق منها الهجوم على القرية. أما الخريطة الثانية فتعبد بناء مواقع بيوت القرية وتظهرها بأرقام ترد في الدراسة بحيث يمكن للقارئ أن يعود الخريطة فيعرف بيوت هذه العائلة أو تلك ومواقع المقاومين وتحركاتهم. وقراءة متكررة للشهادات التي أوردتها الحادي و الشهادات الأخرى التي حصلت عليها أضعت إلى الخريطة المرسومة بحبر المطابع الأسود لسهما بالاحمر وملحوظات بالأزرق وسرت لي تتبع، على سبيل المثال، حركة عريزة

اسماعيل عطية من بيتها في أعلى غرب القرية إلى المرن: سهم أحمر، وبالأزرق ملحوظة: "عريزة في الثانية فجراً". أو حركة صين عطية في موقع الحراسة الأول (قبل طلوع الفجر) ثم مشتمسا مع رملته فوق سطح منزل أحمد أسعد وصوان، ثم انتقله مع رفاقه، بعد تلك اللخيرة، إلى بيت محمود رحولي (بيت عريزة) والبيت المجاور له، بيت أخيه حسن رضوان حيث وصلوا المقاومة.

كنت أعود بذلك دون أن أعرف تعديداً حاسماً المباشرة أو كيفية توظيف هذه الصورة في كتابتي عن شجر وفي كتابة شجر عن دير ياسين. ولكنني انتهيت لنسب لفضل أمرا مطابقاً لما سبق أن كنت به وأنا أعود لكتابة خريطة (أهم أن شخصيات خريطة من محض خيالي وشخصيات دير ياسين حقيقيون وبمنهم - أدلى بشهادته- فهو ما زال حي يزرق). فتكررت ما كتبه البعض بعد صدور "خريطة" وسؤال الصغلي ونفسي. ارتبكت وقد بدت لي الأمور أكثر تشابكاً وتماثلت فجأة لي كأن يقدور أي منا أن يتتبع الخيوط المكونة لتسويق حمراء: خذ مثلاً تلك المرأة وهي تتحدث في المطار في ذلك اليوم من أوائل شهر فبراير ١٩٩١:

قبل أسبوعين من ذلك التاريخ وتحديداً في الثانية من فجر يوم ١٧ يناير تق جرس قنايون في شقتها في يودابست. شقيق زوجها يتحدث من فرنسا يقول: "بدأ ضرب المراق، بينهم

يقسمون بغداداً" وتولط زوجها. يشاهدان معاً ما شاهدته البشرية المألوفة لأجهزة التلفزيون. تطهية السبي. إي. إن. خطاب جورج بوش. تعليقات المذيعين: الأستاذ بيتر أربيت، والأستاذ برنسي شو. يسمعان تشبيه بغداد تحت القذافي للمتسلطة عليها بشجرة هائلة من أشجار حود المولاد. على الشبح، أيتها، لا تنكر، إن المشهد ساحر وأخاذ!!

لن تتمكن المرأة من العودة إلى القاهرة مباشرة لأن معظم شركات الطيران ألغت رحلاتها إلى منطقة الشرق الأوسط- هكذا يسمونها، خلقتها الطائرة مع ابنها شمالاً إلى مومباسا ثم بعد عشر ساعات من الانتظار في مطار ريورخ جوبا إلى مصر. المرأة لا تكي في المطارات. يتقل الفرق. تبتلمه. يستقر في معنيتها ككرة من الحديد يحجبها جدار المعدة وملابسها. تبسم، تلوح، تقول: مع السلامة.

يقت زوجها على جنب من السور وتقف مع ابنها على الجانب الآخر. نزلوا على ركاب الطائرة. سد زوجها يده للسلام فتسببت بيده وبذات تكسي. لغت البكاء وصار نحيباً. ألسع زوجها في أن تخرج: "تؤجل السفر". هزت رأسها. مسحت دموعها. مضت برفقة ابنها إلى الطائرة.

المرأة في الرابعة والأربعين، تبدو أصغر بسبب وجهها وصغير حجمها رغم التشيب الواضح في شعرها. صادة تبدو متماثلة قوية، لعل السبب وظيفتها فهي معلمة تقف في المدرج

الكبير لتدرس مئات الطلاب والطالبات دفعة واحدة أو تشرف على طالب يدرس للدكتوراه وتقف بعد المناقشة لتعلن على الحاضرين حصوله على الدرجة. وقد يكون الطالب على مشارف الأربعين أتى معه زوجته وربما بالطفله. كبرتها الوظيفة أو تقيدها أو عشتها تربتها على التكرار للشائكة وإن كانت فطرتها وبصيرتها للضرورة. لا تمي أنهاء وهي تدوخ زوجها، تعرف بالحسن ومنطق الأبناء أنهما حين يلتقيان مرة أخرى سوف تكون هذه العزبة المشتعلة الآن قتلت لحساب أمريكا وترتبقت مقدرات المنطقة لعشرات السنين القادمة في شير صالحها.

هل أيسط؟ كما أسلفت، من يملك فصل الحبوب المتشابكة، لأن يملك فصل الفسوف من الهرمسة القادمة من وعى الهزائم المداقة؟ المرأة تكسي، يعلو بكاءها، يصور نحيبها. تبتلع نحيبها. تمسك بيد ابنها. يسيران معاً في العمر السودي إلى الطائرة. يجلسان. يربط كل حزامه. يلك كل حزامه. يقومان. ينزلان الطائرة. ينتظران في مطار زيوريخ. يتناولان الغداء. يشتركان شوكولاتة

في القاهرة تذهب المرأة إلى الجامعة. تعود من الجامعة. تفتح التلفزيون والندباع في بعض الوقت. تنتقل بين المحطات بحثاً عن الأخبار تسمع الجند منها، ما سمعته من قبل لسمعه ثمينة.

بقتله شديد في الكبد. وعشها أسها طوال ثلاثة أشهر لرميت
فيها للشرش.

كتبتة 'عوناطة' ثم 'مريمة والرحيل' في الأعشوم الثلاثة
الثلاثة أصادت للمرأة توازنها، ربما لأن الكتابة مستندت إرادة
معدية ومعطلة أمام عواصف الصحراء التي اجتاحتها بالآتتها
للعسكرية والإعلامية. مستكتب عن بشر مثلاً يعيشون بقصة
تاريخ قليل لا فكك لهم منه مستكتب النهاية. ولكن الحوص
في التاريخ (التصرف عليه ثم معرفته) ولعمل الكتابة (إن تبدأ بها
وتنتهي هناك، أن تبدأ شخصاً وزمنه ومسارته، تتدفع أو
تبطئ، تنشئ أسلوباً ثم تستبدل به آخر) أعاداً لها مساندتها على
مقدرات حياتها، وإن كان في كون من بدع الخيال.

كتبت عن عوناطة وبليسية والبشوات، ثم تكتب عن
قرطبة. قرطبة لا تدخل حيز الرواية زارتها. المدن العربية
متشابهة إلى حد التطابق حيالاً: المسجد الجامع مستقر في
رحب سباحتة والأزقة والأسواق من حولها. الأزهر في
القاهرة، المسجد الأموي في دمشق، جامع الزيتونة في تونس،
جامع الناب في مراكش ومسجد قرطبة. سارت في أزقة المدينة
القديمة، يفضي الزقاق إلى رفاق فجاء رجب من الضمراء،
حجارة عتيقة جدار عال، أسراب حمام: المسجد الأعظم. دخلته
مع الداخلين من باب الخيل إلى الصحن المكشوف، صحن
البرقان. وقفت مهددة هالة في الصحن. جاء نورها. نُشرت

كانت تجلس أمام التلفزيون، هل كان يعرض خبراً مصوراً
عن صيف بغداد أما كانت المصور للأمرى العراقي أم كانت
مقابلات مع الجود الأمريكيين؟ ربما كانت للقطات من طريق
الكويت البصرة، السيارات المدمرة والجنث. ثم كتبت أن هذه
المشاهد تفتح أبواباً في الذاكرة تندفع منها صور تتحل إلى
أصولها: قطارات تصنف: الجود المصريون في سوانه، مطار
بجروت، الميقات للفضطوية، بيروت المبالسة، صيدا
وصور والبطولة وإقليم اللقاج. نطفو صورة امرأة عارية
تمشي ذائلة في صباح غائم بارد، تعرض لهماها الحافتان في
وحل الطريق، هل هو الموت الوثيق؟ موتها؟

ثم كتبت لها مقالة على كتابة نص جديد. واصلت العام
الدراسي وأسهمت في المصنوط اليومية لعملها كرئيسة للقيم عليها
للقوام بكم من المسئوليات الإدارية لا تحبها ولا تتقنها في
ممارسة اضطرابها وحشره داخلها وإحكام تربيطه حتى يبدأ
أنها على ما يرام. في الصيف أشد الممرض بأوسها ثم مات. في
بدية الخريف، عندما بدأت المفوضات في مدريد بين العرب
والإسرائيليين، كانت الأربطة تثلث تماماً، لم تتمكن من
متابعة الجلسة الأولى التي نظمتها التلفزيون. لم تصور أن تطلع
العينين ومتابعة مشهد ما يكلف جهداً إلا في ذلك اليوم عندما
شمرت، بعد خمس دقائق من الجلوس أمام التلفزيون، بلل
لإطلاقها على بذل الجهد المطلوب لذلك. كانت مصابة

تذكروا الدخول. السائحون من حولها تنكلى على اكتشافهم آلات التصوير. دخلت من باب جلابي صغير إلى الصحن المستوف انتبهت للرائحة. تطلعت؛ غابة من الأصعدة، الكواس على أقواس، ضوء خافت والرائحة. تنبّه: البوبسات ذات الأقواس المفتوحة قديما ملئت بالحجارة فتحوّلت إلى جدار فاصل بين الصحن الداخلي للمسجد والصحن الخارجي - القساء المزروع بأشجار الزيتون. المكان معمّر بالمساجد ورائحة الكباش وظلالها. تعود إلى الأعمدة ولونها المزراغ، وودي؟ ليس نامسا. لون يزاوغ الأسماء. فمبيل جديدة بامتداد الجدران. تقترب: كور الكاتدرائية المشيدة داخل المسجد محفوظة وراء حديد القصبان. توجهت المرأة إلى الغرب مقعد. جلست. بكت.

تركت المسجد لتقدم موعد السفر إلى مدريد. وفي مدريد انتظرت موعد إقلاع الطائرة مثقلة بوطاء السماعات. تريد العودة إلى القاهرة. إلى مصر. أبة مارقلة لكن الإنسان يزاوغ ليواصل: منات التقاصيل اليومية في البيت، في الوظيفة، بين الأصحاب والأهل تقيم الصورة قليلا، نعيشها، تصور العيس، تنوّها عن حقيقتها المارئة، حقيقتها القاتلة التي طالعها ذلك اليوم هناك في قرطبة. عادت للكتابة، ولكن ليس عن قرطبة من ملكة الكتابة عن قرطبة١٢

أوقف.

هذه كتابة ماقصة، أقول. كل إمبيل حبيبي بارعا يعرف

يضحك قارئه ويضحك هو نفسه حتى وهو يتكلم أكثر لتجارب وطأة. حد مثلا ذلك المقطع القد من روليتة "الوقائع للزينة في اختفاء سعيد أبي النحس المشائيل" حيث ينقل تجربة استلاب صرب ١٩٤٨ واضطرابهم إلى ثوييه هوينسهم إيقاء على وجودهم في أرضهم بعد أيام دولة إسرائيل تحت عول كيف تحول سعيد إلى هرة اسمه "يكتب إمبيل أن سعيد كلما أراد أن يصبح عن سره ما خرج من تحت ثماره سوى قطعة ثمره. تصور روحك: بعد موتك، حلت في هرة. فمبيل هذه الهرة لتعيش في فناء بيتك. فخرج ابنك حبيبك، وتلهي بما يتلهي به الصبيان من اللعب. هاديتة فمبوت. فجزرك هاديتة طويلة، فموت طويلة. فمباك بحجر. فذهبت في حال سييك وحالك كعالم القنسى للعيسى في شعب بون: "غريب الوجهة واللسان".

'هكذا حالي من عشرين عاما أهر وأموه حتى أصبح هذا الطول يقب في خاطري. فبادر رأيت هرة توسوست: نطسها والدتي، رجمها افلا فأش لها وأش وكنا نتملأوا أحيانا'.

يصغر إمبيل حبيبي المصعكات بالمبكرات، يغلب المأمساء بالهول، تلتقط عيه عناصر المارقة منها كال الموقف مفعول. لمست كتابة ساخرة مثله، مما الفصل؟ لكن النقة شرط من شروط الكتابة واختزال الحياة إلى أمساء خالصة. مبدل إلى الكذب. مثلا، لماذا لم أقتبس الجزء الأول من شهادة رهرور؟ هبها

استعلاء طريف على ذلك الرجل الذى جاء يحنى فى دواها،
 كان خلفا ولم تكن عوطها من الرجل يتصدر أحيانا حتى على
 رواية المنجحة. بعد ربع ساعة من بداية الصرب، تحكى لمة
 زهران شعت ها الزمة بذلهب طلى (رأت رجلا يدخل
 متسجعا إلى بيتها) صبر وقال راحت البلد ... مكر الباب وغير.
 أجوا لليهود وطفوا عليها صرب... قال خلقت يومبروا عليها
 ويبيجوسا. أنا الأمانة ما خفت بس هو شعر بيه فشمع*.
 وعندما دخل اليهودى سأل: تمو بفريلك، قال زوجك؟ قلت لا.
 من عيلتك؟ قلت لا. قال زوجى. قلت يا خواجا لا هو زوجى
 ولا من قريبى... ولا من القاميليا!

لم تكن لمة زهران تصعبك وهى تمكى ولكن صلوى
 تصعبك وتصعبك المسلمين وهى تمكى من رحتها إلى أراضي
 ال ٤٨ بمد احتلال ٦٧ وفتح الأراضي المحتلة على بعضها.
 انكفت نساء القرية مع سائق يحملهن فى أوتوبيسه وبأحدهن فى
 جولة فى فلسطين التى صار اسمها إسرائيل والتي حرم عليها
 زيارتها من ذلك التاريخ. ركبن وتحرك الأتوبيس غربا. لم
 فخرى لم عطا جليستا متهاورئين. تتعازمان بين حين وآخر
 على الشوق. تخرج عريزة العلية من جيب ثوبها الفلاحى
 وتقمه إلى أحشائها، وتكون أختها أيضا مدت يدها وأخرجت
 علبتها. والله رعو طلى أحسن يا عزيزة ياخنى! فمن جربى ها
 الر حوطفت يا طريفة ياخنى، ما فيه أحسن منهن! تمد كل

منهما إيهامها ومسيهها فى العلية وتحصل كدرا من المسحوق
 وتكلمه فى لونها. تلمس عريزة وتلمس طريقة. تقوم وصلى
 فجأة كأنما نهبتها للعظمة، تنفت خلفها لكرى أولادها الثلاثة
 المستقرين فى آخر مقعد فى الأتوبيس، لا تكتفى بزيوتهم،
 تنادى عليهم: مصطفى، سمير، نبيل، أنتوا هان ياتنه؟ لا
 كتطير جوابا على سؤالاتها. تجلس وتلظر أمامها وتقول للسائق
 سوق يا خويا سوق!. ولم يكن السائق توقف عن السير ولا
 لنقل الباب الوحيد للباس (عن يمينها مباشرة) إلى حيث يجلس
 الأولاد. من يدري هذا زمن اليهود، وكل شيء ممكن!

يجلس السائق طريقه فى الجبال، يجد نفسه بالقرب من
 مستوطنة. لا يملك الاكتراب، يتوكف للاستعلام. القبط، ويرى
 أولاد وصلى، يحنى من السيارة. يعود السائق، يستعد
 للتحرك. كيف تتحرك بدون أبو حمار؟ الكل يبحث عنه، تحت
 المقاعد، تحت الأتوبيس، أمامه وخلفه. تمشى صاحبة القبط
 وتنادى بأعلى الصوت: يا بو حمار... يا بو حمار. يزداد
 السائق توترا ويلج: خلى الرحلة تمر بسلام، خلقت بطلعونا
 مستوطنين وبخونا! وأخيرا يظهر القبط كما اعتقى ويستقر
 الجميع فى أماكنهم وتعود لم عطا ولم فخرى تتعازمان على
 الشوق ووصل إلى هاتهما المعجبة والجملة للزمة للرحلة:
 "مصطفى، نبيل، سمير، أنتوا هان يامه؟" تراهم بسلام عيها
 فتفتت إلى السائق وتقول: سوق يا خويا سوق!

المجن لم نستخدم وسيلة تكايد بها للجندي الاسرائيلي؛ فأقول يا حواجه لو تقول للمجن يديلي كام من مكوته. الصبح وانسا بشرب للشاي بالحلوب بإحباب أشتتشيها؟ تستفيد منحه وتصحك.

لطيفة ليخسلو ثريها كن يضحكن وهن يستندن حكايات السجون. هل يضحك الإنسان بعد أن تسر وطاعة العظيمة، أم يضحك وهو فيها لأن العمىك سلاح غريب، سحري، لا يريق دماء ولكنه يجمي وأيضا يقلب معادلة القلب والمغلوب؟

أردت دائما أن أكتب حكاية ثريا حيشي، ثريا شاكر القسي اعتدا الإتهارة إليها باسم ثريا حيشي نسبة إلى زوجها فوزي حيشي. استعنت إليها ذات ليلة هناك في المجر. جاءت مع زوجها للملاج. جلست معها في غرفتها بالندق واستعنت للحكاية تصويلا. بعد سنوات سجلت ثريا جزءا من الحكاية كتابة. اعتقلت فجر ٢٨ / ٣ / ١٩٥٩. في الثالثة صباحا نكسوا بها، قاموا بتفتيش غيبت تفتشا دقيقا استخرجهم ساعتين ثم

- تعطيني معانا يا ست ثريا.

- هل هو اعتقالي أم ماذا؟

- لا هي كلها نصف ساعة وتعودين للسفر...

خرجت ولم أعد للسفر إلا بعد أربع سنوات وأربعة أشهر بالتنام ولكمال... تركت ثلاثة أطفال؛ الكبير ممدوح ٨ سنوات، وحسام ٦ سنوات، وبسوى سنة واحدة وكانت بتروصع

ثم تكن زيارة بحيرة طبريا في البرنامج ولكن النساء الأكبر منا حكمن رأيهن. قلن إن المشوار لا يتم إلا بالمسباحة في بحر طبريا. تقهقه سلوى وهي تحكي عن كتشون الختيارة الذي قرر أن يواصل المسباحة منفردا كلمشون يملى للمين، طويل وله ذكة. حاولت صليحيته اللعاق به وعندما غشيت نكتفت بمنظمة حر كته الطافية على سطح الماء. لعله كان يسمح في طريقه إلى الشام!

لم تحك سلوى لأن رمز الحكى لم يدخل حيز السبعينيات لها بذلك بالثمانينيات، أو أواخرها. الفتية في الثوارخ يولجسون جيش الاحتلال بالمجازرة والمقالبع والإطارات القديمة. ووصلت تركض بين البيت والسجن ومقر الحاكم العسكري. اليوم لأن واحدا من أولادها في السجن تذهب لزيارته، وغدا لأن الثاني اعتقل، وفي يوم ثالث لأن ولدا من رماة الحجارة دخل صدها فأعطته قميصا شير الذي شاهده فيه الجسود. 'هو اللي رمى طليا حجارة، كان لابيس قميص أحمر'. إيا خواجه رما عرقوه بالمثل ولد لابيس أحمر رمى عليكم حجر. وولد لابيس قميص أخضر جاي يروو صاحبه تكهوه بأثرة إيش؟ ومرة رابعة لأشهم داهمو شقتها فخلصت من أوراق أولادها بريمها من النافذة؛ 'وقع البورق جلي رس العسكري يم، وأنا إيش درائى انهم وانهم تحت الشباك؟' هذه المرة لم تركض ومسال إلى السجن لزيارة ولد من أولادها. ولكنها وهي في طريقها إلى

لسه.

تحكي ثريا:

'كنا زملتنا ايمون حبشي مصجوبة ولولادي برحبه لمهم حبشي... أكسبرت المسجاة بذلك حتى تصادني ووافقت، فوجئت وقت الزبارة أن السجن قليل كله. وأنا هربت وكنتا لدورة للمياه وقفت على روحى عشان أقدر أشوف الأولاد لما ييجوا يدخلوا غرفة يهون لأنها كانت بمستشفى السجن.. بصيت تقيت الديوب كلها كرميت فى دقاتك. مبيط من المباحث دخلوا واحتلوا الغرفة التى فيها يهون ومتطرين الزبارة... الأولاد حبسوا ولا على بالسهم... وأنا دخلت دورة للمياه أرتمش من الخوف على الأولاد. جاسى الصابيط فى الدوره وأخذ يغط على الباب ويقول بظلمى من جوه يا ثريا، أنا عارف إنك جوه وبقولك تعالى شوغى أولادك يامنى فخرجت وأنا فى حلة يرشى لها وأنا أصرخ ولول سادش له دعوه بهم واللى هيمسهم أنا مشرب من دمه وكلام كثير مش عارفه كى يطلع منى.. ونزلت فيهم شتمة وقلت يمشطوك يا كتر... ها يملوك إيه، هزال؟

... فبصيت على الأولاد واحتسنتهم بشدة، والسذى صابيتي جدا أن الأولاد كانوا متأثرين من رزيتى فى هذه الحالة للشادة وفا صرخ وأشم وأحسمن وأبوس كله فى أن واحد...

بعد مرور حوالى أسبوع فوجئت بحضور طاقم من الكبات الصرا وعقدوا محكمة فى قلب السجن لمحاكمة ثريا.. وبودى

على وحصرت من العنبر لأفاجأ بعقد هذه المحاكمة. حاجة تخوف، بالفعل كانت المسجاة نفسها وهى تظنرسى معها ترتش وتقول انتى صلتى إيه؟ دى لذنبا مقلوبة عليك، ووقعت أمامهم وأنا قاهى يكاد يطلع من جيبى وتكاد نقاته تسمع من بعيد، وتساكت أعضائى وطابت كرمى لجلس عليه أولا، ثم بدلوأ يوجهوا التهمة لى وهى باخصار إيسى شفت أولادى. فهتون أن ترى صرخت فى وجوههم الا تسبحوا من أنفسكم. كل هذا التهيمن لماذا؟ لتحاكموا، أما شافت أولادها، بدلا من أن تحاكموا القزازات الخطأ التى تصع أما فى السجن بدون أى نسب. دون أن يسمح لها بزيارة أولادها للإطمئنان عليهم على الأكل، إلى الأم الراتبة والأم القاتلة وتاجرة السفدرات يسمح لها بالزيارة أما نهر فلا، وتأتون لتحاكموى. وأنا هنا قول لنى سادش وأحاول ولن أسكت وأنا أهلكم بذلك من الآن. وما كنتش دريانه أنا بقول إيه ولا من هين كل الكلام ده جه على لى لى وكل ما واحد يكلمنى كلمة أرد غيرها بعشرين حتى صرخ رئيسهم فى: 'أسكتى..'. قلت له ولماذا أسكت ماذا تريدون أن تفلطوا بى أكثر من السجن، أعقد مافيش؟

تصحك ثريا وهى تستعيد الحكاية، لماذا؟ لأنها الآن وهى مستقرة بين أولادها وأبنائها تجاوزت كل ما حدث؟ هل يملك أى منا تجاوز ما حدث؟ تصحك لأنها امرأة ضحكة؟ لأنها

ملكيت لآلة الضحك وحرقت بالهطوة والخبرة نفسها وتيمنها؟

تحكى ثريا عن يوم أنكت انتصار خطاب الورق ويوم السهل للشهير . كانت انتصار مسؤولة عن حفظ الورق، ورق حريمي، خطابات شخصية مهربة، كله مكتوب على ورق البعوض، ورق لصف للدهان. الانتصار وضعت الورق على عتبة صفيح، عتبة دواء. فجأة دخل المأمور ومعه ملاحظة للسجن وبدلوا التفتيش. عتبة الدوا، الانتصار كانت خباياها في صدرها. لثاء التفتيش وقمت العتبة، خطفتها انتصار وطارت من باب العنبر إلى حوش السجن، تجرى والسجانة وراءها انتصار فتحت العتبة والتي تقدر تبلغه تبلغه والتي ما تقدرش عليه تمضممه، المأمور يصيح والسجانة تصبح ظنا مسهما أن الانتصار تبذلج السجانة تقصد الانتصار.

لم ندم من شدة الضحك.

ويوم السهل؟

ثم يكن مر على اطلاقنا موى شهور، سمعنا أن عبد الناصر مبرح لصحفي أجيبى أنه ليس في مصر معتقلين. أنا قلت فرجحت كان فوزى سنة ٤٨ في المعتقل وأعلن مصطفى النحاس أنه لا توجد معتقلات في مصر، وفي نفس اليوم تم الإكراج عن المعتقلين وخرج فوزى. قلت ربيبي لارميلات وبلغتنا الموضوع وانفقا أنا بعد انتهاء طابور الصباح لا نتوجه إلى باب العنبر بل إلى إدارة السجن، إلى المأمور، دخلنا

على المأمور فقلت ثريا أدهم- يتبسم ثريا- أصليا كنا عياها متحدث رسمي. فقلت ثريا أدهم إلى جمال عبد الناصر أعلن أنه لا يوجد في مصر معتقلين، وإنما لن نرجع إلى العنبر حتى يأتي مندوب من رئاسة الجمهورية للتفاهم معه فإيا يفرج عا لو تحققوا، فإيا مطالبا. كنا مطالب بتصوير أوصعا في السجن والسماح بالزيارات وكانت مجموعة تماما. طلب منا المأمور أن نهدأ ونعود إلى العنبر وقال أنه سيبلغ مطالبا إلى المسئولين. رفضنا، اتصل المأمور بممسول ما ثم فوجئنا بمجئ جود مسلحين رفعو طلب السلاح لتسديتنا بالمودة إلى الزنزانة، ثم يتحرك أحد منا، أغلقوا باب السجن وسمعنا البروجي. ووجدنا أنفسنا معاصرين بين الجنود المسلحين وجيش لخر من السجانات والقناتات وباتعت المندرات... اجتمع كل ثلاث أو أربع ممن على واحدة منا، يجذبها من شعرها، يوكمها على الأرض ويشبعها صرنا وركلا، بالأمس، بالأمس وسهور الجلد والحرارات. وأي وسط هذا الهول- تصحك ثريا، تلهقه- بدأت أهتف: تسقط سياسة المعتقلات تسقط سياسة الكذب والتفاهق. تسقط سياسة الظلم والإرهاب. أهتف وحين سحلت على الأرض ويقف بنا واحدة وراء الأخرى إلى داخل العنبر. ونحل أن تعلق السجانة غينا باب العنبر تملكك تيلي شعوب- كانت ليس حجمها صغير والسجانة طويلة وعريضة وري المحيط- شئت ليلسي طولها وشئت على طرطيف صولعها

ورفعت يدها و"طراخ" على وجه السجالة.. وبمدها لما جاءت بعثة تفتيش على السجن وكانت من بين أعضائها سيزا لير لوى وضموها في غرف وراء السجن . أغلقوا علينا الأبواب والولائد ومسمروها، وبحث أصولنا ونحن نصيح. ولكن لم يسعنا أحد."

لم تمكث لطيفة الزيات في حملة ١٩٥٩ إذ كانت تركت العمل المبني المنظم قبل ذلك بعدة سنوات. اعتقلت عام ١٩٤٨ ثم اعتقلت مرة أخرى ضمن حملة الساعات عام ١٩٨١. كان الزمان يتغير وكما تقدم: لم يدم الاعتقال أربع سنوات ونصف بل خمسة شهور، ولم تتعرض المسجونات لمثل وضرب أو نوبات تكدير ولها كان مسموها لهن يطلقن مأكولات من الخارج وبعض المجلات والجزائد. ويقتصر الإصناف القبول إن الحكومة توخت للمحل هذه المرة فلم تقتصر في اعتقالها على الشيوعيين والإسلاميين وحدهم بل وزعت الاعتقالات بالقسطن على كافة القوى السياسية، وعلى الأقباط والمسلمين، وعلى الرجال والنساء ومنحت الجميع خدمة إعلامية مجانية في الإدارة والتلفزيون وفي الصحف الأولى من الجرائد القومية.

في لقاءاتي الأولى بلطيفة الزيات استوقفتني مبعثتها. كانت المرأة مبعثتها المتلاحقة المفاجئة أحيانا والعابثة دائما تدهشني ثم عدلت لا تدهشني، لنفسها وأحببتها، أقصد لطيفة

ومبعثتها معا. كانت دائما تصحك، ولكنها وهي تحكي لي عن تجربتها في السجن، بعد خروجها وعودتي من المجر، كفت تصحك أكثر، في سيرتها الدافئة "حملة تفتيش: أوراق شخصية" انشغلت لطيفة بالتعبير عن جذبية السجن والحرية في وجدانها الخاص وتاريخها الشخصي. ولم يكن هذا الموضوع مجرد فكرة تستكشفها لأنها تخصها وتهمها بل خطا، هكذا قلت، يجمع ثيوارد العمر ويربط السابق باللاحق. بدأ لها قلبه مسألة حياة أو موت. اسمعت، سمعت الصبحك، بمسوته في الكتابة ولكنه لم يسقط من رويتها الثمينة. مستضحك لطيفة الزيات من نفسها ومن زميلاتها في الزبالة وهي تحكي فيبدو الأمر كله مسرحية هزلية، لا أبس كوميديا سوداء، رغم قناعة التهرب، بل كوميديا مذهشة تعيد حكي الوقائع بتفاصيلها من شوائب الفوب والفرارة والصعاب الصغيرة. تهلل خلفه الحكاية وشاعفتها وقطرة الإيمان على الانتصار بالمحك.

لطيفة، على مشارف الستين، ممثلة، ليس بالمعنى المجرى وحده لكن بالمعنى القملي لجسد على قدر من البذلة، تحكي عن السجن. يعلو صوتها في ضحكات مقطعة متصلة متصاعدة. يهتز جسدها، وتدمع عيناها وهي تصحك وتصحكن من نفسها من سجن وهذا من صدوقنا التي قد يكن معنا جلسات يستمن إلي ما تحكيه. تسخر من سلوكها، الهستريا المفاجئة التي أصابها لأنها لم تجد ثوبها، الثوب الذي حفظه بعناية

وصافته بكل الحرص، الثوب الذي يليق بها وبمؤولها... أمام النيابة... للتحقيق!! تقولش تاج الملك صاع منى؟ أزعق وأضائق وأقول للتمتاز راح فيرس، فيرس للتمتاز، التمتاز لتبرق! وتنتقل حالة لهستقريا إلى ليزنزة ويسود للهرج والمزج ليمس لأن مصر صامت واللا فليطين، لأن فليتنى إتصق!! ماتموتش، لاقيته مكانه. كنت لسيت حظيته فين!

وحواطف دخلت علينا الزنزاة بعد ما قصصوا عليها في المطار. لأيسة جزمة بكعب عالي ومطاف مطر لوسه بسى، أضر أليقة! فحبت الشبعة وطلعت عليه شيكولاتة سويسرى وفحتها! انفصلنى يا دكتور، انفصلنى يا أمينة... كأننا رايحون نبارك لها بجوار ابها ويتخلفا... فى المسج! ولما طلبوها فى التحقيق ليست وتطق وتراحت وجئت. غير يا حوطف؟ قالت:

- ولا حاجة مافيش حاجة خالص!

- ولا أى حاجة؟

كان وشها مزناح ومطمئنة أضر اطمئنان، قالت لها:

- طوبى تعالى القمى واحكى بالتفصيل، احكى مس الأول وبس بالتفصيل.

فى وسط الكلام قالت:

سألنى المحقق إى كنت حضرت حطة سفارة كذا يوم كذا قلت حضرت هم بيم موسى كل سنة وبيبقى فيه أسكدة جامعة من أمثالى وصحفيين وديبلوماسيين وكتاب. شلفت يسا دكتورة

لطيفة مفيش حاجة.

- ماسكش غير كده؟

- لا!

- متأكدة؟

سأل: كن فيه عسكريين من أهل البلد؟ قالت كان فيه الملحق العسكري وغيره.

تقول لطيفة وهى تصمكه: تعلمت!

- إيه يا دكتورة فيه إيه؟

قالت لها:

- إزى مفيش حاجة، حيلقولنا تهمة تعابر مع دولة أجنبية.

استعنت حوطف الفكرة وربما بدا لها إنى خزلت، وطبعاً

طلع كلامى مطبوط. اتهموا بالتخابر، إنما اتسمعى ومعنى

سمونا قصبة النذجة؟! سألنا تقاضة تقاضة، معنى لو كانت قصبة،

لبيطخة كان فرق؟!!

الفصل الثامن عشر

وكريم؟ لم يكن يملك آلة التصحك في ذلك المساء ولا في الأيام التالية. جلس على المقعد المجاور، القهص مزرر حتى أعلى الياقة. تبرز منها رغبة نحيلة تحمل الرأس في استقامة مكلفة. المعلقان مضمومتان وكذلك الذراعان ملاصقتان للجدع حتى المرفقين ثم يثنيان كمنحني مثلث ينهيا بكفيس متشابهتين مرتكزتين على المعلقين. بدأ الولد في جلسته متطاول الجذع نحيلًا، يشق الفراغ فوق كده وهو يقتطع منه حيزًا لوجوده، تطلعت شجر. تناول قراءة جلسته، هل صغر كغناه أم يبدول أصغر لأنهما مشدودان لأعلى؟ والمسافة بين عيونه، كيف تقرأها؟ خطوط لوجه دولتر معلقة، العيسان مفتوحتان كأنها أيسه، كيف تقرأها؟

لم يصحك كريم. لم يحك. لأن الواقعة قريبة، مكشوتها الحارقة ما تزال في جسمه؟ مهينة يرجعه لسترجاعها؟ الضرب الحوري، تكسير العظام، الكلاب، التعذيب بالكهرباء، من احتل توازنه وأقد عقله ومن ينطوّر الإفراج عنه بعد خمس سنوات

من حكم المحكمة ببراءته، لم يحك لها كريم شيئاً من ذلك. كل مجلس صامتاً، وليس يتحدث في غير ذلك من الأمور. ربما أراد حمايتها فترك لها مساحة من وهم يسمح لها بأن تقول 'كأن كريم محظوظاً لم يتعرض لما يتعرض له الآخرون'! كل أنه سيجي لها يوماً ما. بعد ستة أشهر من الإخراج عنه فصر عليه مرة أخرى.

تمتعت شجر: يا إلهي، أي بذيول؟ في مجلس القسم دافعت باستماتة عن تعيين خليل. أحيته لدكتته وتفوقه؟ وثني آخر أيضاً، شيء كالانتباه، انتباه الروح. برزوه في مكتبها، يستعير منها بعض الكتب وأحياناً يستأجر في الجلوس لمناقشة موضوع أو آخر معها. في السنة الثالثة استبدل خليل بثيابه المعتادة جديداً أبيض قصيراً وطاقية. أطلق لحيته فاكتملت الإثارة. لم تعلق. تركته وشأنه. في نهاية العام، وفي العام التالي أيضاً حصل الولد على أعلى الدرجات، الأول على الدرجة.

قبل مجلس القسم قامت لها زميلة محببة: "هل رأيت خليل؟ تحدثت معه في أسر الجليل، ألهمته أنه من المستحيل أن يعينه الجامعة وهو يطلق لحيته ويرتدي جديداً وطاقية. كنته باستفصاة، ولحمد الله ربنا هدها وسمع لصيحتي". كانت الآن تبسم مذهولة بإيجازها: "رأيت اليوم في الكلية وكان يرتدي قميصاً وبطلسون. احتفظ بالحيوة، بسيطاً!"

جلسة عاصفة. القسم الأمسكة بين ترشيح خليل لتعيينه في

وظيفة معيد ورفض ترشيحه. دافعت الزميلة المحببة عنه كقائلة أنه سيبدأ ويعود إلى عقله. أرسلته في بعثة دراسية إلى أمريكا أو إنجلترا فيتجاوز كل هذه الأمور الصيفية. تحدث زميل آخر عن خطورة وجود العناصر الإسلامية بين أعضاء هيئة التدريس. قال رئيس القسم: "طبعا للدكتورة شجر صد تعينه. هل استقررتها كلمة 'طبعا' أم أنها كانت مستقرة من الحوار برمتها؟ ليس من عادتنا أن نبدأ الكلام، أي كلام، بكلمة طبعا. بدأت بها: 'طبعا أنا مع تعيينه، هده من حقّه. طبعا هو الفصل لدرجيس هده العام. ثقايها: كاري من الطراز الأول. إنسانيا: ولد دمث وعلى خلق.' قاطعها رئيس القسم: 'وموونه؟' قال مهمل وهو يحذف فيها بأدهاش: 'تصورتك علمانية وبكتورة شجر؟' لم تجب عليه ولكنها قدمت دفاعاً عن حق الولد في التعيين. عيس، خلق لحيته. هذا وسوما وألقا كفتي أول في يوم سيلماتي.

مبع سوات. لم يسافر في بعثة، لم يذهب إلى لندن أو باريس أو نيويورك فتبدل ملاهيها اصطرافه. دريته ثقاهرة خير تدريس. حصل خليل على الماجستير ثم الدكتوراه. أصبح 'الشطر' المدرسين في القسم، في الكلية وربما في الجامعة. لا يصطدم بأحد، يحسن تدهير الأمور. تقلله شجر عن بعد. تريد أن تعرف هل كانت الجرثومة مستقرة منذ البداية أم أنه انقطعا من شوارع المدينة فأصلبه ما أصلبه؟ ماذا تريدس ياتشجر، لي

يبقى بلحيته والظفيرة والجلابيب؟ أن يحمل سلاحاً ليصيبه في المكان الصحيح مرة والمكان الخطأ مرات؟ ملاحظاً أو مستجيباً ككريم؟ أين هناك سوى هذه البدائل؟ تصيح شجر فجأة وهي تقود سيارتها كأنها هناك من يجلس في المقعد المجاور يبادلها الكلام. أريدته مستقيماً متزناً، لا يمالئ أحداً ولا يقول نعم حين تتوجب قولة لا. هل لطلب المستحيل؟

- خليل أريد أن أتحدث معك.

جلس في مواجهة، يفصل بينهما المكتب. قالت:

- أنا غاضبة منك.

لم يفاجأ، تطلع إليها. قال:

- أعرف.

- تعرف للسبب؟

- أعرف.

- لماذا إذن؟

- أنت اخترت أن تكوني جميلة ومهرومة. أنا فكرت طويلاً ثم قررت أنني لا أريد أن أكون مهزوماً أو ملاحظاً.

- الطريق الأسهل، والانهج!

- تستطيع الأمور يا دكتورة. يختار المرء أحوالاً أن يعمل على تعوير الواقع، يحدو له ذلك ممكناً. يتحمل أعباء اختياره ولا مشكلة في ذلك. اكتشفت أنني لا أملك تعبير ما نحن فيه ولا أرى القوة التي يمكنني العمل معها من أجل تعويره. باختصار

وجدت المطروح أن يكون المرء لها أو حملاً. قلت أكلاً
أفصل من مأكول.

هذا خارج الموضوع. أتحدث عن الإسقامة الشخصية، لمت
مستقيماً في ممارساتك يا خليل، هل أنت مستقيم؟

تطلع إليها وبثسم، طيف ابتسامة:

- ما كنته ليس خارج الموضوع. أنت شاركت في مناقشة
رسالتى، في الماجستير والدكتوراه وحكمت في العاليتين بقبول
عنى.

- لا أتحدث عن أدائك العلمي.

- أيا دلم التفكير في أدائي العلمي. هذا ما أصونه بأى ثمن.
أصونه وأصعد، وأصعد لأصونه. لا أريد أن أكون كجمال
حمدان، يعيش منعزلاً ومكتئباً ويموت قبل الأول. استترك-
يموت قبل أن يموت. سأنجز علمياً وأحسى هذا الانجاز بالمكافأة
والقوة. أيهما أفصل يا دكتورة شجر أن يكون جمال حمدان
رئيساً للجامعة أم تكتشف جثته بعد أيام فلا يعرف إلى كان موته
لتحذرا أم عزلة قاتلة تمكنت منه في البداية؟

- طربك أن تختار أن تكون رئيساً للجامعة لو تكون جمال
حمدان، لا توهم نفسك بإمكانية الجمع بين الأمرين.

لم يجب. قال إنه تأخر على محاضراته. اقترح أن يكمل الحديث
في وقت آخر.

تركته وذهب. سافرت. ركبتي سيارتها. لماذا تركته؟ هفت

بعصوت مسموع، نزلت من السيارة ودخلت الكلية، صعدت إلى القسم، تطلعت في الجدول، سئلت الباب وتستدعيه من المحاضرة، متمسك به وتربيته بالمصباحين القنصى الأمر. دور المرمى القديم؟ لما لا، الضرورة تقتضى، دقت الباب، دخلت. "خير يا دكتور شجر؟" تطلعت فيه، تطلعت إلى الأولاد الجالسين أمامه همهم. غارت المكالمات، بدا لها وهى تقصد باب الكلية أنها تحتاج لأكثر من عصا تستعين بها على السير. تشمر بإزهاق هائل ورغبة فى الجلوس لالتقاط أنفاسها.

لماذا لم تمسك بالمصباح وتسير بها عليه وتسمعه صريحا حتى توقظه من غيبه. لماذا سكنت؟ هل همها لم فيها مهزومة سلفا فلا تملك إلا أن تراقب أجمل أولادها يمزقون منها؟ من يصرخهم، وكيف؟ هل هم أطفال لا يعرفون المحافظة على أنفسهم؟ نعم أطفال، صغارا خيلت تجاوز الثلاثين، لا تملكهم، لا أحد يملك سوى نفسه. "أنا أستاذته!" صاحبت شجر ثم داست بشكل مفاجئ على فرامل السيارة، تأخرت، كان عليها الآن أن تترك السيارة وتنزل لمواجهة المشكلة. توقف الطريق. طلت أبواب السيارات قبل أن يقبل السائق باعتدالها ويساعد شجر لفانوس الذى تسببت فى تعطيله حين اصطدمت بمخبرة سيارته.

مجلس الكلية، ما الذى جدد؟ المجلس هو المجلس. ثلاثون استادا حول المائدة يناقشون جدول الأعمال فى اليوم المقرر فى

الأسبوع الثالث من كل شهر. اعتادت أن تكتب، اعتادت أن تقول رأيها بدهوء، اعتادت أن تكتب عريضا وتقريده فلا يحدو حين تطلب الكلام إلا أنها تدير عن رأى مخالف بما يليق بمجلس موقر لأمانة الجلاء. تعارض للمجلس كالمشاة لم يحدث، تركب سيارتها وتمضى. تتوكل فى إشارة مرور فترى سائقا فى سيارة مدانة يحدق فيها أو يصحبك، تنبيه أنها كانت تحدث نفسها. علق أحدهم مرة: "المجانين مسموع يسوقوا عربيات، خطر؟" أجابت: "ألمن اسوق؟"

طبع لكليل، تقف، تصيح بأعلى صوتها، يقول العميد: "اهدأ يا دكتور شجر". تزيدها عباراته شغلا، يعلن الصوت أكثر:

- القصيدة واصحة رى الشمس بأسيادة العميد، تشكلت للجنة لمناقشة الرسالة، وصلت الرسالة إلى المتعجبين الخارجيين، كلاهما وليس واحد منهما، قالوا للمشرف أن الرسالة لا تصلح، قالوا له ذلك شعريا، ومما للإخراج، وتقديرا للرسالة بدلا من أن يمد المشرف الرسالة للطالب ويطلب منه تعديلها، يأتي إلى مجلس القسم ويقول أن الأستاذين اعتدرا لانشغالهما وبشكل لينة جديدة تقبل الرسالة وتناقشها وتمنعها من رتبة المشرف الأولى، هل يعقل هذا، إلى أين ذهب يا دكتور، إلى أين؟

تدخل رئيس القسم المعنى:

لا أقبل ما تقوله الدكتورة شجر فى حق زميل غائب، لا أقبل

هذا الطعن في المصادقية العلمية لقسمنا. ليس لديك أي إثبات على ما تقولين يا دكتورة شجر!

- هذا ما قاله الأستاذان. سمعت بالأمر فكتبت بهما تطعونا. أكتفا أنهما بعد قراءة الرسالة أعادها لأنها لا تصلح.

- لم يكتبنا تقريراً بذلك!

تدخل الدكتور يوسف:

- لنفترض أنهما خطأاً لأنهما لم يكتبنا تقريراً برغم الرسالة، هل يعنى ذلك أن يعتمد المجلس الآن منح الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى لرسالة رفض مناقشتها أستاذان هما الأكثر تخصصاً في موضوع البحث؟

- المسألة وجهة نظر!

صاح الدكتور يوسف:

- ليست وجهة نظر، إنما لهم الجامعة بأبدانها!

قام واقفاً صرخ:

- أنتم تهدمونها!

تداخلت الأصوات، بعضها مستكراً ما قاله يوسف والهمس الآخر يتفق معه وإن لم يحدث حنثه في التغيير عن رأيه. رمول يقول: "هبدأ بابوسف، ستصيرك جلطية، أنت لا ترى وجهك". قام وأخذ يوسف من يده وغادرا.

العמיד يذق بقلمه على حافة كوب الماء الموضوع أمامه مطالباً المجلس بالهتوه. وأصبل رئيس القسم للمعنى كلامه:

- أقول إن المسألة وجهة نظر. لم تسرق الرسالة ليهدين الأستاذين، الله أعلم لماذا، قبيها أستاذان أحزان والمشرف تقريراً مختلفاً. لماذا تحلقين مشاكل من لا شيء يا دكتورة شجر؟!

- مشكل من لا شيء؟! نتحدث في صلب صلب الجامعة. أهمية البحث وإزاحة الأستاذ! أكرر اعتماد هذه النتيجة سبة في وجه الكلية، كارثة!

صوخوا. سبعة من الثلاثين رفضوا اعتماد النتيجة. صندق المجلس على حصول الطالب على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى. حصلت شجر أوراها وغادرت.

تصرف شجر الآن أن حدثها ذلك اليوم وانعمال يوسف والصوت العالي لكل من اعترض على توصية القسم بمنح الطالب للدرجة بامتياز لم تكن متعلقة بهذا الموضوع وحده. لم يكن الموضوع سوى القشة التي كسا يقولون- كسرت ظهر الهمير. كسرت ظهر يوسف فعلاً وليس مجازاً. كانت الكلية كلها تتابع على صفحات الجرائد ما ينشر عن أستاذ جامعي، ليس في كليتهم - ولكنه في الجامعة - سرق كتاباً لزميل راحل ونشره باسمه. أولاد المسروق لم يكتبوا في الصحف، لجأوا إلى القضاء. جاء حكم للقضاء مؤكداً السرقة. قبل انعقاد المجلس عرفت شجر، وعرف يوسف، وعرف كل الشبان أن الأستاذ لم يتحمر، ولم يهاجر إلى بلاد البلق وق حيث لا

يعرف أحد حكاياته ولا كتابه، ولم يقل في ميدان التحرير ويجزئ نفسه بعصه كقارة عن فعلته. جاء مبتسما مشرقا راصيا مرسيا يستقل التهانى لأن الجامعة عتيقه ونهسا للنسم الذى يدرس فيه. شفق يوسفا، شفت شجر، جلسا ولجمين، لم يمس أى منهما بحرف حتى قاما إلى مجلس الكلية.

للوهلة الأولى بدا لهما أن كلية والد أو والدته سقطت من الإعلان، ومع ذلك صعدت السلم على عجل وبقدر ما تسمح لها مساقها وعكازها دخلت مكتب العميد. استفسرت، لم تسقط كلية، الورقة المعلقة على لوحة الإعلانات في المدخل لتقل الثمر بدقة: توفي مساء الأمس الأستاذ الدكتور يوسف على فهمي، الأستاذ بالكلية. تشيع الجنازة ظهر اليوم من مسجد... لم تركب سيارتها، أوقفت تاكسي، ركبت، ملأت أمام البيت. قال لئوب أن المصعد معطل، صعدت الأدوار الصمصة على قدميها. لا صوت يأتي من التفتة، لا أحد يصرخ أو يندب. في المستشفى؟ أى حافلة! لم تسأل عن إسم المستشفى. طرقت الباب، فتحت ابنته تفضلي يا طيط شجر! لا أحد يركى. ليس بعد. وجوه منقصة، وجوه. لم تستبدل زوجته ملابس الآيلة الفاتنة.

- ماذا حدث، كيف؟

عاد من الكلية في الرابعة بعد الظهر، تعديبا ثم طلب منه سمير أن يساعده في واجب الحساب فجلس معه حتى الساعة

المنامة. في الساعة والصف قال لى: أطبى لى دكتور، أنا تبش، طبيب الدكتور وهو دخل نام. تصورت أنه نام، الدكتور جه الساعة عشرة، قال خلاص، مات!

بعد أسبوعين طلبها العميد.

- أصرف يدى حزنك على قد الدكتور يوسف، كان موته صدمة لنا جميعا. لكن لا أفهم أن تكررى في كل مكان أن مجلس الكلية قتل الدكتور يوسف هذا كلام لا يليق بمجتمع الأكاديمين، لا يليق بأستاذة.

- لم يكن مريضا، أصيب بأزمة قلبية من جراء ما حدث في المجلس.

- هل هو فهم عربي يا دكتورة شجر؟! أخ قلبى ويموت. قصاه وقدر، صوره المكتوب أم لا تؤمنين بقضاء الله؟

قامت، وضعت إلى الباب ثم استدارت وتطلمت فيه:

- لا أفكر على من يأتي الدور بعد يوسف، أرى النعش والمشتين وأعرف أنها الجامعة اتى في النعش، كماوس أراه كل يوم، أراه في الصبح وليس في المساء يلبانة العميد!

طرقت الباب بدهف، انصرفت مهزولة فتعثرت في العصا، سقطت على وجهها، أعانها الساعى على القيام، حصل خير يا دكتورة شجر.

طفت أنها مصابة بالتهاب في الكبد ذهبت إلى الطبيب، أجرت الفحوصات المطلوبة. قال الطبيب: الكبد سليم، وكل

وطالعه ممتازة. كيف تضر هذه المرأة في الحلق؟

لا أحد لخسارتها في رجل يوسف. هناك زملاء آخرون،
تحبهم وتحترمهم ولكن يوسف، من مثله؟

جاء خصيما إلى لندن لزيارتها. لم يكن قد مضى على
خروجها من المستشفى سوى يومين. رن الجرس فتحت.
يوسف؟ كال عابا. تتعرض لحادث وتختفى المستشفى
ولا أعلم؟ كوي وبسأى منطق؟ كعنته كان على حق. حكيت له
تفاصيل ما حدث. استمع وهو يدهن ثم قال: غذا اسأل الطبيب
إن كان هناك ما يمنعك من السفر، تعلمت إليه مشائلة. قال.
تعودين إلى مصر. لا أريد هذا البلد، قلدي في بيتك في
جامعتك. ولا داعي للبهلة! كل غاضبا. ابتسمت. سأبقى حتى
انتهي من على في الأرشيف. عيدة يا شجر، ولا غادة. ماذا
لو تفتدوك، ماذا لو قتلوك؟ ماذا لو... قاطعته بالصوت
قالت: لم أكل إن الحادث كان منبرا، قلت : احتمال، مجرد
احتمال!

لم يقتلها أحد في البلد الجديد. هو الذي ذهب. مات كسدا في
بيتة، جامعتة. مستذهب إلى أمه في الصعيد، تقول لها: لا تقلى
فيه عرا. إنك قتل. الجامعة قتلت. أي هراء هذا يا شجر. ليس
هراء هي الحقيقة، يوسف كان سيوت في كل مرة لتعصت
فيها قوات الأمن الحرم الجامعي وأمرته بالقتال المسبولة
للنوع. كان سيوت يوم هاجم الجود الذينة الجامعة وقتلوا

عائد جيد العريس الوفاة. يقول يا شجر أولد عنده مبعثش
سنة. مستجد في سنة أوني يا شجر. أهله قرا قلاحي، خطوا
القرش على القرش وبمرو الجامعة يطلم. خمسة أشهر،
يا شجر، وقالوا لهم تعالوا خذوا إنكم من المشرحة. ابتلع
يوسف الموت مرة، مرتين، ثلاثا. ثم جرعة أخيرة، أقل ربما،
لم يحتلها. قتلتة.

سافرت شجر إلى الصعيد. جلست أمام المرأة الكبيرة. هلمت
رأسها. تم نل شيئا. ركبت الطلار. عانت إلى القاهرة.

لم تكن جنازة، قرع الطبول والموسيقى العسكرية تفرص
يقاعها على الحرم الجامعي، تنفع بالطلاب إلى التجميع على
جانبى الموكب للمشاهدة. "يقاع؟" توقفت شجر فجاء أمام
عبارتها، لم يكن هناك يقاع بل شالا أصوات راحة متدخلة.

- ما الذي يجري؟

- السوى

- السوى، يعني يه؟

- المهرجان السوى، حضرتك أول مرة تخطي الجامعة؟

لم تشهد أبدا، لم تسمع به. أمر مستجد، على الأرجح. في
المقمة أولاد وبسات يحملون أعلاما شتى ملونة، مجرد أعلام

كبيرة ملوثة لا تمثل شيئاً بعدها أعلام الكليات واللافتات؛ اسم الكلية مكتوب بحط عشوائي على ورقة مقواة يحملها طالب يتقدم مجموعة من طلاب الكلية وطالباتها. ملابس فرعونية، عسائم تركية، ثياب عصرية دارجة، ضباط وسوقون فلاحيون بسلاسل، بذات في ملابس المسهرة، في ثياب الفلاحات، اهزيات في الملابس السبع، فرقة من عازفي المراسل قسّى للملابس الهادية. جعل تنكّري؟ تسامحت شجر. كيف سمعتها البنت الواقعة بجوارها؟

- إنهم يمثلون تاريخ مصر.

- تاريخ مصر؟

- من أين أنتم بهذه الملابس؟

- من الإيجازن.

أية مخازن؟ لم تسأل شهر وبى وجدت تمسيز! لقدّم الملابس ورثاقتها. لم يعكر أحد في سبلها وكبرها. العجازن. ربما للجامعة صندوق يفي باحتياجات فرق الهواة للتنشيطية. من يولول؟ طالب لابد أن أحد الطلاب يسخر بطريقة فجّة من الموكب، يتعالى الصوت. لويسن طالباً ولا طالبة، جماعة مولولة لافتة كلية الطب. لافتة أخرى تنمها مرهوعة على صندوق خشبي ملفوف بالأسود، مكتوب على اللافتة: "من إيجازات كلية الطب" حاملو الثعبان من الطلاب يولولون وهم يصيحسون. يشاركون بعض المنزرجين. يختلط المويل بالصحك

تعليقات الساحرة. بالإلهي كيف يستعطي محاسناتها وبسط هذا الصحب. طالب يرتدى ملابس بيليور، يخشى ألا يتعرف عليه الطلاب. يرفع لافتة مكتوب عليها: "تأليف وروجه الملكة مازى لطواتيت" لا داعى للشعر المستعار، الحجاب يفي بالعرض! لافتة كلية الآداب من خلفها عربة حططور عليها ثلاث طليفت يعطون وجوههن بقلالات ملوثة حمراء وصغراء وخمراء؛ لون لكل بنت ومن خلفهن بنات يرتدين قبعات وملابس عصرية. "كلية فاطمة" هدف أحد الطلاب فبدأ الصفيح والتعليقات. وجدت شجر نفسها تنقص على الطلاب الذي يحمل علم كلية الآداب وتنزعه منه. دفعها بقوة. حالت أجساد الطلاب المتراصة من سقوطها على الأرض. استرد الولد العلم فصارلت المشهد. كصندت رئيس الجامعة، لم تجده، تركت مبنى الإدارة إلى مبنى كلية الآداب، مكتب العميد.

- ميادة العميد موجود؟

- عنده اجتماع.

فتحت الباب ودخلت.

- خير يا دكتور شجر؟

لم تقل شيئاً. مدت يدها وأمسكت يده وأقابتة عن مقدمه، جذبته ليقيمها. تمعها. نزلت السلم وهى تمسك بيده خرجاً من باب الكلية. أشارت بإصبعها إلى الموكب:

- فطّر؟

تطلع إليها، انقسم. صحبك.

- ما المشكلة يا دكتور؟: المهرجان السنوي للجامعة؟!

- كارنفال؟

- ليس كارنفال

قامعته:

- مولد؟

- موكب إحتفالي، لعب وممثل لمشاهد من تاريخ مصر، أنت

أستاذة تاريخ يا دكتور؟

انقسم وتركها واقفة كصمم. لا لم تقف كالصمم. صاحبت في

الطلاب، صرخت، لا تذكر ماذا قلت، تذكر أن صوتها ضاع

بين قسوع الطبول و صفح المراسير والتعليقات. اتجهت إلى قاعة

المحاضرات، لم يتغلب الميكروفون على صخب المهرجان.

توقفت.

لم تعد إلى الجامعة طوال الأسبوع. وعندما ذهبت وصلها

كلام العميد عنها: "الذكورة شجر فقدت عقلها، دخلت على وأنا

في اجتماع وجديتي من يدي، تصورت أن حريقاً شديداً في

الكلية أو كارثة ما على وشك الحدوث، لم أجد سوى موكب

الكليات، فقدت عقلها".

لم تنتظر. أنت بوراقة بضماء كتبت:

"الأستاذ الدكتور عمود الكلية،

تحية طيبة وبعد،

أرجو إعفائي من كافة مسئولياتي في قسم التاريخ بالكلية
فقد التقمت غفرك بلا ضرورة وكنت على وشك أن أشعل
البار في نفسي وفي الكلية. ولا يخفى عليك أن هذه كلها من
علامات الجبن. ومن المؤكد أن المكان الطبيعي للمجانبين ليس
الجامعة بل المصحات النفسية.

لو منح- إن فانتك معاني للكلمات السابقة- أن هذا طلب
استقالة.

أ.د. شجر محمد عبد العطار

غادرت الكلية إلى البيت. أكدت على السواب: "لا أريد
زيارات، من يمسأ على قل مافرت". صعدت إلى شقتها. أنت
بمقص وقصمت سلك التليفون.

١...بحرك ركب سعيد من النبل الكبير في اتجاه منطقة القناة، فبلغ في مساء ٦ ديسمبر ١٨٦١ عتبة الجسر شمالي بحيرة التمساح، وزار ساحة الحجر رقم ٥ وهي إحدى الساحات الست المقسمة إليها تلك المنطقة. وقضى سعيد هناك اليوم التالي زار فيها فحاء تلك الجهة، كما شاهد الموقع الذي احتير مصيبا للقناة البحرية في بحيرة التمساح. وأعجب سعيد بهذا الموقع وطلب أن يشيّد له سكن خاص على الهضبة يشرف على مصيبي القناة البحرية في البحيرة حتى يرى ويسمع هدير السواب مياه البحر المتوسط في بحيرة التمساح.^٢

وخلال سعيد عتبة الجسر في الساعة التاسعة من صباح ٨ ديسمبر ١٨٦١ ومعه ديلسبس والعائنية وقساموا بجولة عند الجهة التي وقع عليها الاختيار لتكون موقعا لمدينة التمساح (الإسماعيلية فيما بعد)... ومن هناك قام بجولة أخرى حول أبار نهضة ثم تابع طوافه إلى مزرعة بير 'أبو صلاح' وهي من منشآت الشركة... وأخيرا وصل رحلته فبلغ حوالى الظهر

مركز طوش جنوبى بحيرة للتمساح، وقد أطلقت الشركة على هذا المركز اسم طوشن وهو ابن سميد بئشا...

وفى طوشن أعد اللالى استقبال حافل فدخل المدينة منتظبا مسهودة جواده وبجواره ديليس ركبى هو الآخر حصانه، ومارا بين صفوف متراصة من العمال المصريين هتفوا بحياته، وعرفت موسيقى العرس. وكان ركب سميد بئشا يتألف، هذا هذين الجوانين، من ستة جمال عليها فاخر السروج ركب عليها كبار أفراد العائلة، تتبعها عربة سميد الخاصة تجرها ستة بغال ثم قوة من الجيش المصرى، وعلى أثر هذا الاستقبال وطوفانه بالمشابل للى أقيمت فى طوشن انتهت الزيارة وقيل سعيد عافدا إلى حاصمة ولايته.*

لم تكن المرة الأولى التى تقرا فيها شجر كتاب عدد العرير الشداوى "لشجرة فى حجر قبة السويس". تهكت فى قراعه كأنها المرة الأولى. فى هذه الزيارة سينفق سميد مع ديليس على حل مشكلة الشركة بفرض الشجرة ونقل العمال إلى سادات الحضر 'بالرور' (وهو ما ورد على لسان بعض الفلاحين حين سألهم سلاح إنجليزى وسجل البارة بعضها بالحروف اللاتينية). كل شهر عشرون ألفا يعملون فى سادات الحضر، وعشرون ألفا فى الطريق إليها وعشرون ألفا صلتين إلى أراهم، موزعين بين المراكب للسلحة فى النيل وللقطارات المتجهة من القاهرة إلى بنها والركازيق أو منها إلى القاهرة،

ولقوا بل عبر النيل الكبير متجهة شرقا فى طريق الذهب أو غربا فى طريق السود.

وصعت علامة فارقة عدد صفحة ١٣٠ التى ترد فيها عبارة 'بالرور'. أطلقت الكتاب، وصعته على الطاولة الصغيرة الملائقة للمرير. أطلقت الدور. الفناء الأهم بين سميد وديليس. سينتقل فيه على توريد عشرون ألف عامل منجرة شهريا إلى مناطق الحضر. وسيفر سميد- أو يقرر ديليس ويوافق سميد على تخفيض عدد الجيش المصرى وتوزيع الجود وتحويلهم إلى العمل فى سادات الحضر لماذا تعود لقراءة هذا الكتاب الذى أراته عدة مرات وتعرف كل ما ورد فيه؟ هرت كتيها. هناك سبب، دائما هناك سبب.

لتسأل: هذه الكتابة المعلقة بين حياتين، أين تأخذنى؟ أحقق فى الشاشة الليضاء. يبطه تتحرك أصابعى تحق على أرلر الالة تؤلف بين حكائيتى وحكايتها. أتوقف وكانى على مفترق طريق. أقام. أصرف أن شجر الآن فى هذه اللحظة للى أجلس فيها للكتابة تمشى وحيدة فى الطرقات تركت الجامعة ولم تعد. قادرة على الكتابة: ثلاثة ملفات تقع على مكتبها يحمل كل منها مشروع كتاب، ينتظر أن تفتح وتبدأ فى استكمال مادته وتكوين فصوله. تحرى الملفات الثلاثة، تسكها، تفتحها. تعلقها.

الأمريكية محصنة بكتل من الإسمنت تحتل جزءا من الشارع،
تمثال مسجون بوليفار، الكرسي المصفوفة لاستقبال العزاء في
مدخل مسجد صدر مكرم، نقش ومشيمون وصوت يتلو آيات
من الذكر، تواصل إلى ميدان رمسيس، تصفّ السيارة في
موقف محطة القطارات، تنزل، تعبر الشارع تدور حول تمثال
الفرعون القديم، تعود إلى سيارتها، التحرير مرة أخرى، شارع
القمصر العيسى، المستشفى، قصر الأمير، كوبري الجامعة، ثم
تتحرف يساراً لا تتطلع إلى عاصمة مختار والقبلة وييسهم
الصعب التذكاري لشهداء الجامعة، لا تملك أن تتطلع.

تعود إلى البيت، تفتح الباب، تعلقه، تلقى بالعصا، تجلس،
خفت أم صلت بها الجدول؟ هل تفكر؟ ييمو وكأنها لا تفكر
في شيء بعينه، شمع وشذرات تصبى ونحسى كتلك الحشرات
تنبؤة الطيارة

نير ذهبت الحسوم؟ هفت شجر جاة وهي تقف في شرفة
بيتها.

في الصباح ركب سيارتها وشرقت، تجاوزت المقابر وقلمة
الجدل ثم شرقت أكثر إلى الطريق الصحراوي، لا شيء سوى
الرمال والحصى والتلال الجرداء، واصلت إلى أن رأت الكتلة

تعيدها حيث كانت، تغادر البيت، تركب سيارتها، صير باتجاه
كوبرى عباس، تقطعه إلى جزيرة منيل الروضة، تعبر كوبري
الملك الصالح، تتحرف يمينا، تصفّ السيارة وتشفى، البابات
المتراصة عن يسارها، التهر عن يمينها، محجوب، بقي
الصفاوح، ثغرة بين جدارين: الماء ومن ورقه الخليل، غلب
صيد حوته سرة ما إلى مقر اقامتها الدائم، امرأة تقترش
الأرض ترصع طلعها، تحضنه بيمائها، ويمسرها تحرك
مروحتها على كيزال السدرة الموضوع على جمرات مشتطة
في الجهة الأخرى المباني المتהלكة، وراءها كنوز مصر
القديمة: الحصن والكنائس وجامع عمرو لا يظهر منها شيئا
للعابر في طريق السيارات السريع.

تغادر البيت، تركب سيارتها، صير معادة النيل في اتجاه
كوبرى الجامعة، تتجاوزها إلى كوبري الجلاء، تعبر إلى
الجزيرة، جانب من الطريق: الأوبرا، الجانب المقابل: متحف
محدث، تمثال مسعد زغلول في الوسط، الأسود البرونزية على
مطلع قصر النيل ومرله، النحلات الثلاث فيمدان التحرير،
بت صغيرة في الحلمة من عرها، على الأرجح، تركب
بين السيارات، تبع مداخل ورقية، الأولاد يلعبون الكرة تحت
الكوبرى، سيارات الأمن، الجود.

تغادر البيت، نفس الطريق، منزل كوبري قصر النيل،
النحلات الثلاث العساق المالية، السفارة البريطانية، السفارة

الجبالية الوعرة تمتد عن يمينها معبدة هلالية الشكل، تمتد:
 "عقاة: البوابة الغربية للبرج"، لم تقصد البرج، تجاوزته إلى
 الطريق الواصلة بين المدن الثلاث، أوقفت سيارتها ونزلت
 قطعت الحيز الرملى الفاصل بين طريق السيارات والمجرى
 المائى، "خاضرة مصر"، آخر خط دفاع عن مصر البلية،
 دفاع قوى ضد هجوم صعب.. دفاع صعب ضد هجوم
 قوى، ما الذى أتى بهمال حمدان الآن؟ تلهفت الأرق
 الصريح، بدا بريئا لا يشئ بالحكاية، مسطح وبيع، تحيل
 ورهيف كجسد المسبح، تنبته إلى ثلاثة جنود واقفين على أعلى
 التلة الرملية، ربما يتصاعدون لماذا تقف فى هذا المكان، يهبطون
 فى اتجاهها، يقتربون. أولاد يحملون يداى قديمة، ينظفون.
 بمصون مبتعدين، هل يعرفون حكاية الأطفال؟ هل يعرفونها؟
 هل تستمعهم الآن لتحكى لهم؟ من أين تبدأ؟ الولد، كلى هناك،
 واقفا مثلهم، مشرفا، يحمل بندقيّة عتيقة، هناك على البوابة
 الرملية فيما وراء الماء، أطلق الولد النار فجأة، هل كلى خائف؟
 قال الولد "هل ترك الحدود بلا دفاع؟" أطلق النار، قتلوه، هل
 كان يعرف الحكاية؟ غريب، غريب، لا شئ، صبيغ، لا شئ.
 بإمكانها الآن أن تأخذ الأولاد، تمسك يد واحد منهم بيسارها
 ويدى الثلثى والثالث يمينها كأنها تعبر بهم الشارع إلى
 المدرسة، خطوات، مجرد خطوات، ينشون الرمل، تنشأ طعيفا.
 بإمكانها الآن أن تتأديهم ليقفوا معها على حافة الماء، هنا أيضا

بإمكانهم أن يروا كل شئ. تمر من أمامها حاملة بصائع
 تمرى على الماء ببطء ونيد، لا يظهر أحد من مرشديها ولا
 طاقمها الاثنى من أين؟ من بلاد الشمال البعيدة؟ من الجنوب؟ لا
 يتبهون، هل يتبهون؟

كانت شجرة، ركبت سيارتها، سارت بمحاذاة المجرى
 المائى، الشلوفة، جبقة، كبريت، فايد: قصور الأثريه،
 المتجتمعات الصيفية، أشجار الموز، الغرموار، مشارف
 الإنماعانية: "الممر الطبيعى بين سهول سيناء وسهول
 فلسطين"، جمال حداد مرة أخرى، غربا إلى قلب الدلتا، شرقا
 إلى قلب فلسطين، دخلت المدينة، سارت بمحاذاة ترعة الماء
 العذب، انحرفت يمينا إلى موقع مشرف على البحيرة حلست
 لتناول عشاءها، القوات البريطانية مرت من هنا إلى فلسطين،
 القوات الإسرائيلية أتت من فلسطين وصوبت مدافعها هنا،
 القلاخون أتوا من صعيد مصر ووجهها البحرى، عبادوا، أو
 ماتوا، لماذا بقى القصور حاصرا إلى هذا الحد؟ لماذا تصون
 الذكرة لشباب نون أثناء، المذبح خشبى صغير موصول
 بالكهرباء، من هذه البت المصنعة؟ يبعث الصوت مطنا: قمران
 من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس
 البحرية شركة مساهمة مصرية "محسك يا مصرى وأنت ع
 الدقة/ والفرحة عاملة فى الكنال راسة/ رئيسا قال معيش محال/
 راح للحيل وابس البلد كفى"، "نسجت قوائنا إلى حط الدفء

الثاني. أين يقع خط الدفاع الثاني؟. أنتحى بشكل كامل ومهاتيا المذبح ينتحى. "لا". أثار من جديد على جثتي المجرى المائي بطول الخط بين المدن الثلاث. بعث من المحمول على الاكتاف؟ "بالروح بالدم بفديك يا ربنا". "بالروح بالدم نفديك يا جملاً". "يعبرون إلى الضفة الأخرى. الله أكبر والجنود وأمراء الحماة. بعث من المحمول على الاكتاف؟ بعث العميد؟ بعث سيدة العشاء؟ بعث الولد؟

"عذى السهار". "الدرس انتهى، لمتوا لكراريس".

ركبت شجر مياراتها واصلت الطريق: القردان، البلاح، القطرة، الكاب، للتية، رأس العث. وأحيرا المدينة الصرة: بور سعيد، غريب أمر الأباطرة ينحسبون المدن أسماءهم. يتصورونها بمالا أو أصلية. يركبونها. يأتون صورتهم على صهورتها في تماثيل الحديد. للمدن دهاها، تبقى الإسم لنفسها، تسقط عنه صاحبه وتمضى في أمان الله، لا تلوى على شيء.

قصت القيلة في يسور سعيد.

في اليوم التالي عادت لأراجها. توقفت في رأس العث. في القطرة، توقفت في البلاح وفي القردان. توقفت في النفرسوار. واصلت طريقها إلى السويس. كانت الشمس على يمينها ذهبية في اتجاه التلال، شابت وراءها.

أوقفت مياراتها. برلت. ملأت حتى وصلت شاطئ القنال. انترشت الأرض. سماء القاهرة لا تظهر النجوم. حذقت في

السماء. رأت امرأة تعرض جسمها على الأفق. تلامس الأرض بأطراف أصابع قدميها من ناحية الخلو، وبأطراف أصابع يديها من ناحية جبل عاتقة، وبسرها مجرى الساقين يسلم نفسه صاعدا إلى البطن المرتبط بالنجوم ثم يميل القوس هابطا بذراعيها الممدودين. امرأة غريبة تبثع صغارها في الصباح وكل مساء تدهم من جديد. نجوم ثلاثة ترتبط بهر جسمها وأطرافها. رُصع تحيط بأوامهم الصغيرة بعلماتها الكثر. امرأة بقرية. رأت شجر البقرة. للأرضان والساقان قوائم تعلو وترتفع. من هذا الطاع في المن أراكب على البقرة؟ عظامه خنسة وشعره لأرود وتاجه فيروز. قوس السماء ممرع، من هذا الصغير الأركع تحت ضرعها؟ امرأة- بقرة تتوارى في أوراق الجوز، تطل برأسها من وراء الشجرة، من هذا الذي تمطيه طعما وتصعب له الماء؟ امرأة- عين، على بوابة الأمل، تفتح ذراعيها لتستقبل القادمين إلى التلال العربية. أين ذهبت البقرة؟ من أين أنت البقرة؟ تموى تطلب نساء. تركهن مواترة في اتجاه غروب أو شروق. دم من ذلك الذي يسيل؟ من الذي ولد في هذه الساعة؟ المرأة السماوية تبثع صغارها من جديد. ماذا دهك يا شجر، توغل بك الليل وأنت جالسة بلا حراك ماحونة بصور لم تعد سوى نقش في القبور؟ نهر رأسها. عباها تكتبل. المرأة أمام عينيها معرشة على الأرض في العشاء، على رأسها إساء، في بطنها إساء. قاتلة قبلية طلام.

أطباء، الأطباء تفتح أبوابها، تؤكد مصداقيتها، تمرى فى
المجرى المستتر. من هذا الذى يكون له حكايتهم، يملأونه
عزما فيملا أنوفهم بسيم الحياة؟ من هذا الذى ينتحب صباح
مساء ولا يفارق حبيبته ولا يطولها؟

صوت من هذا المتردد فى الأعلى؟ أين دقاته وأين
التميز؟ هل دونت كل شيء؟ ما الذى سجلته يا وجه الطائر
دى المنقار الطويل؟ هل نقت الحصاب وفصلته فى دقاته؟
هل صنت مجلداتك فى الدماس؟ هل تلك الأربطة، متى تلك
الأربطة؟ هل تفتح العم وتطلق منه الكلمات؟ لفتحها واطلقها
فتتعلق أسطح من النموء، أسرع من كلاب الصيد، أحف من
الطفل.

لم تكن نائمة، لم يكن عقلها شاردا فى الزمان. كانت شجر
ترقب بيتها وتطمئن.

ركبت سيارتها وقلبت عائدة إلى القاهرة.

تمت

القاهرة

أكتوبر ١٩٩٨

إشارات

- الأبيات فى الفصل الأول من قصيدة للشاعر ميوزر فاييغور
من بيروت، قسمت بترجمتها مع استبدال "كل أحبابه" بمباراة "كل
أهل الأرض" الواردة فى الأصل.
- محمد عزت تميمي: أول شهيد الطلبة فى ثورة ١٩١٩،
وكان استشهاد فى ١١/٣/١٩١٩
- محمد عبد المجيد مرسى: طالب فى كلية الزراعة، استشهد
برصاص الشرطة فى انتفاضة الطلاب عام ١٩٣٥
- عبد الحكيم الجزاى: أصيب برصاص الشرطة فى بعض
الانتفاضات ونقل إلى المستشفى واستشهد بصد أيسام وكلى
استشهد فى ١٩/١١/١٩٣٥
- خالد عبد العزيز الوفاة: استشهد فى مظالمات الطلاب
احتجاجا على قصف الحراق فى فبراير ١٩٩١
- مصادر شهادات أهل دير ياسين:
- شهادات عريزة إسماعيل عطية وزهية أحمد أسعد رضوان
وأم عبد وحسين عطية وإسماعيل محمد عطية وحليل ستور
وحسن رضوان من مقالات الدكتور وليد الخالدي السبع،
"خمسون عاما على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات
صهيون" جريدة الحياة، ٩/٤ إلى ١٥/٤/١٩٩٨

ومقالات ولأيد الخالدي، "خمسون عاما على ملحمة دير ياسين".
- الجزء الأول من شهادة تريا حبشي من شهادات ورؤى، لجنة
توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ومركز البحوث
العربية، القاهرة، ١٩٩٨
ولود هنا أن أتوجه بخالص الشكر للسيدة خيرية أبو شوشة
من جامعة القدس، والسيدة عادل الميمني من مركز خليل
سكاكيني بسلام الله، والسيد حسام الجرجوشي من رام الله،
والدكتورة إصلاح جاد من جامعة بير زيت على تفضّلهم
بإرسال ما طلبته منهم من مطبوعات وشهادات.

- شهادات نعمة زهران وجيلة على وفرتها على السيدة خيرية
أبو شوشة من جامعة القدس والسيدة عادل الميمني من مركز
خليل سكاكيني بسلام الله.

- شهادة زينب محمد عطية (أم صلاح) من مقابلة أجرتها
شفيقة عياد، جريدة البلاد، ١٩٩٧/٥/٦، ومقابلة أجرتها ريم
عبدو وردت في مقال "خمسون عاما على النكبة"، جريدة
البحار، ١٩٩٨/٥/١٦

- شهادة أم عزيز من مقابلة أجرتها شفيقة عياد، جريدة البلاد،
١٩٩٧/٦/٥

- شهادة محمد محمود أسعد منسوخة بخط يده أرسلتها إلى
السيدة خيرية أبو شوشة من جامعة القدس.

- شهادات أبي توفيق الياسيني وأبي محمود من فيلم البي بي
سي عن الصراع العربي الإسرائيلي

- شهادة أبي ياسين من كتاب شريف كناظمة ونهاد زيتاوي،
دير ياسين، سلسلة القرى الفلسطينية المدمرة، مركز الوثائق
والأبحاث، جامعة بير زيت، ١٩٨٧

- شهادات الضباط الإسرائيليين من:

The Fifty Years War: Israel and the Arabs, Based on the BBC
TV Series, ed. Aharon Bergman and Jihan el-Tahri, Penguin
Books and BBC Books, London, 1998

ودراسة المنظمة الصهيونية لأمريكا:

"Deir Yassin: History of a Lie", March 1998,

روايات الهلال تقدم

أربع وعشرون ساعة فقط

بقلم

يوسف القعيد

تصدر: ١٥ مارس ١٩٩٩

● نموذج الاشتراك في روايات الهلال ●

يمكنكم الحصول على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك في روايات الهلال بإرسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفي (باقي دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل ب خطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم :

العنوان :

مدة الاشتراك : التليفون

داخل	البلاد	آسيا - أوروبا	أمريكا	باقي دول
ج. م. ع.	العربية	أفريقيا	الهند- كندا	العالم
جنيه	دولار	دولار	دولار	دولار
٥٤	٢١	٤٥	٤٥	٥٤
اشتراك سنوي				
٢٧	١٦	٢٣	٢٣	٢٧
اشتراك ٦ شهور				

رقم الإيداع: ١٦٣٠٣ / ١٩٩

I.S.B.N

977 - 07 - 0625 - 6



رضوى عاشور

- مولودة في مدينة القاهرة عام ١٩٤٦
- تشغل وظيفة أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية الآداب - جامعة عين شمس .
- تنشر الرواية، والقصة القصيرة، وتكتب النراسة الأدبية ، ولها ثلاثة كتب نقدية، والعديد من الدراسات في الأدب العربي الحديث، والأدب الانجليزى، والأدب الافريقى، والأف - أمريكى.
- من رواياتها «مديحة وسوسن» و«سراج».
- حققت ثلاثية غرناطة (غرناطة، ومرمرة، والرحيل) نجاحا ملحوظا، حين نشرت في روايات الهلال، ولما زت بجائزة أحسن كتاب...

ولكن، لماذا جاعتى شجر وأنا اشرع في الكتابة عن نفسي ؟
من هي شجرة؟
هذا نص روائى جديد للكاتبة المبدعة رضوى عاشور، التي عرفها القارئ روائية متميزة، وفي هذا العمل الجديد تؤلف بين حياتها وحياة شخصية متخيلة، تمزج بين عناصر السيرة الذاتية والإبداع الروائى تتحرك بين الأسطورة المصرية القديمة، ووقائع التاريخ العربى الحديث يوثاقه الشفوية والمكتوبة.
«أطراف»
تجربة جديدة على مستوى الشكل، ومؤثرة فيما تسرده من تفاصيل.

عائلة روايات الهلال

- إذا كنت من هواة قراءة الإبداع الرائق عربيا وعاليا ، فشارك معنا عائلتنا الإبداعية: «عائلة روايات الهلال».
- احرص على اقتناء نسختك الشهرية ، أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد المضمون الى عنوانك .
- عاما من الإبداع المثالى .
- تم اختيار أعمالنا لتكون أفضل الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية.
- تحصل رواياتنا على أهم الجوائز الأدبية . وتتم ترجمتها إلى لغات العالم.
- مرة أخرى .. إذا كنت من قراء الإبداع الجيد .. فانضم الى «عائلة روايات الهلال».

